

عبد المحيظ فرغلي القرني

هَذَا السِّرُّ

في رحاب السيرة العطرة
رحلة مع السيرة المطهرة
محمد المثل الكامل
مظان وعبر في سيرة خير البشر
الرسول شاهدا ومبشرا ونذيرا

١٩٨٣

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »

قرآن كريم ...

سورة الأحزاب : الآية ٢١

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين .
وبعد ...

فانه يستعصى على القلم أن يتناول هذه السيرة العطرة ، انها تحتاج
الى قلم نورى يفيض الله عليه من قدسه ما يجعله أهلا لأن يعرضها في ثوبها
اللائق بها ، كما تحتاج الى مدد روحى يتفهم به جوانب هذه الشخصية
المريدة وعطاءها الزاخر الفياض .

وكيف يتسنى لقلمي العاجز أن يكتب عن خير البشر بعد أن قرظه
الحق جل وعلا بقول يفوق كل بيان ويتحدى كل تبیان حين خاطبه قائلا :
« **وانك لعلى خلق عظيم** » ؟ .

وحسب هذا القلم المتواضع أن يستقى من تلك المنابع الثرة والمراجع
المشرقة المتقدمة بعض وقفات يجد المسلم فيها قبسات تعينه على دربه
وتهديه الى ربه وتعرفه فضل نبيه وتذكره بواجبه .

وما أحوجنا في هذه الآونة من حياتنا وقد اعتصرتنا الدنيا ، واحتوتنا
المادة ، وتجاوزتنا النوب ، وأحاطت بنا المخاوف ، وتطارحتنا المشكلات ،
ما أحوجنا الى أن نراجع سيرة القائد الملهم وجنوده المخلصين الذين باعوا
نفوسهم لله ، وآثروا رضوان الله ، واستخلصوا من هدى رسولهم الكريم
طريقا سلکوها فبنوا أعظم دولة وشيدوا أروع بنيان ! .

ما أحوجنا الآن الى أن نجدد إيماننا وأن نعود الى صفاء ديننا
وأن نصحح خطواتنا وأن ننطلق معا في ركب زاده التقى وعقيدته التفانى
في الله وحب رسوله الكريم — صلى الله عليه وسلم — حبا يفوق حبنا
لأنفسنا وأولادنا وأموالنا ، تصديقا للأثر الكريم : « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون**

الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وكيف لا والقرآن الكريم يقول :
 « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِنْسَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
 اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا هَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ » ؟ . (النوبة : ٢٤) .

ان حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — سجل حافل بالأعمال
 الجليلة التي يجد فيها كل انسان ما يحتاج اليه من هداية في دينه ودنياه ،
 في مسعاه للآخره والاولى معا ، نلم يكن المصطفى — صلى الله عليه وسلم —
 الا مثلاً أعلى وقمة تنمى به الله لياحد بأيدي الناس في هذه الحياه الوعرة
 المسالك الى طريق مهيده مكنل لهم السعاده والاطمئنان . هذه هى رسالته :
 « ذُلَّ سُلْطَةُ سَبِيئِي انْشَوَ الْكَلَامُ بِصِيْرَةِ رَهْنٍ يُبْنَى وَسَبْحَانَ اللَّهِ
 وَمَا أَنَا مِنَ الْمُفْرَمِينَ » (يوسف : ١٠٨) . ولذلك سعد من سار على ستن
 هذه الرساله وتنقى من تنكبها .

ولم يكن اختيار الله جل وعلا لهذا الرسول الكريم — صلى الله عليه عليه
 وسلم — لان يكون حاميا للانبياء والرسال عبثا مجردا من الحكمة ،
 بل هو اختيار مرده في علم الله الى غاية الحكمة البالغة البصيره بما سينبئ
 عنه المستقبل ، ويهوج به العالم وسفجر عنه العقول وتسفر عنه الأحداث ،
 وما سيحتاج اليه ذلك من دليل يرد الرثيب بمنهج صالغ لكل زمان ومكان ،
 فتستفيد الدنيا باباعه وتستعد الاسانيه لو استمرت به ، فكان هذا الدليل
 هو النبي صلى الله عليه وسلم الذى لا نبى بعده ، وكان هذا المنهج هو كتاب
 الله وسنة الدين ما تضمنت فيهما الا مهيد وما أبتعد عنهما الا ضال .

وقد اصطنع الله رسوله لنفسه ورياء على عينه ، فجعله نموذجا
 أعلى للكمال الدينى والدنيوى معا ، فلا ينبغي أن يصدر عنه صلى الله عليه
 وسلم الا كل ما يكون له هدف في تحقيق معنى هذه الحكمة التي ارادها الله
 من بعثه ؛ وأنه خاتم الرسل الذى اتم الله به النعمة وأكمل الدين ، وجعل
 التشريع الذى جاء به متضمنا من أسرار الحياه والمرونة ما يسير مع الزمن
 ويحيا مع التطور ، وبذلك يفسر جلال الاسلام وجماله ويفهم معنى تضارنه
 واستمراره .

وهكذا ينبغي أن يفسر ما كان يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من تصرفات غاب سر بعضها عن البعض فظنوها سهوا أو خطأ . . وليس معنى ذلك أنه من طينة أخرى غير طينة البشر ، كلا ، بل هو مصداق ما أخبر به عن نفسه في قول الحق : « **إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى** » (الكهف : ١١٠) والبشر الذى يوحى إليه يجب أن تتحقق له دواعى العصمة التى تعصمه من النورط فيما ينورط فيه غيره من سائر الناس ، وتحوطه انعمانية والتوفيق للذان يكفلان له أن يؤدي رسالته بنجاح ، فتكف عنه بطش الفاتك وأذى القاتل الذى يعوق الرسالة عن المضى إلى غايتها اننى أراد الله ، وإن كان ذلك لا يعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتعرض لأذى ، أجل ، فقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذى عات شديد ونحمله في صبر وأناة ولم يجعله هذا الأذى — على الرغم من ضراوته — أن يفقد حلمه الذى فطره الله فيه ، فكان دعاؤه المأثور الذى يشهد بفيض رحمته : « **اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون** » .

• وهو من أجل أنه بشر كان أهلا للقذوة الطيبة التى يدعو الله عباده إليها حيث يقول لهم « **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** » فلولاً امكانية التأسي به في أخلاقه وأفعاله لما دعانا الله إلى ذلك ورسم لنا المنهج الذى يوصلنا إليه ، والمنهج نراه في بقية هذه الآية المتقدمة « **لأن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** » — الأحزاب ٢١ — ورجاء الله يعنى الإيمان به إيمانا زاهرا قويا وحبه حبا شديدا غالبا ، ورجاء اليوم الآخر يعنى العمل له والاستعداد للقاءه ، وذكر الله هو عدة المرء في سرائه وضرائه ، وذكر الله يستدعى ذكر رسوله الذى أرسله بأن يصلى عليه ويسلم تسليما ، فهو الذى أوصله إلى هذه السعادة الأبدية الخالدة ، ولولاه ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان .

ومن جملة التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة سيرته انعطرة ليتخذ منها ذخره الذى لا ينفد ، ويستمد منها تعاليمه التى لا تبلى ، ويأخذ منها نبراسه المشرق الذى يضيء له ظلمات الحياة وينقذه من عثرات الطريق إلى الله . . وبذلك يجمع بين خيري الدنيا والآخرة ، مصداقا لقوله

تعالى « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » — النحل ٩٧ — .

ان القلم ليشعر بالعجز حين يتناول هذا الموضوع الكبير ، ولكنه يستلهم من نور المصطفى صلى الله عليه وسلم شعاعا يعينه على بلوغ غايته التي يريدها . راجيا من الله سبحانه وتعالى التسديد والتوفيق ، وأن يرزقه الاخلاص في طريقه ، حتى يكون ما يكتبه من وحى النية الصادقة الصالحة والقصد النبيل الهادف . والنية الصادقة أساس كل عمل ناجح « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » .

اللهم اجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم ، واجعله في ميزاننا يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وارزقني حب نبيك الكريم حبا يملأ شفاف قلبي ويملك على جوانحي ، فلا طريق اليك الا عن طريق حبه ولا سبيل الى معرفتك الا بسلوك دربه « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » — آل عمران ٣١ — .

عبد الحفيظ فرغلي على القرنى

الحديدة في ١٥ من صفر ١٤٠٢ هـ

١١ من ديسمبر ١٩٨١ م

النبي المنتظر

تتابعت القرون بعد ميلاد المسيح — عليه السلام — ورسالته ، وكلما امتدت القرون ابتعد الناس عن الهدى ونأوا عن الصواب ، بل انه لم يطل الوقت بعد ارتفاع المسيح الى السماء حتى غير أتباعه وبدلوا ، ولم يبق على الجادة سوى عدد قليل ضنوا بأنفسهم عن الاختلاط بالناس فأنزمو أنفسهم محاريب الأديرة والصوامع يتأملون في صمت ويعبدون في خفاء ، أو تفرقوا في الأرض ليس لهم صوت أو تأثير .

وكثر الشقاق بين أتباع الدين الواحد ، وبينهم وبين اليهود الذين جاءت رسالة عيسى لتصحيح خطواتهم ولتهدي خراف بني اسرائيل الضالة ، كما جاء على لسان المسيح عليه السلام .

واتسعت الهوة بين أتباع الديانتين حتى ذهب ضحية هذا الشقاق الآلاف المؤلفة ، فحين يحفر ذو نواس اليهودي الأخدود للمسيحيين ليحرقهم فيه أحياء يقوم قسطنطين بعد اعتناقه المسيحية بإجبار اليهود على اعتناقها بالحديد والنار ، وكيف يتمر دين — كانت القوة الغاشمة وراءه — ثماره المرجوة ؟ أو كيف يستقر وجدان انسان يعلم أن ما يؤديه من شعائر لا يوافق عقيدته ولا يوائم ما يؤمن به ؟

وسارت الأيام بالكتابين وهم يغيرون ويبدلون ، حتى أصبحت للديانتان — اليهودية والمسيحية — مسخا مشوها لا يمت الى ما أنزل الله بصله ، بل ان الرومان الذين اعتنقوا المسيحية لم يعتنقوها ايمانا بها ، بل اتخذوها ذريعة للسلطة ووسيلة للسيطرة ، ومن أجل ذلك خلطوها بوثنياتهم وأضافوا الى حقها باطلهم ، فأصبحت خليطا من هذا وذاك .

وما ظنك بدين — وقد أصبح مسيطرا على الشام وفلسطين ومصر بعد غلبته على اليهودية — ما ظنك به وقد جاء مواسيا للفقراء مشييعا للرحمة آخذا بيد الضعفاء فاذا به يتحول على يد معتنقيه من الرومان الى وسيلة للاهتزاز والتسلط والجبروت ويتحول على يد المنحرفين عن تعاليمه

والزاعمين خرافاته والقائمين عليه الى رغبة في جمع المال والاراء غير المشروع والتمسك في مصائد الدارين به من الناس؟؟

ولم يخفى القرن السادس الميلادي على أصبحت الحالة الاقتصادية في منتهى السوء . بنى الناس من الدين وبيعانه المادية التي أقحمت عليه والتي فاسدوا منها الامرين . ولقد كان المروءات من الدين جاء لينقذهم من يرثي المادة ويأخذ بهم في طريق الجادة ويهديهم الى سواء السبيل . .

ولم يكن اليهودية خيرا من ذلك بعد أن أصبحت اقلية منوارة منطوية على نفسها ، متفرقة في أنحاء كسيرة من العالم تأكلها الخلافات وبتقاني أتباعها في جمع المال وبعيتمون على زرع الفتن والأحقاد .

أما بلاد فارس — وديانتها المجوسية — فقد اضطرت بنارها وشراع الفساد في أوصالها بعد أن استعبد الناس بعضهم بعضا . وغلب الأقوياء على الضعفاء يسسومونهم العذاب والنكال ، وضاعت المروءة وانتهكت الأعراض ، حتى لقد أحل الملوك لانفسهم زواج المحرمات .

ولم تكن جزيرة العرب بخير من الروم أو فارس أو بأفضل من مصر والشام والحبشة ، ولكنها استشرى فيها الفساد وتضاعف الشر والعدوان ، وتغيرت المفاهيم الخلقية بين العرب حتى أصبح الاسراف كرما والافاره على الأمنين شجاعة وتجدد الاعتداء على القبائل اباة وكرامة ، واستساع العرب الظلم وفساحوا به ، حتى شال ساعدهم مسوغا الاعتداء على أقرب اناس اليه :

واحيانا على بكر اخينا اذا ما لم نجد الا اخانا

ويبرر غيره الظلم بأنه ضروره اجتماعيه فيقول : ومن لا يظلم الناس يظلم ، ويرى أن المراءاة والمصانعة لابد منهما في الحياة فيقول :

ومن لم يصانع في أمور كثيره يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

أما خفر الذمة ونقض العهد فامر مستساع للقوى ، ولا يجرؤ عليه الا من كرمت أصوله ونمت مروءه ، ومن أجل ذلك هجا شاعر قبيلة بقوله :

قبيلنسه لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبه خردل

ولا يردون الماء الا عشمية اذا صدر الورد عن كل منهل

وحين افتخر عمرو بن كلثوم بفخريته الغاشمة وقدرته على
البطش والظلم فقال :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ونشرب غيرنا كدرا وطنا

لنا الدنيا ومن أوسى عليها ونبتلئ حين نبتلئ قادرينا

لقد أصبحت القوة العاشمة تتحدث عن نفسها وأخذت تستعلن لتكون
اللغة الوحيدة السائدة ، فاستبعد الأغنياء الفقراء وأدل الأقوياء الضعفاء ،
وبيع الناس في الأسواق بيع الرقيق ، وساد الظلم حتى طم ومس أقرب
الأقرباء ، وتناول الابنة الوليدة في مهدها فدفنت حية بحجة واهية هي
خشية العار أو خشية الفقر ، وماذا ينتظر من قوم ماتت في قلوبهم عاطفة
الأبوة ، وغاصت الرحمة الفطرية التي أودعها الله القلوب حتى قلوب
العجماءات من الطير والحيوان . لقد صور القرآن الكريم ذلك أروع
تصوير حيث قال « وإذا بقى أشعثهم بألأشئ ظل وجهه مسودا وهو كظيم ،
يتوارى من القوم من سوء ما بشئ به أيديسه على هون أم يدسه في التراب ،
الآنساء ما يحكنون » — النحل ٥٨ ، ٥٩ — .

هاتف الفضول : وربما كان هناك بعض الاستعداد الطيب في بعض
النفوس يظهر أحيانا فيقف من هذا الظلم موقف الاحتجاج ، من ذلك موقف
بعض أشراف مكة من العاصي بن وائل السهمي ، الذي ظلم تاجرا من بني
زبيد وفد على مكة البلاد الحرام بنجاره ، فأكل حقه ورفض أن يعطيه ثمن
تجارته ، فاستعدى عليه الزبيدي قبائل قريش والأحلاف فلم يكثرثوا له ،
فوقف هذا الرجل بجوار الكعبة ونادى قائلا :

يا آل فهر لظلوم ، بضاعته ببطن مكة ، نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر

ان الحرام لن تمت كرامته ولا حرام بثوب الفاجر الفسدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمع من بني
هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة
نفر في دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا وتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوما من
أهلها أو من غيرهم إلا نصره وكانوا معه على من ظلمه حتى ترد مظلمته ،

وقد سميت قريش هذا الحلف حلف الفضول ، الذى شهده رسول الله صلى عليه وسلم — قبل بعثته — وقال فى حقه بعد أن بعث : « لقد شهدت مع عمومى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب به امر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت » .

مواقف أخرى : ومن ذلك ما نراه فى مؤلف هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين وقفا جهودهما على اتمام الصلح بين قبيلتى عيس وذبيان — وكانت الحرب قد استشرت بينهما وطالت — وتحملا فى سبيل اتمام الصلح ديات القتلى ، وقد سجل زهير بن أبى سلمى هذا الموقف النبيل فى ملحفته قائلا :

يميننا لنعم السـيدان وجـددتـما
على كل حال من سـحـيل ومـبرم
نداركنـها عـيسـا وذـبـيان بـعـدما
نـفـانـوا ودقـوا بـيـنـهـم عـطـر مـنـشـم
وقد قـلـتـما : ان ندرك السـلـم واسـمـا
بـمال ومـعـروف مـن التـقـول نـسـلـم
فأصـبـحـتـما مـنـها على خـير مـوطـن
بـعـيـدين فـيـهـا عن عـقـوق ومـأتم

الا أن هذه البوادر الطيبة لم تلبث أن تنزوى فى طيات الظلام الذى ألقى رواقه فى ربوع الجزيرة العربية ، التى اضطربت بالشر وماجيت بالحروب ، فاصطفى الجميع بنارها ، وربما امتدت الحـرب بين حين أو أكثر سنين طويلة ..

ولم يكن ذلك الا صورة مما كان يحدث فى خارج الجزيرة العربية من حروب طاحنة بين الدولتين الكبيرتين اذ ذاك : الفرس والروم ، وربما امتد أوارها الى العرب أنفسهم حيث كان أبناؤهم وقودا لهذه الحرب فى بعض الأحيان ، حينما كان المناذر يناصرون الفرس والغساسنة يناصرون الروم .

عبادة الأصنام : وتم الضياع فى الجزيرة العربية بعبادة الأصنام التى

كانوا ينحتونها بأيديهم من الأحجار أو يصنعونها من الخشب أو العجوة ثم بسجدون لها من دون الله ، ويستغيثون بها في الملمات وينحرون لها ، وكان هذا أعظم خزي يصاب به الانسان ويرتكس في حمائه ، حيث يحكم الجهاد في مصيره ، ويخضع لخلوق خلقه بيده أو اتخذه من مصنوعات الله أيا كانت في شمس أو قمر أو شجر أو جن أو غير ذلك . ومن المفارقات المضحكة أن بنى حنيفة كانوا يتخذون الههم من العجوة فاذا أصابتهم مجاعة أكلوه ثم يصنعون غيره بعد ذلك ، حتى سخر منهم شاعر فقال :

أكلت حنيفة ربها عام التقم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

ثم انهم بعد ذلك لا يؤمنون ببعث ولا نشور ، فهم لا يدركون لهم في الحياة غاية يسـيرون اليها ولا هدفا خلقوا من أجله ، وحق لهم اذن أن يعيشوا في الأرض فسادا ويحكموا قانون الغاب ما داموا لا يؤمنون بأن هناك ثوابا ولا عقابا « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » — الجاثية ٢٤ — فاذا هبت تناقضهم هزوا رعوسهم ساخرين وقد صور القرآن الكريم حالهم ذلك قائلا : « بل عجب ويسخرون . واذا ذكروا لا يذكرون . واذا رأوا آية يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين انذا متنا وكنا ترابا وعظاما اننا لبعوثون . او اباؤنا الأولون » — الصافات ١٢ : ١٧ —

وهكذا انتشر الضلال في كل مكان من عبادة للنار في فارس ، الى عبادة للحيوانات في الهند ، الى عبادة للأوثان في الجزيرة العربية واليونان ، الى تثليث واشراك في روما وفلسطين والشام ومصر وغيرها من مختلف الأقطار والوطن .

وكان من الطبيعي أن تضيق النفوس وتضطرب الأممودة ويتغطش الناس الى منقذ يأخذ بأيديهم وهاد يهديهم السبيل ، فانه لا يبعث الأمن والأمان الا الدين السوى ، ولا يثير الشسـعور بالاطمئنان في النفوس الا التحصن بالايـمان الحق والالتجاء الى اله قادر يجد الانسان في كنفه الهدي

والسعادة والحياة . انه سوف يربى مناجيا منسجعا فيجد سرعة الاستجابة التي تقر عينه ونملا وبعدها ابلا وفرحا مصداقا لقوله تعالى « واذا سمعوا عبادى عنى فانى قريب قريب ~~يحيى~~ دعوى الداعى اذا دعان فليستجبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرتعدون » — البقرة ١٨٦ — .

وانك لتجد الايمان بالله ثمينا فطاربا في النفوس ، لا تحجبه الا كثافة المادة أو الانحراف عن الطريق السوى أو وسوسة النفس وشياطين الجن والانس والانتكاسة التي ترد الانسان الى الوراء وتعوقه عن المضي في طريق الرشاد . .

انه بفطرته يهتف باسم ربه في الفداء وهو راغم « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن اذعانا من هذه لكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشكرون » — الانعام ٦٣ ، ٦٤ — ، وانهم ليعترفون راغمين أيضا بالله « ولئن سألتهم من خالق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . . . ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فلأهيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » — العنكبوت ٦١ — ٦٣ .

ان المؤمن مطمئن بايمانه فهو منشرح الصدر مستريح الخاطر قدير العين ، وعلى النقيض منه ذلك الذى أغلق عينه دون النور وأصم أذنيه عن الهدى فهو ينخبط في الظلام ويتعثر في الضلال ، تهلى طريقه بالأشواك فلا يستطيع أن ينتزعها ، وصدق الله اذ يقول « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » — الانعام ١٢٥ .

وما أروع تصوير حال هؤلاء الكفار الذين ضاع قصدهم وضل سعيهم في قوله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب — أو كظلمات في بحر لحي يفتشاه مخرج من فوقه مخرج من فوقه

سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج بده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور «النور ٣٩ ، ٤٠ .

واذن فقد تعثرت خطا الناس لأنهم لم يسيروا في طريق الهدى ،
سعيهم ان يتلفتوا باحسين عمن يصحح لهم الخطأ ويكشف امامهم الطريق . .
لقد فقتت الأرض هذا الهادي فليتطلع الناس الى السماء . .

ان هذه الفتن النى ماجت بها الأرض لا يمكن أن ينقذ الناس منها
الا نبي يوحى اليه من السماء تحقيقا لبشريات سابقة وعدت بها الكتب
المنزلة قبل أن تتناولها الأيدي بالتحريف والتبديل .

البشارات السابقة : ولقد أشار القرآن الكريم الى بشارات الكتب
السابقة بنبي آخر الزمان ، وقد وردت في أماكن متفرقة منه ، ففي سورة
الاعراف يقول الحق تعالى «**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه**
مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل» ١٥٧

ويشهد بذلك أن الأخبار والعلماء من أهل الكتاب كانوا يعرفون أن
نبيا سيبعث من العرب له علامات يثبتونها . . وفي قصة بحرى التى سترد
بعده شاهد على ذلك ، وفي اسلام عبد الله بن سلام وغيره من اليهود
شاهد كذلك ، وقد نزل في قصة اسلام عبد الله قوله تعالى في سورة
الأحزاب «**قل أرأيتم ان كان من عند الله وشهد شاهد من بنى اسرائيل على**
مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين» ١٠٠ .

علم اليهودية : لقد كان اليهود يدركون تماما أن نبيا سيبعث ، وكانوا
يتوعدون به الأوس والخزرج ويقولون لهم : ان نبيا سيبعث نتبعه ونحاربكم
على دينه ونقتلكم قتل عاد وارم ، ولكن الأوس والخزرج سبقوا اليهود
في الايمان بهذا النبي المنتظر . وكفر اليهود به استكبارا وحسدا . وأشار
القرآن الكريم الى ذلك في عدة مواضع منها «**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه**
كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» — البقرة
١٤٦ — ومنها «**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من**

قَبْلَ يَسْتَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » — البقرة — .

وجاء في كتاب نور اليقين للشيخ محمد الخضري « روى القاضي عياض في الشفاء أن ابن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أجل والله أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » وحرزا للأمينين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخابى فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ومن يقيضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا » .

وروى مثله عن عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — وهو الذى كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم ، وكذلك كعب الأحبار ، وفى بعض طرق الحديث : ولا صخب فى الأسواق ولا قوال للخنا ، أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم واجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة مقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سبرته والحق شريعته الهدى أممه والاسلام ملته ، أحمد اسمه ، أهدى به بعد ضلالة ، وأعلم به بعد جهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأسسمى به بعد الفكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متستة وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس .

« وقد أخبر — عليه السلام — عن صفته فى التوراة فقال وهو انصديق الأمين : عبدى أحمد المختار مولده مكة ومهاجره بالمدينة — أو قال طيبة — وأمته الحمادون الله على كل حال » .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء « نبوة محمد موجودة فى التوراة رغم ما اعتورها من التحريف والتشذيب ، وهانذا أسوق تلك المواضع من التوراة تعجيلا للفائدة ، فى الآية العشر من :

الاصحاح السابع عشر — تكوين — « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه
هأنا إباركه وأثمه وأكثره كثيرا جدا » ولفظ العبارة الأخيرة في العبرية
[هنى برختى أونو وهفريتى أوتو وهربيتى أونو بماد ماد] بامالته في بماد ماد
انى واو .

« ومن عادة العبرانيين الاعتماد في الوقائع والأسماء على قيمة حروف
الكلمة من جهة الحساب ، فلو حسبنا لفظ بماد ماد بالجمال لكانت جمال
« محمد » بلا زيادة ولا نقصان ٩٢ ، وهو من أبناء اسماعيل الموعود بالبركة
والاثمار في أبنائه » .

وأضاف الشيخ النجار في هامش الصفحة ما يلى : « ثانيا في الآية
١٥ من الاصحاح ١٨ من سفر التثنية قول موسى لبنى اسرائيل : ١٥ — يقيم
لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك ، مثلى له تسمعون — ١٦ —
حسب كل ما طلبت من الرب الهك في حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود
أسمع صوت الرب الهى ولا أرى هذه النار العظيمة لثلا أموت — ١٧ —
قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا — ١٨ — أقيم لهم نبيا من وسط
اخوتهم مثلك وأجعل كلامى في فمه فيتكلم بكل ما أوصيه ..

« فقولته من اخوتهم وقوله من وسط اخوتهم تدل على أن الموعود به
لا يكون من بنى اسرائيل بل من اخوتهم ، وأخوتهم بنو اسماعيل كما ندل
على ذلك الآية ١٨ من الاصحاح ٢٥ تكوين : وسكنوا أى أبناء اسماعيل من
حويلة الى شور التى أمام مصر ، حينما تجيء نحو آشور أمام جميع اخوته
نزل ، وحويلة هى بلاد خولان على تخوم اليمن مما يلى الحجاز ، ولا مقابل
لأبناء اسماعيل فى جهة شور سوى بنى اسرائيل ، وفى الآية ١٢ من اصحاح
١٦ تكوين « أمام اخوته تسكن . وقوله : أجعل كلامى فى فمه تدل على أنه
يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقم نبى أمى سوى محمد منذ خلق الله
الدينا .

« ثالثا : الآية الثالثة من الاصحاح ٣٨ تثنية : جاء الرب من سينا
وأشر لهم من سعير وتلألا من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس وعن
(م ٢ — هدى السيرة)

بهمينه نار شريعة لهم . مجبل غارا بمكه . وهى البسلاد النى سسكنها اسماعيل « (١) قصص الانبياء ص ٢٩٣ .

وفى الانجيل أيضا : وكما بشرت التوراة بالنبي صلى الله عليه وسلم بشر الانجيل كذلك ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى سورة الصف حيث قال : « **واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول ياتى من بعدى اسمه أحمد** » - ٦ - .

وقد وردت هذه الآية فى الاناجيل على لسان المسيح عليه السلام « **سيأتى بعدى من لست أهلا لأن أحل سيور حذائه** » وأن كانوا قد حرفوا هذا القول بأن نسبوه الى يوحنا قاصدا المسيح . قال الشيخ محمد الخضرى فى كتاب نور اليقين « **لقد وصف المسيح هذا « الفار قليط** » بأوصاف لا تنطبق الا على نبينا عليه الصلاة والسلام فقال : انه يويخ العالم على خطيئته وانه يعلمهم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل ينكلم بكل ما يسمع — وهذا ما ورد فى القرآن الكريم فى سورة النجم « **وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى** » ٣ ، ٤

أما انجيل برنابا الذى يحمل عليه المسيحيون حملة شعواء لأنه لم يجر فى تيار التحريف كثيرا كغيره من الاناجيل فقد ذكر اسم النبي صلى الله عليه وسلم صراحة . فكلمة « **الفار قليط** » تعنى النبي المرسل — على حد تعبير يوحنا — حيث حكى عن المسيح عليه السلام قوله « **ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، فأنا أطلب من الأب فيعطىكم « فار قليطا** » ليمكث معكم انى الأبد روح الحق الذى لا يسنطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ومنكم » .

(١) يضاف الى هذه النصوص ما جاء فى سفر اشعيا : ان البرية ترفع صوتها بذكره وهى الديار التى يسكنها فيدرا — وفيدرا احد أجداد النبي فى سلسلة النسب بينه وبين اسماعيل . وجاء أيضا : ان علامة سلطانه على كتفه بقدر بيضة الحمام . وفى صحيح مسلم حديث عن هذه العلاقة ، وفى المزامير ملوك اليمن تأتية بالقرايين ، وأنه يبارك عليه كل يوم ، وأنه متقلد سيفاً ، وكل هذه الأوصاف تنطبق عليه .

ومعنى مكثه الى الأبد بقاء نعاليمه التى ضمنها القرآن الكريم الذى
تعهد الله بحفظه من التغير والتبدل « انا نحن نزلنا الذكر وانا له
الحافظون » الحجر ٩ .

وجاء فى سيرة ابن هشام : قال ابن اسحاق : وقد كان فيما بلغنى
عما كان وضع عيسى ابن مريم فيما جاءه الله فى الانجيل من صفة رسول الله
صلى الله عليه وسلم مما اثبت يحنس الحوارى لهم حين نسخ لهم الانجيل
عن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام فى رسول الله صلى الله عليه وسلم
انهم أنه قال : من أبغضنى فقد أبغض الرب ولولا أنى صنعت بحضرتهم
صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة ، ولكن من الآن بطروا
وظنوا أنهم يعزوني ، وأيضا للرب ، ولكن لابد أن تتم الكلمة التى فى
الناموس أنهم أبغضوني مجانا أى باطلا ، فلو قد جاء « المنحما » هذا الذى
يرسله الله اليكم ، من عند الرب وروح القدس ، هذا الذى من عند الرب
خرج فهو شهيد على وأنتم أيضا ، لأنكم قديما كنتم معى فى هذا قلت لكم
لكيما لا تشكوا .

والمنحما بالسريانية محمد ، وهو بالرومية البرتليطس صلى الله عليه
وتسلم . ج ١ ص ٢١٥ .

وفى قصص الأنبياء : كان المسيح يعبر عن المبشر به بلفظ النبى ويلفظ
« مسيا » ويلفظ « فارقليط » وهو تعريب لفظ « بير يكلتوس » اليونانية ،
ومعناها الذى له حمد كثير ، كما عبر عنه بعض الكتاب بلفظ ايلياء ، واليهود
يظنون أن ايلياء يأتى اليهم ، ولكن اذا عرفوا أن ايلياء جملتها ٥٣ كجمل
لفظ أحمد زال الاشكال ، وكان يعبر عن الشريعة الآتية بلفظ ملكوت
السموات . ولقد سأل مؤلف الكتاب الشيخ النجار الدكتور « كارلونيئو »
المستشرق الايطالى عن ترجمة كلمة « بير يكلتوس » فأجابه بقوله : ان
القسس يقولون : ان هذه الكلمة معناها « المعزى » فقال له : انى أسأل
الدكتور كارلونيئو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة
ولست أسأل قسيسا ، فقال : ان معناها الذى له حمد كثير ، فقال هل ذلك

برافنى افعل النفضيل من بعد ؟ فقال نعم (١) . قصص الانبياء ص ٣٩٧ .

وشهادة سامان : وفي قصة اسلام سلمان الفارسي دلائل تثبت سير الى معرفة الرهبان والاساقفة لنبي آخر الزمان عليه الصلاة والسلام ، فقد قال سلمان على لسان اسقف عمورية وقد حضرته الوفاة وكان سلمان قد لرمه آملا أن يهديه الى الحقيقة : يا بني ما أعرف أحدا على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلك زمان نبي يبعث بدين ابراهيم حنيفا يهاجر انى أرض ذات نخل بين حرنين ، فان استطعت أن تخلص اليه فافعل ، وأن له آيات لا تخفى ، فهو لا يأكل الصدقة ويقبل الهدية وأن بين كُتفيه خاتم النبوة اذا رأيته عرفه .

المتحرفون : وفي قصص المتحرفين الذين كانوا يبحثون عن الحق في انجالية شواهد مماثلة تدل على توقع ظهور نبي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، ويظهر الدنيا من ذلك الرجس الذي تردت فيه ، ويكشف الظلم الذي أحاط بالناس فلم يعودوا يستطيعون أن يفرقوا بين الحق والباطل . قال ابن اسحاق : اجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل ، وهم ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمرو بن نفيل . فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء

(١) أخبر انجيل متى بأن الهداية تنزع من بنى اسرائيل وتعطى لأمة أخرى . وأخبر انجيل يوحنا « ان لى أمور كثيرة أيضا لا أقول لكم ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا وأما منى جاء ذاك — روح الحق — فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم ويخبركم بأمر آتية . كما أخبر أيضا بأن القبلية ستتحول من بيت المقدس » أما انجيل برنابا فقد جاء فيه : فلما كان الناس قد دعوتى الله وابن الله على أنى كنت بريئا في العالم أراد الله أن يهزأ الناس بى في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنى أنا الذى مت على الصليب قليلا تهزأ الشياطين بى في يوم الدينونة ، وسيبقى هذا الى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع لنذين يؤمنون بشريعته الله — الباب ٢٢٠ .

لقد أخطأوا دين آباؤهم إبراهيم . ما حجر نطيف به لا بسمع ولا يبصر
ولا بضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء ،
فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكنب من أهلها حتى علم
علما من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من اللباس حتى
أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أم حبيسة بنت
أبى سفيان ، فلما قدمها ننصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت
منزلته عنده .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية
وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي نذبح
على الأوثان ونهى عن قتل الموعودة .

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو
ابن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره الى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش ،
والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ،
ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ،
ثم يسجد على راحته .

وزيد بن نفيل هو ابن عم عمر بن الخطاب ، وقد سأل عمر وسعيد
ابن زيد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قالوا : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟
قال : نعم فانه يسمت أمة وحده .

وأخرج البخارى أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج الى الشام يسأل
عن الدين الحق ، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال : لعلى أن أدين
بدينكم ، فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله ، فقال
زيد : ما أفر الا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا وأنا أستطيعه ،

فهمل تدلنى على غيره ؟ فقال : ما أعلمه الا أن تكون حنيفا . قال زيد :
وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله .

فخرج زيد فلقى عالما من علماء النصارى فذكر له مثل ذلك فقال :
لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبا من لعنة الله ، قال : ما أفر الا من لعنة
الله ولا أحمل من لعنة الله شيئا أبدا وأنا أستطيع ، فهل تدلنى على غيره ؟
فقال : لا أعلمه الا أن تكون حنيفا ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم
فلم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله ، فلما رأى زيد قوله فى ابراهيم
خرج ، فلما برز رفع يديه فقال : اللهم انى اشهدك انى على دين ابراهيم .

وهناك غير هؤلاء كتس بن ساعدة الايادى الذى كان لا يفتأ يذكر
الناس بالبعث والحساب ، ويرعى انظارهم الى عبادة اله قادر كان يقول :
البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير ، وهذه أرض ذات فجاج
وبحار ذات أمواج أفلا تدل على اللطيف الخبير ؟ وكأن يقول : يقسم قس
بالله قسما لا اثم فيه ان لله ديننا هو أرضى له من دينكم الذى أنتم عليه .

وكان أمية بن أبى الصلت شاعرا وكان يطمع فى النبوة ، وله شعر
جيد يدمو فيه الى الايمان ويذكر بالبعث ، فلما بعث النبى صلى الله عليه
وسلم كفر به ، وقال عنه النبى صلى الله عليه وسلم : انه رجل آمن شعره
وكفر قلبه ، ويقال : انه هو الذى نزل فيه قوله تعالى : « **واتل عليهم نبأ
الذى آتيناہ آیاتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الفاوين —
ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب
ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا
فانقص القصص لعلمهم يتفكرون** » الاعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .

وهناك غير هؤلاء مما يشهد بأن من الجاهليين أنفسهم من هالهم الكفر
انذى غطى وجه الأرض وطمس على أعين الناس فالتمس العقلاء الحق
وبحثوا عنه ، وكانوا يرونه فى نبى لابد أن يظهر فى هذا الزمان وقد آن أوانه .

لأبد أن يظهر هذا النبي تحقيقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام الذي هتف
من أعماقه ذات يوم قائلاً وهو يرفع القواعد من البيت : « ربنا وابعث فيهم
رسلولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت
العزيز الحكيم » البقرة : ١٣٩ .

واستجاب الله دعوة إبراهيم وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ، وكان هذا الرسول هو سيدنا محمد — صلوات الله
وتسليماته عليه — الذي كان يقول : « أنا دعوة أبي إبراهيم ونبوءة عيسى
وبشارة عيسى » .

ملفـسـولة مبـشـرة

من كان يظن أن هذا الطفل الذى استقبلته الأسرة الهاشمية المريضة عام الفيل ، فى النانى عتـر من ربيع الأول قبل الهجره بثلاثة وخمسين عاما ، سيكون سيد هذا العالم ومخلصه الى الأبد من معاناته القاسية؟! .

من كان يدرك أن هذا الـيـيـم الذى مات أبوه قبل أن يولد وماتت أمه بعد مولده بخمس سنين هو ذلك النبى المنتظر الذى سوف يرسله الله بالهدى والـبـيـنات ليخرج الناس من الظلمات الى النور؟! .

من كان يتوقع أن هذا المولود الذى وضعه آمنه بنت وهب فى فجر يوم الاثنين المبارك هو ذلك الرسول الذى بشرت به الكنب السابقة وأخبرت به النبوءات المتعددة ونطلعت اليه الأرواح وتعطنت اليه الأئـدـه ، وأنه هو صاحب الشأن المشهود واللواء المعقود وهو يوم القيامة صاحب انشغاعة والسجود والحوض المورود؟! .

أرهـاصـات وخـوارق :

لقد صاحب مولد المصطفى — صلى الله عليه وسلم — وسبقته أـرهـاصـات مـنـعـدـدة تنبىء بأن هناك شيئا ذا بال سوف يحدث ، وما كان أحد من أهل قريش أو غيرهم يدرك أن يـيـم بنى عبد المطلب هو المعنى بهذه الارهاصات .

وكان فى مقدمة هذه الارهاصات هلاك أصحاب الفيل الذين جاءوا من اليمن بقيادة أبرهه الحبشى الذى كان يحلها لهدم الكعبة التى يحج اليها العرب ولا يحجون الى كنيسته التى شيدها فى صنعاء ليصرف بها الناس عن الكعبة ، ولكن بعض العرب غاظه بسخريته منها حتى جعله يقسم على هدم الكعبة . وفى ذلك العام الذى هلك أصحاب الفيل كانت ولادة النبى — صلى الله عليه وسلم — ونزل فى شأن هذا الحادث وهو هلاك أصحاب الفيل قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل — ألم يجعل كيدهم فى تضليل — وأرسل عليهم طيرا أبابيل — ترميهم بحجارة من سجيل — فجعلهم كعصف مأكول » سورة الفيل .

فلقد أراد الله سبحانه وتعالى بهلاك هؤلاء الحفاظ على بيته الذى جعله الله مثابة للناس وأمانا ، والذى أمر الله خليله إبراهيم برفع قواعده ومعه ابنه اسماعيل الجد الأعلى لهذا النبى المنتظر ، كما أراد التنبيه على علو شأن هذا المولود الذى سيولد فى هذا العام (١) وما سيكون لرسالته من تعظيم لأمر هذا البيت وتطهيره من الشرك والأوثان .

ويبدو أن هناك شيئا ما قد حدث جعل اليهود يدركون ساعة مولد الرسول الخاتم ، فقد حدث ابن اسحاق عن حسان بن ثابت قائلًا : والله انى لفلان يفعلة ابن سبع سنين أو نمان أعقل كل ما سمعت ، اذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أظمة بينرب : يا معشر يهود ، حتى اذا اجتمعوا اليه ، قالوا له : ويلك مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

ولقد أحسست أمه السيدة ابنة وهب بأن حملها سيكون ذا شأن عظيم ، فقد كانت تحدث : أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها : انك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع الى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سميته محمدا ، ورأت حين حملت بأنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام .

ويحدث بعض الرواة أنه صاحبت ولادته خوارق منها تنكيس الأصنام، وستقوط شرفات من قصر كسرى ، وانطفاء النار التى يعبدونها المجوس ، ورجم الشياطين التى تسترقق السمع بالشهب .

وليس ببعيد أن يحدث ذلك ولا يجافى المنطق ، فالاحتفال بقدم المعظم لابد وأن يتناسب وعظمتهم ، والمحتفلة هنا السماء فلتقدم للمحتفى به ما يناسبها ويناسبه ، وهذه الآيات ان تكن حدثت ففيها اشارة الى جلال

(١) يوافق هذا العام بالتاريخ الميلادى ٥٧١ م — كما حققه الشيخ محمد الخضرى ، وذكر أن يوم الميلاد هو التاسع من ربيع الأول وهو يوافق ٢٠ من أبريل عام ٥٧١ م ، ولكن المشهور أن الولادة كانت فى الثانى عشر من ربيع الأول .

ذلك القادم الذى سيحطم الأصنام ويبدد الأوهام ويدعو الى دبن الحق والهدى الذى يرفع من قدر الانسان وقبمته بما فيه من مبادئ سامية خالية من الشرك والضلال والخرافات .

ومن التوافقات العجيبة ان تكون قابلته هى الشفاء أم عبد الرحمن ابن عوف ، ومرضته حليلة السعدية ، وحاضنته أم أيمن ، أما أمه فهى آمنة بنت وهب . فانظر الى هذه الأسماء التى تجمع بين الشفاء والحلم والسعد واليمن والأمن والهبة مما يدعو الى التفاؤل بمقدم هذا المولود السعيد ويبعث الاطمئنان بمولده المبارك .

فاذا أضيف الى هذه الأسماء ذوات المدلولات الطيبة اسمه الشريف « محمد » الذى سمي به دل ذلك على معنى غريب موفق ، ليس هو من قبيل المصادفات ، بل هو من قبيل الاجتباء الالهى والكريم الربانى الذى أعده الله لرسوله ومصطفاه .

ولم تقتصر أسماء النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الاسم الذى لم تكن العرب تسمى به قبل ذلك « محمد » ولكن الله سماه بأسماء أخرى يرويها البخارى عن الزهرى عن محمد بن جبير بن المطعم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان لى أسماء ، أنا أحمد وأنا محمد وأنا الماحى الذى بمحو الله بى الكفر وأنا الحائر الذى بحشر الناس على قدمى وأنا العاقب الذى ليس بعسدى نبى » .

ولا يشك أحد فى قوة العلاقة بين صفات النبي صلى الله عليه وسلم واسمه ، فالاسم يدل على المسمى ، وكثيرا ما تصدق هذه العبارة — كما يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى مقال له — هى لازمة الصديق فى صاحب المقام المحمود الذى أجمع العرب على حمده قبل بعثته ، وأجمع العالم كله على حمده بعد بعثته ، فلن تجد فى كتابة أعداء المسلمين أنفسهم من يستطيع أن يصف أخلاق النبي — صلى الله عليه وسلم — بغير ما فيها من الحمد أو أن سلوكه لا يستقيم مع منهج الحمد ، الا من طمس على قلبه منهم ، وقد يوجه الغرباء عن الاسلام النقد الى النبي صلى الله عليه وسلم جهلا

أو حسدا أو تعصبا ، وإلى ما جاء به ، ولكنهم لا يخرجون على وصفه
بغير ما فطره الله عليه من محامد الصفات ومحاسن الأخلاق .

لقد ازدهت الدنيا بيوم مولده وطلعت الشمس بأشراقة جديدة
لم تشرقها من قبل ، وأقبل الدهر على الدنيا بأسعد أيامه وأجمل لياليه
النى قال فيها البوصيرى رضى الله عنه :

ليلة المولد الذى كان للدين سرور ببومه وازدهاء
يوم نالت بوضعه ابنسة وهب
من فخر ما لم تنله النساء
وأنت قومها بأفضل مما
حملت قبل مريم العذراء
مولد كان منه فى طالع الكفر وبال عليهم ووباء
ونالت بشرى الهواتف أن قد
ولد المصطفى وحق الهناء

وقد اقتضت ارادة الله أن يتوفى والده « عبد الله بن عبد المطلب
ابن هاشم » وهو جنين فى بطن أمه منذ شهرين ، وتتوفى والدته بعد ولادته
بخمس سنين ، ويتوفى جده بعد ذلك بقليل . . .

لقد اختار الله لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة — كما يقول الدكتور محمد
سعید البوطى — فى كتابه فقه السيرة ، منها الا يكون للمبطلين سبيل
الى ادخال الريبة فى القلوب ، أو ايهام الناس بأن محمدا صلى الله عليه
وسلم إنما رضع لبان دعوته ورسالته التى نادى بها منذ صباه بارشاد
وتوجيه من أبيه أو جده .

لقد أراد الله أن يتولى رعاية نبيه بنفسه حتى يكون فريدا بهذا الشرف
بين الخلق أجمعين وعند ذلك يحق له أن يقول : « أدبنى ربى فأحسن
تأدينى » .

فى بادية بنى سبيد :

وحين ولد استرضعته السيدة حليلة السعدية ، وكانت تقيم فى بادية
بنى سعد ، وقد صحب حياتها من البركة والخصب والخير شيء كثير .

بعد اصطحابها هذا الطفل الينيم ورجوعها به من مكة ، وكانت صواحبها من المرضعات قد زهدن فيه لبسه ، ولكن حظها الوافر وجدها السعيد هو الذى ادخره لها ، وقد ظهر أثر هذه البركة سريعا فى دابتها التى كانت تحملها ، فقد ظهر عليها النشاط والجد والاسراع فى أوبتها ، وكانت فى أثناء قدومها واهنة ضعيفة قليلة من الهزال .

وحين حطت رحالها فى بادية بنى سعد اذ بها تمرع وتخصب وتجدد بالخير مما جعل أسرة حليلة نستبشر بهذا الطفل الذى صدت عنه المرضعات ، واعتبرته الأسرة قدم سعد وبركة وتمسكت به تمسكا شديدا ، قالت حليلة — فيما يرويه ابن هشام — : فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعت فى حجرى أقبل على ثدياى بما شاء من لبن فيشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ، وقام زوجي الى شارفنا تلك فإذا انها لحافل فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة . قالت : فقلت والله انى لأرجو ذلك .

قالت حليلة : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملنه عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حميرهم حتى ان صواحبى ليقلن لى : بابنة أبى ذؤيب ويحك ، اربعى علينا أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى ، فيقلن : والله ان لها لشأنا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجديب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شبعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنيت أبى ذؤيب ، فتروح أفقاهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شبعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شبعا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتاه حتى كان غلاما جفرا .

ومن أجل هذه البركة التى استشعرتها حليلة حرصت على أن يظل هذا الطفل عندها وقتا أطول ، فعادت الى مكة تحاول مع أمه أن تتركه لها

خوفاً عليه من وباء مكة ، وما زالت نرغبها في بقائه عندها حتى قبلت وعادت به الى بادية بنى سعد مرة أخرى . اليس ذلك شيئاً يدعو الى العجب وفي الوقت نفسه يبثّر بالخسیر ؟ .

معجزات حسية :

لقد اختص الله هذه الأسرة بكل ما أشارت اليه حليلة في عبارتها من خير وبركة ، في الوقت الذي كانت الأسر الأخرى تشكو الجفاف والجذب ، تكريماً لهذا الطفل الذي تلحظه العناية الإلهية ، وهذا أمر يدخل في نطاق الخوارق التي ينكرها قوم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، اعتماداً على أن المعجزة الوحيدة له هي القرآن الكريم وهي وحدها كافية لإثبات نبوته وفيها الغناء لذلك .

ولكن لماذا لا يكون للرسول صلى الله عليه وسلم معجزات أخرى غير القرآن الكريم ؟ معجزات مادية يظهر أثرها فيما يحيط به من حياة ، في الوقت الذي ثبت أن غيره من الأنبياء كانت لهم خوارقهم التي لا ينكرها أحد . وهل معنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى معجزة القرآن الباقية الخالدة ألا تكون له معجزات أخرى تستدعيها الظروف والمناسبات ، أو لا تكون على يديه خوارق تستلفت النظر وتنبيهه الى كرامته عند الله وتقريبه من نفسه ؟ .

لا يقدح في منزلة النبي صلى الله عليه وسلم وسمو رسالته وقوة عبقريته وجلال القرآن الذي أوحى اليه تلك الخوارق التي حدثت من تسبيح الحصى في يديه وتسليم الأشجار عليه ونبع الماء من بين أصابعه وإظلال الغمامة له وذلك الامراع والخصب الذي رأيناه يحل في بيت هذه الأسرة البسعيدة السعيدة التي شرفت بارضاعه . لا يقدح ذلك في منزلة النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه يضيف اليه معنى آخر هو ملاحظة العناية له ومصاحبة الله إياه في خطواته حتى يؤلف حوله القلوب ويجمع له الشواهد المصدقة بكماله وعظمته وسموه .

وقد قدمت بذلك بين يدي حادثة مهمة لابد وأن تسترعى الاهتمام

والانتباه لغرابيتها ، هذه الحادثة هي شق صدره الشريف وهو في بادية بنى سعد .

فقد روى أنس رضى الله عنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال هذا خط الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعني مرضعته — إن محمداً قد قتل » فاستقبلوه وهو منتقع اللون قد تغيّر وأصفر » .

ولقد كانت هذه الحادثة سببا في اسراع حليلة برد محمد صلى الله عليه وسلم إلى والدته ، وقد استغربت أمنة رجوع حليلة سريعا بابنها وقد كانت حريصة على اسبقائه عندها مما جعلها تلح عليهما أن تبين لهما حقيقة ما حدث .

وحاولت حليلة أن توغر سبب إرجاع الطفل إلى أنها أدت مهمتها وأنها تخاف عليه الأحداث ولكن أمنة لم تقتنع بذلك ، فما زالت بها حتى أخبرتها بقصة شق صدر ابنها . فقالت أمنة : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت حليلة : نعم ، قالت أمنة : كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل وإن لبني هذا شأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حليلة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء قصور بصري من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وأنه لو وضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك وانطلقى راشدة .

إن حادثة شق الصدر هذه أمر خارق للعادة ومهما حاول بعض المفكرين تعليلها بعامل عقلية فهي أمر حسي ثابت ولكنه يشير إلى معاني عظيمة ، فهي من ارهاصات النبوة المدخرة له حتى ينشأ هذا الطفل متفردا لما أعده الله له ، وليعلم الجميع أن هذا الطفل ليس كغيره من الأطفال وإنما هو محل رعاية الله وعنايته فهذا ادعى بأن يكون ملء أسماع الناس وأبصارهم ، حتى إذا ما أوحى الله إليه بعد ذلك تكون النفوس الخيرة مطمئنة لما يخبر به .

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه عن هذه الحادثة حينما سئل عنها فقال : استرضعت في بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا اذا اتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجا ، ثم أخذاني فشققا بطنى واستخرجيا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : دعه عنك فوالله لو وزننته بأمنته لوزنتها .

نشأة طيبة :

وعلى الرغم من صغر سنه — كما نعرض لنا سيرته المطهرة — لم يسلم نفسه للدعة والركود ، ولكنه كان يشغل نفسه بأمور نافعة نترك أثرها الطيب في السلوك والتوجيه ، كان يرعى الغنم ، ورعى الغنم يعلم الإنابة كيف يزن الأمور ويفرق بين الحق والباطل ، ولتلك الحكمة وجه الله كافة الأنبياء لذلك حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما من نبي الا وقد رعى الغنم . قيل : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا .

وقد رعاها في بادية بنى سعد ، كما رعاها في مكة أيضا ، كان يرعاها على قراريط كما أخبر البخارى بذلك في صحيحه .

ولقد ظهرت مخايل النجابة على هذا الطفل منذ نعومة أظفاره ، ولا شك أن هذه المخايل كانت تبشر بالخير ، وتشير الى أنه سوف يكون له حظ موفور من الكرامة في مستقبل الأيام . هكذا كان ينظر اليه أهل قريش ، أما غيرهم من أهل الكتاب فقد كان لهم رأى آخر ، انهم فطنوا فيه — على رغم صغر سنه — الى أنه نبي آخر الزمان . قال ابن اسحاق : وحدثني بعض أهل العلم أن مما هاج أمه السعدية على رده الى أمه — مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه — أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوه عنها وطلبوه ، ثم قالوا لها : لناخذن هذا الغلام فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ؛ فان هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره ، فزعم الذي حدثني أنها لم نكد نتفطت به منهم . .

وأصبح محمد — صلى الله عليه وسلم — منذ عودته الى أمه بعد أن أسلمته حليلة السعدية وسنه خمس سنين وشهر في حضانة أمه وكفالة جده عبد المطلب الذى أحبه منذ ولادته حبا شديدا ، ورق له رقة بالغة لم يعهدها أحد فيه قبل ذلك بالنسبة لولده ، كان يبوسم فيه النجاح والعظمة ويدرك أن له شأنًا كبرا في المستقبل ، ولعله الى جانب ذلك كان يرى فيه صوره ولده الحبيب عبد الله الذى مات في ديار بنى النجار بالمدينة .

يتم جديد :

كان الله بنبت نبيه نباتا حسنا لما يريد به كرامته ، وحين بلغ من العمر سنوات اصطحبه أمه في زياره للمدينة عند أخواله من بنى عدى بن النجار ، وحين رجوعها الى مكة توفيت بالأبواء — مكان بين مكة والمدينة — .

وعاد الطفل مع حاضنته أم أيمن حزينا الى مكة ، فازدادت له رقة جده عبد المطلب ، وقربه اليه حتى كاد لا يفارقه لشدة حبه اياه .

حدث ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليهم ، لا يجلس عليه أحد من بنيه أجالا له ، قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .

ولكن ذلك الحذب لم يدم طويلا ، فسرعان ما لبى عبد المطلب نداء ربه ، ولحمد حينذاك ثمانى سنوات ، وقد أوصى عبد المطلب ابنه أبا طالب بمحمد خيرا ، ولم يكن أبو طالب في حاجة الى هذه الوصاية ؛ فان حبه لمحمد يغنيه عن ذلك ، وقد ضمه أبو طالب اليه وكان عليه شفيعا وله رحيمًا وبه رعوفا ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يطلق عليه يتيم أبى طالب . .

وما أقسى ما تعرض له هذا الطفل من ألوان الحزن ، ولكن الحزن

العظيم هو الذى يصنع الانسان العظيم ، لقد اراد الله ان يضرب المثل الكامل فى أن العناية الالهية هى التى تكفل التربية الصالحة للابن اذا كانت ارادة الله قد قضت بانحرافه ، والواضع شاهد بذلك ، فكم من منحرف له أبرار يدللونه ، أما هذا اليتيم فقد تولته عناية الله لتخرج منه الجوهرة الفريدة فى هذا العالم ولتجعل منه الدرر اليتيمة التى لا تتكرر .

فى بيت عمه :

وكان فى بيت أبى طالب مثالا كاملا للقناعة والكمال الخلقى ، والبعد — كما يقول الشيخ محمد الخضرى فى كتابه نور اليقين — عن السفاسف التى يشتغل بها الأطفال عادة ، كما روت ذلك أم أيمن حاضنته ، فكان اذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له والهمه الله أن يبدأ طعامه بالحمد لله ، ولم تسمع عنه كذبة ولم ير له ضحك ومزاح على عادة الصبيان ، وما وقف مع الأطفال يلعبون ، ولا حدث منه أى شئ مما يحدث من أهل الجاهلية .

ولا شك أن هذه الأخلاق الخاصة تلفت نظر المتفرس ، حتى حدث عهد الله بن الزبير عن أبيه أن رجلا من لهب كان عائفا ، فكان اذا قدم مكة أنه رجال قريش بفلمانهم ينظر اليهم ويعتاف — يتفرس — لهم فيهم ، فأتى أبو طالب بمحمد وهو غلام مع من يأتيه فنظر اللهبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شئ ، فلما فرغ قال : الغلام على به ، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ردوا على الغلام الذى رايت أنفسا فوالله ليكون له شأن ، ولكن أبا طالب كان قد انطلق به .

والفراسة غير الرجم بالغيب ، قال تعالى « أن فى ذلك لآيات للمؤمنين » الحجر ٧٥ — قال بعض العلماء : أى المتفكرين المتفرسين الذين يعرفون حقيقة الشئ بسمته وعلامته .

لقد ربى الله سبحانه وتعالى رسوله على عينه بعد أن اصطنعه لنفسه ، ولقد شاء الله له أن يكون يتيما حتى يظل فى كنف الله وحده ورعايته (م ٣ ب هدى البصرة)

بعيدا عن تأثير الأب والأم والجد وهم الذين يكون لهم غالبا السيطرة على النشر والتأثير في النابية ، وبخاصة في سن القابلية للتأثر والتلقى ، ولقد أنزل الله - في معرض المنة على رسوله والتأسيية له حتى لا يجزع مما يلقيه من أذى القرشيين له بعد الرسالة - قوله تعالى « **ألم يجدك يتيما** فأوى » حقا ، لقد آواه الله فأحسن آيواءه والهمه من حسن الأدب ودلائل النوفيق ما جعله محل الاعجاب وموضع الحب والتقدير .

مثل يحتذى في التربية :

وفي أحسن أخلاق نبينا صلى الله عليه وسلم صبغرا مثل يهيب بنا أن نضع برامج التربية لأطفالنا حتى ينسبوا على مثل كاملة من الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة الكريمة ، ولقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم هذه المنة التي أكرمها الله بها حيث آواه ورباه ، فكان يحدث عن ذلك شكرا لله على رعايته وحفظه ويقول « أدنى ربي فأحسن تأديبي » وأنعم بحفظ الله وتأديبه .

ومما حدث به في ذلك وذكره ابن هشام في سيرته قوله « لقد رأيتني في غلمان قریش نتقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ أزاره فجعله على رقبتة يحمل عليه الحجارة فأنى لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك أزارك قال : فأخذته وشدته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وأزارى على من بين أصحابى .

وقد وردت هذه الرواية في الحديث الصحيح في قصة بناء الكعبة : فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة مع قومه إليها ، وكانوا يجعلون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملها على عاتقه وأزاره مشدود به ، فقال له العباس رضي الله عنه : يا ابن أخى لو جعلت أزارك على عاتقك ، ففعل فسقط مغشيا عليه ، ثم قال : أزارى أزارى فشد عليه أزاره وقام يحمل الحجارة ، وفي حديث آخر : أنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه فأخبره أنه نودى من السماء أن أشدد عليك أزارك يا محمد ، قال : وأنه لأول ما نودى .

فهذه الروايات تدل على ملاحظة العناية له ، وأنه كان يوجسه أولا بأول الى ما ينبغي أن يفعله ، فلم يترك منذ صغره أن يفعل الا ما يليق بالكبار والا ما يتفق مع الحياء وآداب الاسلام التي ستتقرر بعد .

ومما يجدر روايته في هذا القبيل ما يرويه ابن الأثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة للسلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت حتى اذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع فضرب الله على أذنى ففهمت ، فما أيقظتنى الا حرارة الشمس ، فعدت الى صاحبي فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء .

فهذه الرواية أيضا تدل على أن الله قد لاحظ صفيه بعين التوجيه السيد حتى لا يحدث منه ما يحدث من لداته عادة ، وهذه هى تربية النبوة النبى الذى ورد مثلها مع أبيه ابراهيم عليه السلام الذى قال الله فى حلقه : **« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رِشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ »** الأنبياء ٥١ .

وورد مثلها مع موسى عليه السلام الذى خاطبه ربه بقوله **« وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي »** طه ٤١ .

لقد كان جو مكة مهيبا لأن ينساق الجميع فى تياره ، والفساد الذى كان يضرب برواقه على مجتمعها لم يستطع أن ينكره سوى عدد قليل من العقلاء لا يجاوز أصابع اليد ، أما أن يستنكره ناشئ صغير فذلك من فلتات القدر ، أو قل من توجيهات السماء التى لا تريد أن تترك ذلك الذى أعده الله لمهمته الكبرى لتصرفات المجتمع الحقاء .

بحسرى يعرفه :

وحين بلغت سنه اثنتى عشرة سنة عزم عمه أبو طالب أن يسافر الى الشام فى تجارة له ، وما كان الصبى قد تعود أن يفارقه عمه فى غيبة

طويلة ، فطلب منه أن يسافر معه وغلبت عمه الرقة له فاصطحبه ، وقال أبو طالب فيما يرويه ابن اسحاق : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا فخرج به معه .

ويتم ابن هشام القصة قائلا : فلما نزل الركب ببصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له ، وكان له علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط — زمن — راهب اليه يصير علمهم عن كتاب فيها — فيما يزعمون — يتوارثونه كابرا عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببصرى وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا وذلك — فيما يزعمون — عن شىء رآه وهو فى صومعته . يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله بين القوم . ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبة منه فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استنظت تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل اليهم فقال : انى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش فانا أحب أن تحضروا كلكم صفيركم وكبيركم وعبدكم وحرمكم . فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى ان لك لنا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم ؟ قال بحيرى : صدقت فقد كان ما بقول ولكمكم طيب وقد أحببت أن أكرمكم واصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم . فاجتمعوا اليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدثه سنة فى رجال القوم تحت الشجرة .

فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى . قالوا له : يا بحيرى ما نخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتىك الا غلام وهو أحدث القوم سنا فتخلف فى رجالهم . فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ان كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبدالمطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام اليه فاحتضنه فأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وفرقوا قام اليه بحيرى ، فقال : يا غلام اسالك بحق اللات والعزى الا ما أخبرنى عما اسالك عنه . وانما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . قال : لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله الا ما أخبرنى عما اسالك عنه ، فقال له : سلنى عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله ، من نومه وهيبته وأمره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم — يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى ، قال له بحيرى : ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال : فإنه ابن أخى ، قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت فارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لييفنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده .

فخرج عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة ، وأضاف ابن هثام ان نفرا من أهل الكتاب رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رأى بحيرى فأرادوه ، فردهم بحيرى وذكرهم الله وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا اليه ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا .

وقد وردت هذه القصة فى مختلف كتب الصحيح وقد أخرجها الترمذى من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

أرأيت أذن هذه الطفولة العبقريّة كانت محل توجيه الله سبحانه وتعالى وأنها محط رعايته وعنايته ؟

ولم يترك الله جلّت قدرته نبيه في صغره وقد أفقده أباه وأمه وجده نهبا للوساوس وعرضة للضياع وفريسة للأحزان في بيئة ينفث فيها الجهل والضلال والشرك ، ولكنه هداه سواء السبيل ، فنشأ على فطرة سليمة وطريقة سوية في السلوك الطيب والتصرف الحميد والخلق الفاضل .

لقد أبى على بحرى أن يقسم باللات والعزى ، وأبى أن يستجيب لهذا القسم وهو ابن اثني عشرة سنة في سن مبكرة عن ذلك التفكير العالى في أمر الخلق والخالق ، وفي هذا دليل على أن نموّه العقلى لم يكن نموّا عاديا ، ولكنه كان نموّا فريدا في ذاته ، تحوطه مقومات خاصة من توجيه الله سبحانه وتعالى ، حتى استطاع أن يدرك وهو في هذه السن بطلان تلك الآلهة التى تعبد من دون الله ، وكان من تمام ذلك أن عصمه الله من السجود لهذه الأصنام كما يفعل سواد الصبية الذين يقلدون ذويهم في عباداتهم ، فأننا نرى أطفالنا منذ الثانية من أعمارهم يحاكون الكبار في أعمال الصلاة راكمين أو ساجدين . ثم بعد ذلك حين يكبرون قليلا ينعلقون بأبائهم وهم ذاهبون الى المساجد . ولكن الله — جلّت حكمته — قد نعهد نبيه حتى قبل ولادته فكفل له الأرحام الطاهرة والأصـلاب الطيبة ، فما زال يتقلب من طاهر الى طاهر حتى كان في صلب عبد الله ورحم آمنة ، ولعل هذا ما فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى « **وَقَدْ نَزَّلْنَاكَ فِي السَّاجِدِينَ** » الشعراء ٢١٩ . ويصدق قوله عليه الصلاة والسلام فما يرويه مسلم « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى هاشميا من قريش واصطفانى من بنى هاشم » وزاد بعضهم قوله عليه الصلاة والسلام : فأننا خيار من خيار من خيار .

رجولة مطهرة

مع المهمات الكبار :

ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم — وقد رزقه الله حياء شديداً ومروءة بالغة وذوقاً رفيعاً أن يظل عالة على غيره ، وبخاصة حين أدرك أن عمه أبا طالب رجل كثير العيال منقل بالتبعات الثقال ، فقد ورث عن أبيه مكانته وزعامته ومسئوليته ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يشارك في أعباء هذه الأسرة ويتحمل نصيبه في دخلها .

وقد رأينا كيف حدث عن نفسه قائلاً « كنت أرمي الغنم على قراريط لاهل مكة » وهو العمل الذي يقوم به عادة صغار السن من أمثاله .

ورأينا أيضاً كيف شارك عمه أبا طالب في رحلته الى الشام ماجراً اذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، ما ذلك الا لرغبته في أن يشهر عمه بأنه ليس عالة عليه وأنه بوسعه أن يقوم بعمل يفيد ويغنى .

وفي ذلك دلالة يشير اليها الدكتور محمد سعيد البوطي بقوله « فيها الذوق الرفيع وفيها الاحساس الرقيق اللذان جعل الله بهما نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشفيق ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ما ان أنس من نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل بكتسب ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونه الانفاق عن عمه وربما كانت الفائدة التي يجنيها من وراء عمله الذي اختاره الله له فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه ابي طالب ، ولكنه على كل تعبير أخلاقى رفيع عن الشكر وبذل للوسع وشهامة في الطبع وبر في المعاملة » .

وان في ذلك لمثلاً كاملاً لشبابنا وفتياننا الذين ينأون بأنفسهم عن العمل اعتماداً على آبائهم أو ثروانهم ويتركون أنفسهم نهية للبطالة والضياع ، ولا يحسنون استغلال أوقات الفراغ والعطلات الدراسية .

ان العمل مهما قلت قيمته أو ضعف دخله له أثر كبير في تقويم الطباع

نجم ١٠

وتوجيه السلوك ، وبه يكتسب الانسان خبرته في الحياة ويزداد ثقافة وعلمها ، وقد قيل ان الانسان يكتسب بكفاحه وعمله ما لا يكتسب بدراسته وعلمه ، ولذلك كان في الدراسات الميدانية في بعض الكليات والمعاهد اهمية كبرى وعليها قسط كبير في التقويم .

لقد علمنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ألا نضيع أوقاتنا عبثا ، فالفراغ سيف قاطع وسهم قاتل ، وقد ورد في الحكم : الوقت من ذهب ، وورد أيضا : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك ، والاقبال على العمل يأتي بالتعميد والتوجيه ، فعلى الأسرة أن توجه أبناءها منذ صغرهم كيف يستفيدون من أوقات فراغهم بثقلها فيما يفيدهم في حياتهم .

أما نحمد لكثير من شبابنا الذين يقبلون على العمل في أوقات فراغهم واجازاتهم السنوية ، ولكننا نحب لهم أن يكون العمل الذي يقومون به منبثقا من روح الاسلام ومناسبا لثعاليمه ، فالاسلام لا يرضى لهم العمل مثلا في دور اللهو والمجون ، فربما تكبد البعض مشاق السفر الى البلاد الأجنبية بحثا عن العمل وربما لا يجدونه الا في مثل هذه الأماكن فيقبلون ، في الوقت الذي يمكن لهم أن يقوموا في وطنهم بأعمال ملائمة ولائقة ، قد تكون أقل أجرا في المال ولكنها عند الله أعظم أجرا ، وفي موازين الأعمال أفضل وأجدي للوطن الذي يفتقر الى كثير من الأيدي العاملة .

لقد كان الله قادرا على أن يكفل لنبيه الحياه الرغده والمعيشه الرافهة ولكنه أراد له أن يقاسى منذ صغره مناعب الكفاح ليكون قدوة لأمتة أولا ، ولينمي فيه هذه الملكة ملكة تحمل المشاق والتبعات حتى يستطيع في الوقت المناسب الاضطلاع بالمسئولية الكبرى وهي مسئولية النبوة والرسالة ، وما أعظمها من نعمة وما أخطرها من مسئولية .

وكيف يكون النبي صلى الله عليه وسلم قدوة لأمتة في الاعتماد على النفس وفي اكتساب المعيش بعرق الجبين ما لم يكن هو قد مارس ذلك عمليا منذ مطلع حياته ؟ اسمع اليه يوجه أصحابه فيما يرويه حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم ، ان هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوه

نفس بورك له فيه ، ومن أحذه بأشراف نفس لم يبارك الله له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى . قال حكيم : فقلت يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أوزا أحدا بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا . فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطشاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً ، ثم ان عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله ، فقال : يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم أنى أعرض عليه حقه الذى قسمه الله له فى هذا الفىء فيأبى أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم حتى توفى . »

فانظر الى هذا التوجيه الحكيم الذى لم يكن ليؤتى ثماره الا من موضع القدوة الطيبة الصالحة ولولا أن حكيماً عرف أن نبيه الكريم نشأ عفيفاً مكافحاً مجاهداً ودرج على هذه الصفات المرضية التى أصبحت سجية فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لما تقبل هذه النصيحة بذلك الصدر ارحب والروح العالى والتصميم القوى على الامتثال .

وبذلك أراد الله للمسلمين عن طريق الاقتداء برسولهم أن يكونوا كرماء على نفوسهم كرماء على الناس لا يمدون أيديهم بالسؤال ولا يكونون عالة على أحد مهما كان .

حرب الفجار :

ومن دلائل الرجولة المبكرة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مشاركته فى حرب الفجار وقد كانت سنة اذ ذاك أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة فيما يرويه ابن هشام فى سيرته ، وكانت هذه الحرب بين قريش وكنانة من جهة وبين قيس عيلان من جهة أخرى ، وسببها انتهاك قيس عيلان الأشهر الحرم واعتداؤهم فيها ، وكانت قريش نحترمها .

وكان احترام الأشهر الحرم النى يحرم فيها القتال مما تركه ابراهيم عليه السلام فى نفوس العرب الذين سعدوا طويلاً بهذه الشريعة التى أتاحت لهم الأمن والسلام فى هذه الشهور الأربعة التى يتحقق فيها النفع بتحقيق الاطمئنان فى السفر والانتقال من مكان الى مكان الا أن العرب ابتلوا بمن يستحل حرمة هذه الشهور فيعتدى فيها على الآمنين ، مما حدا بقريش

أن تجند نفسها للوقوف ضد هؤلاء المعتدين ، وقد دامت هذه الحرب التي سميت بحرب الفجار أربعة أعوام .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينبل على أعمامه فيها . جاء في تعليق الأستاذ طه عبد الرؤوف سعد على طبعة سيرة ابن هشام التي قام بالتقديم لها والتعليق عليها « ولم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه وكان ينبل عليهم — وقد بلغ سن القتال — لأنها كانت حرب فجار وكانوا أيضا كلهم كفارا ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل الا لتكون كلمة الله هي العليا » .

ونبله على أعمامه هو رد النبال عنهم اذا رماهم بها أعداؤهم . وظلت الحرب مشتعلة فترة حتى توسط عتبة بن ربيعة بن عبد شمس في انتهائها وحقن الدماء فخدمت ، وقال العرب في ذلك : لم يسد في قرش مطلق الا عتبة وأبو طالب فانهما سادا بغير مال .

فلم يتخل النبي صلى الله عليه وسلم عن واجبه ازاء أعمامه الذين اشتركوا في هذه الحرب ، فهم سادة قريش ولهم زعامتها وعليهم واجب القيادة وتبعية الزعامة ، ولم يفض اشتراكه فيها من شأن تأهل للنبوة فيما بعد ، على اعتبار أن هذه الحرب حرب جاهلية ، فقد جاء القرآن الكريم مؤبدا لاحترام الأشهر الحرم ، وعلى ذلك فنصرفه مواسم لتوجيهات الاسلام وتعاليمه ، قال تعالى « أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم » التوبة ٣٦ .

وكما شهد جانبنا من هذه الحرب شهد كذلك حلف الفضول الذي قال في حقه بعد أن شرفه الله بالرسالة « لقد شهدت مع عمومنى حلفا في دار عبد الله بن جهمان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به في الاسلام لأجبت » ذكره ابن كثير في البداية والنهاية . وقد سبق الحديث عن هذا الحلف .

اشتغاله بالتجارة ومناجرته لخديجة :

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يكسب رزقه بيده كما سبق أن قلنا ، وأخذ يكافح في سبيل الرزق عن طريق التجارة ، والتجارة من أشرف الأعمال متى توفر فيها الصدق والأمانة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « الناجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء » ولشرف التجارة ضربها الله مثلا للصادقين المجاهدين فقال جل من قائل « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** » النوبة ١١١ ، وقال : « **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم أن كنتم تعلمون** » الصف ١٠ ، ١١ . الى غير ذلك من الآيات . وقد من الله على قريش التي اشتهرت بالتجارة ومحمد صلى الله عليه وسلم من أبنائها بأن أمن لهم طرقهم التجارية حتى لا تتعرض تجارتهم للضياع والبوار ، قال تعالى : « **لا يلاف قريش ألافهم . رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** » قريش .

ودل الناس خديجة بنت خويلد على الصادق الأمين ليتاجر لها .

وكانت السدة خديجة ذات شرف وجاه ومال نسـتأجر الرجال في مالها ونصار بهم إياه ، فما أن سمعت عن أمانة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقته حتى وكلت اليه أمر تجارتها ، فاصطحب في مسيرته غلامها ميسرة ، واتجها الى الشام حيث باعا واشترىا وربحا ربعا وامرا لم تعهده خديجة من قبل . وفي الطريق رأى ميسرة من العجائب والخوارق التي ملأت قلبه اكبارا واعجابا بهذا الرفيق الطاهر المبارك .

من ذلك فيما يرويه ابن هشام ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب ، وحين رآه الراهب سأل عنه ميسرة قائلا : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبي ، ولعله رأى من العلامات التي سبق لبحيرى الراهب أن رآها ما جعله يجزم بما جزم به .

باب ٤٤

وحدث ميسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في سفره هذا قائلا :
انه اذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو
يسير على بعيره .

فلما عاد ميسرة اخبر سيدنه خديجة بما رأى وبما سمع من الراهب .

زواجه من خديجة :

وحين رأت خديجة أمانته وصدقته اللذين ظهرا في تجارتها بما أضعفه
لها من المال ، وكان غيره ممن سبق لها استئجارهم لا يؤمنون كما وفي
ولا يصدقون كما صدق ولا يربحون كما ربح ، حين رأت كل ذلك رغبت في
أن تقترب به ، فهو نعم الحفيظ على زوجه الكريم العشرة الحسن المعاملة ،
ورغبتها هذه تتفق مع ما عرفت به من حزم وبعد نظر وحسن عقل .

وقد أسرت برغبتها الى صديقها نفيسة بنت منبه ، وذهبت نفيسة
الى النبي صلى الله عليه وسلم تعرض عليه الزواج من خديجة ذات الحسب
والنسب والشرف والمال ، والنبي كان أشراف القوم يطمحون اليها ولكنها
صرفت عنهم . الا أنها رأت في محمد صلى الله عليه وسلم ما لم تره في غيره
من الرجال الذين كانوا يتهافون على خطبتها ، رأت فيه كرم النفس وعلو
البهمة وطهارة الضمير ، رأت فيه طرازا آخر من الناس هو طراز الذين
يصطفاهم الله ويظهرهم من أرجاس الحياة وأوضار المادة . .

لقد رأت ذلك منه وزكى ما رآته حديث ميسرة عنه .

ورحب النبي صلى الله عليه وسلم بما عرضته عليه نفيسة ، وخطب
أعمامه في ذلك فوافقوا .

وذهب أبو طالب وحمزة الى عم خديجة عمرو بن أسد ، لأن أباهما
كان قد توفي ، وخطبا اليه ابنة أخيه لابن أخيها « محمد بن عبد الله »
وأصدقاهما عشرين بكرة .

وخطب أبو طالب خطبة النكاح فقال : أما بعد ، فإن محمدا ممن
لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان

فى المال قل غانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد
رغبة ولها فيه مثل ذلك . .

كانت سن محمد اذ ذاك حمسا وعشرين سنة ، ولكنه على الرغم من
ذلك فلم يكن خاطر الزواج يطيف براسه ، ولم تكن رغبة النساء تراوده ،
فقد شغله الله عن ذلك كله بأمر عظمة ذات بال ، ملأ الله قلبه نورا وعقله
تفكيرا فى خلق السموات والأرض ، حتى جاء أمر الزواج فى وقت قدره الله
لـ ' اراده لخديجة من كرامة ولما اراده الله لنبيه من أن يجد فى وقته الفراغ
للتأمل والتبطل .

لقد اراد الله أن يحفظ نبيه قبل الزواج فجعل لرجولته الفذة سبيجا
من العفة والطهارة ، ومعالي الأمور ، وذلك هو الذى رفع من قدره فى أعين
الناس ، وصنع له هالة من التقدير والاعجاب ، حتى لم يستطع أحدهم أن
يملك القدرة على كراهيته ، بل كان تلقيبهم المفضل له : الصادق الأمين .

ولكن العجيب حقا هو أن يتحول هذا الحب الشديد والاعجاب الكبير
بمحمد الى بغض من قساة القلوب له ، بعد أن أكرمه الله بالرسالة ، ولكن
العجب يزول حين يعرف السبب وراء ذلك ، فقد اصطدمت مصالحهم المادية
بما جاء به ، فهددت دعوته نفوذهم وحاولت أن تقضى على عصبيتهم
وما بنوارثونه من عقائد وتقاليد .

ولقد تنبه لذلك واحد من المشركين أنفسهم ، من الذين كانوا يناصرونه
العداء ، هو النضر بن الحارث من بنى عبد الدار وقد ظل على كفره حتى
قتل يوم بدر بيد على بن أبى طالب ، وقال فى مؤتمر عقده زعماء قريش
ليتواثموا على رأى واحد يواجهون به وفود العرب حين يأتون الى الحج فى
شان محمد صلى الله عليه وسلم بدلا من اختلافهم وتعدد آرائهم فقد كان
بعضهم يقول عنه : انه كاهن ، وبعضهم يقول : انه شاعر ، وبعضهم
يقول : انه ساحر ، الى غير ذلك . قال النضر : قد كان محمد فيكم غلاما
حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى
صدقيه الشيب وجاعكم بما جاعكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر . .

وقد كان الأولى بهذه الشهادة أن يكون صاحبها من المؤمنين ، ولكن عنجهية الجاهلية وكبر أهل الشرك حال بينه وبين ذلك للشقاء الأبدى الذى قضاه الله عليه .

ثناء على خديجة :

وبزواج النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة بدأ مرحلة جديدة فى حياته ، مرحلة توشك أن تستقبل الوحي وتنتهى للرسالة .

وسعد الزوجان بحياتهما ، ولعله مما يطالعنا به هذا الزواج أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يهدف من ورائه الى متعة جسدية ، بل كان يرمى الى الاستقرار أكثر من أى شئ آخر ، كان فى الخامسة والعشرين من عمره سسن الشبيب الغض ، وكانت خديجة فى الأربعين ، ولو كان يطمح الى المتعة لأصابها عند فتيات أصغر منها سنا كان محمد بشبابه وخلقه وحسبه أعظم مطمح لهن .

ورزق الله نبيه حب زوجته وكانت أهلا لذلك فهى العفيفة الطاهرة ، وقد أثنى النبى صلى الله عليه وسلم عليها فى حياتها وبعد وفاتها ، روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد . وقال العلماء : ان الضمير الأول يعود الى الأرض والضمير الثانى يعود الى السماء .

وأثنى عليها الله جل وعلا ، ففى خبر ورد يقول : « أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله هذه خديجة أتت معك اثناء فيه- ادم أو طعام أو شراب فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببیت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أنعم بهذه الزوجة الصالحة التى يقرأ عليها رب العالمين والروح الامين السلام ، وأى امرأة نالت هذه المنزلة العظمى غير خديجة ؟.

ورزق النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة أولاده كلهم ماعدا ابراهيم فسانه من مارية القبطية . أما أولاده منها فهم — كما ورد فى ابن هشام —

القاسم والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، ويقول بعض المحققين :
ان الطاهر والطيب لقبان للقاسم ، ويقول آخرون : انهما لقبان لولد آخر
هو عبد الله .

وعلى هذه الرواية الأخيرة فأولاده الذكور عبد الله والقاسم وإبراهيم ،
والإناث هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضوان الله عليهم جميعا .

ويشاء الله أن يموت أولاده كلهم في حياته ماعدا فاطمة التي ظلت بعده
حوالى ستة أشهر ، وهى التي تزوجها ابن عمها على بن أبى طالب كرم الله
وجهه ، وقد احتفظت هى بنسب المصطفى صلى الله عليه وسلم بأولادها .

ودام زواج النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة فترة طويلة ،
شهدت مرحلة البعث ودامت بعدها أكثر من عشر سنين ، وكان لخديجة
مواقف مشهورة آذرت فيها النبى صلى الله عليه وسلم ووقفت بجانبه
وهو يبلغ رسالة ربه ، وكانت أول من آمن به .

ولقد كانت تدرك قبل البعثة بأن زوجها سيكون نبى هذه الأمة ،
عرفها بذلك ابن عمها ورقة بن نوفل ، فقد أخبرته بما رآه غلامها ميسرة
في أثناء سفره مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : لئن كان هذا حقا
با خديجة ان محمدا لنبى هذه الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر
هذا أوانه . ويقول ابن هشام : انه ظل يستبطن ذلك ويقول حتى متى ؟
وقال فى ذلك شعرا منه :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا
لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجة

السعادة الزوجية :

ان التأمل فى حياة هذه الأسرة السعيدة يشعر بأن سر سعادتها
بعد كرم الرسول وحسن خلقه الى أن سيدة البيت قد عرفت واجبتها
نحو زوجها وقامت به خير قيام ، وكان هذا بفضل توفيق الله لها ، فقد رزقها

العقل والفتنة وحسن التصرف ، وعرفت بفراسبتها الصادقة ما ينتظر زوجها من مهام خطيرة فوفرت له الوقت والجهد ، ووقفت من ورائه تشدد أزره وتقوى ساعده وهكذا تكون المرأة العاقلة ، انظر اليهسا تقول له وقد عاد من الغار ترجف أوصاله : والله لن يخزيك الله أبدا ؛ انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر .

ولئن صح لبعضهم أن يقول : ان وراء كل عظيم امرأة ويضربون المثل في ذلك بخديجة رضى الله عنها فان عظمة محمد صلى الله عليه وسلم من صنع ربه وهو الذى اختاره لمهته ووفق من وقف وراءه لمناصرته وكان هذا من دلائل سعدتها وحسن حظها .

رب الأسرة المثالي :

ولئن كانت السيدة خديجة رضى الله عنها زوجة مثالية فان زوجها صلى الله عليه وسلم أشد مثالية وأعظم من يعرف الواجب لأسرته وهو الذى يقول : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى . كان صلى الله عليه وسلم مثلاً كاملاً لرب الأسرة الذى يقتدى به فى كل شئ فهو نعم العائل لأسرته ، ونعم المسوى بين أبنائه فى المعاملة ، فلم يؤثر عنه أنه غرق فى معاملته بين ذكر وأنثى ، بل كان يوصى بالأنثى خيراً ، وقد ورد عنه فى ذلك آثار طبية منها : « من كانت له ابنة فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التى أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار الى الجنة » وعن أنس : « من عال جاريتين حتى تبلغسا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ، وضم أصابعه » جاريتين أى ابنتين . رواه مسلم .

ويذكرى هذه الروايات ما ورد فى القرآن الكريم من نعى على العرب الذين يشدون بناتهم تخلصاً منهن وتحللاً من تبعاتهن .

وكيف يفرق العاقل بين ذكر وأنثى وكلاهما من هبة الخالق الأعظم الذى يقول : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور » الشورى ٤٩ . ولعل فى تقديم الاناث هنا ما يشعر العنجهية العربية بوجوب التواضع أمام حكمة الخالق التى قد تجعل فى بعض الاناث من الخصائص والمزايا ما يفوق كثيراً من الرجال .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم نعم الصابر على ما بنوبه من فقد الولد ، احتسب عند الله أولاده كلهم ماعدا فاطمة فلم يجزع . وحين نوفي إبراهيم دسعت عيناه ، ولم يزد على أن قال حين سئل عن ذلك : ان القلب ليحزن وان العين لندمع ولا نقول ما يسخط الرب . في الوقت الذي كانت تتصدع فيه قلوب العرب على فقد أولادهم الذكور الذين كانوا يعتزون بهم ويفضلونهم على الاناث .

وليس معنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قاسسيا ، كلا فقد كان يحزن ولكن حزنه لم يزد الا اعتصاما بربه والتجاء اليه وتفويضا لحكمته . وهذا أقصى درجات الايمان واليقين .

لقد عيره العرب بانقطاع نسله حين فقد أولاده الذكور ، وسموه الأبر ، فنزل القرآن الكريم ردا عليهم ذلك بقوله : « **انا اعطيناك الكوثر** فصل **اربك وانهر ان ثنائك هو الأبر** » ذكر جلال الدين السيوطي في كتابه اسباب النزول عدة أسباب لنزول هذه السورة منها ما أخرجه البزار وغيره : قسم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ، ألا ترى الى هذا المنصبر المنتبر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجج وأهل السقاية وأهل السدانة ؟ قال : أنتم خير منه فنزلت : **ان ثنائك هو الأبر** .

ومنها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي قال : كانت قريش تقول : إذا مات ذكور الرجل بتر فلان ، فلما مات ولد النبي صلى الله عليه وسلم قال العاصي بن رائل : بتر محمد فنزلت .

فعلى الرغم من فجاعة النبي صلى الله عليه وسلم بفقد ولده فقد أضيف الى ذلك شماتة العدو بذلك ، والشماتة أقسى ما يصاب الرجل الحر مصداقا لقول الشاعر :

كل المصائب قد تمر على الفتى

وتهسون غير شماتة الحساد

الا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقابل ذلك بقلب صابر وحسان قوى ورضا بقضاء الله وقدره وكذلك كان نعم المثل لأسرته الصغيرة ولأمته الكبيرة وجل من أثنى عليه بقوله : « **وانك لملى خلق عظيم** » القلم { . (م { — هدى السيرة)

ولقد كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة مثلاً يحتذى في العفة والنزاهة والصدق والأمانة ، لم يركن الى الخمول والكسل — كما رأينا — فقد استقرى الغنم منذ نشأته وفي ذلك الهام من الله له ، حتى اذا ما كبر عمل بالتجارة ، وكان له شريك اسمه السائب بن أبي السائب .

وعمل بالتجارة لخديجة قبل زواجه منها وبعده ، وكان يأكل من عمل يده ، وهذا معنى قوله تعالى « **ووجدك عائلاً فأغنى** » الضحى .

وقد اكتسبته رعاية الغنم كثيراً من المعاني التي أهمها الرأفة والرقّة التي صاحبته في حياته فتمكن من أن يكون رحيماً بأمنه ، وأخبر عنه ربه فيما بعد بقوله تعالى : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » الأنبياء ١٠٧ ، وحدث عن نفسه قائلاً : انما انا رحمة مهداة .

ولم تتغير حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الزواج فقد ظل محافظاً على حياة الزهد والقناعة ، والزهد هو شعار الأنبياء عامة ، ونبينا بصفة خاصة ، فالزهد هو الذى يفتح أبواب الملكوت أمام صاحبه ، واذا تفتحت عين العبد على زهرة الدنيا حال ذلك بينه وبين الانتفاع بشمار الحكمة الأبدية ، وكيف يكون النبي قدوة لأتباعه وبخاصة الفقراء منهم وهو مترف ؟ لقد كان من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم المأثورة : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً ، و : اللهم احينى مسكيناً وامنى مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين .

وبعد البعثة أمره ربه بأن يؤثر الفقراء بمودته فقال له : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً** » الكهف ٢٨ .

حسن تصرف :

واستقرت الحياة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأخذ يزداد في نفوس الناس اكباراً واجلالاً . وظهر حسن تصرفه وكمال عقله في بناء الكعبة ،

حين همت قريش بذلك بعد أن هدمتها السيول الجارفة قبل البعثة بسنوات ، وكانت قبل ذلك قد وهنت لحريق أصابها .

وجمعت قريش من حر مالها وحلاله ما يقى ببجديد البيت ، وأخذ أشراف قريش يحملون الحجارة على عواتقهم ومن بينهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وحين أرادوا وضع الحجر الأسود مكانه تنازعوا فيما بينهم ، كل منهم يريد أن يكون له شرف وضعه بيده ، حتى أوشكت الحرب أن تنشب بينهم ، وحين اشتد النزاع ألهم الله أبا أمية بن المغيرة المخزومي — وكان أسن القوم — أن يدعوهم إلى تحكيم أول داخل عليهم من باب الصفا ، وارتضوا هذا الحكم ، وكان أول داخل عليهم هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا جميعاً وقد علاهم الفرح : هذا الأمين وكلنا نرتضيه حكماً .

وبسط محمد صلى الله عليه وسلم رداءه ، ووضع فيه الحجر بيديه ، وطلب من كل قبيلة أن تأخذ بطرف من الثوب ، حتى وصلوا إلى مكانه ، فرفعه بيديه الشريفتين ووضعاه فيه .

وهكذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يفضي على مشكلة كبرى كادت أن تنشب من أجلها حرب ضارية بين القبائل القرشية وقد تعاهدوا على الحرب فعلاً وأتوا بجفنة دماء غمسوا أصابعهم فيها . قالوا : قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاهدوا هم وبنو عدى بن كعب ابن لؤى على الموت وأدخلوا يديهم فيها فسموا لعقة الدم .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بحكمته البالغة أطفأ هذه النار وقضى على تلك الفتنة .

وقام بناء الكعبة شامخاً لم يجدد بعد ذلك إلا في عهد ابن الزبير ثم جدد بعده مرة أخرى .

وموقف النبي صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة يشير إلى ما بلغه من منزلة عليا بين قومه فقد ارتضوه جميعاً حكماً ، حتى بعد أن زين لهم

ابليس الذى تصور لهم فى صورة شيخ نجسدى ألا يقتلوا حكومته لحدائثة
سنه ويتمه ضربوا صفحا عن ذلك القول ولم يسمعه ، وتركوا النبى صلى
الله عليه وسلم منفذ حكمه . أورد ذلك الأستاذ طسه عبد الرعوف بسعد
فى تعليقه على سيرة ابن هشام .

فترة تأمل :

ومضت الايام والنبى صلى الله عليه وسلم يزداد كل يوم تأملا ،
ويعمن فى البعد عن عادات الجاهليين وعبادتهم ، فقد هداه الله بفطرته
انصافية الى دين ابراهيم فأنطلق يتعبد فى غار حراء على ضوء هذا الدين .
يذهب الى ذلك الغار بين الحين والحين ، وبمكث فيه الليالى ذوات العدد ،
وقد حبس الله اليه الخلاء ، ومن منطلق هذه العزلة المستنيرة كسفت له
جوانب مضيئة من الحياة ، وقد تمكن الصوفية فى ضوء ما كان يقوم به النبى
صلى الله عليه وسلم من اختلاء فى غار حراء أن يستمدوا الواسع من السلوك
ياخذون به مريديهم حتى يصلوا الى المعرفة الحقيقية ، قال ابن عطاء الله
السكندرى فى ذلك : « ما نفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة »
وعلق الرندى شارح حكم ابن عطاء الله على هذه الحكمة بقوله : « مداواة
امراض القلوب واجبة على المريد ، وامراضه انما تكون من غلبة الأحكام
الناجمة عن الطبع عليه ، من صحبه للأضداد ووقوفه مع المعتاد وانقياده
الى هوى النفس وأتسبه بعالم الحس ، ومداواة هذا المرض ثأنى من وجوه
كثيرة ، وأبلغها فى ذلك وأنفعها العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة ،
وبالعزلة أيضا يجتمع همه ويقوى فى ذات الله عزمه ، بخلاف الخلطة
فإنها تفرق الهم وتضعف العزم ، فقد قيل : ان العبد ليعقد فى خلوته على
خصال من الخير يعملها فاذا خرج الى الناس حللوا عليه ذلك عقدة عقدة ،
وقد روى عن عيسى عليه السلام : لا تجالسوا المونى فتموت قلوبكم .
وفى الخبر المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أخوف ما أخاف
على أمتى ضعف اليقين ، وضعف اليقين انما يكون من رؤية أهل الغفلة » .

ولا تفيد العزلة بدون التفكير ، والتفكر ورد فيسه : « تفكر ساعة
خير من عبادة سبعين سنة » وفى الأثر : طوبى لمن كان قوله ذكرا وصمته
فكرا ونظره عبرا ، ان أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

هذا سلوك للصوفية أخذوه عن النبي صلى الله عليه وسلم سيّد المتفكرين وقدوة المتأملين وإمام المتنبّلين .

آيات وخوارق :

وأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة من حياته ، وأراه من الآيات ما يرهص بالايحاء البه ، ومن الخوارق ما يؤنس حتى لا يفاجأ بما لم يكن يتوقعه فيجزع ويفرق . قال ابن اسحاق : وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان داعية عن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — حين أراد الله بكرامته وابتدأه بالنبوة — كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى ثعالب مكة وبطون أودينها ، فلا يمر بحجر ولا شجر الا قال : السلام عليك يا رسول الله ، قال : فيلنفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وتسماله وخلفه فلا يرى الا التجر والحجاره . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بجرا في شهر رمضان .

وروى الترمذي ومسلم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انى لأعرف حجرا بمسكة كان يسلم على قبل أن ينزل على . وفي بعض المسندات أن هذا الحجر الذي كان يسلم عليه هو الحجر الأسود .

وقد سبق الإشارة إلى أن الخوارق في حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ليست أمرا مستغريا وفي الأحاديث الصحاح كثير منها . وليس هناك من يمتنعها ، وعلى هدى من ذلك نعد الكرامة بالنسبة للولى أمرا ممكنا .

الكرامة الحقيقية :

والكرامة تحدث على يد رجل صالح مشهود بصلاحه ، عفوا وبدون اجتلاب ، وهى علامة صدق لمن ظهرت على يده في أحواله ، فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز ، ذكر ذلك القشيري في رسالته .

وغالبا ما تكون الكرامة من غير علم صاحبها ، وفي ذلك فرق بينها وبين المعجزة ، ومن أجل هذا عد كبير من الأولياء اظهارة الكرامة نقصا ،

ويقول في ذلك ابن عطاء الله السكندري : « ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه » ويشير بهذا الى مذهبه في الزهد في الكرامات من حيث هي خوارق للعادات فانه ليس كل من خصص بها في رايه كمل تخليصه من حظوظ نفسه .

ولكن الكرامة الحقيقية هي الاستقامة على الدين وحصول كمال اليقين ، واما الخوارق الحسية فاذا صحبتها الاستقامة ظاهرا وباطنا وجب تعظيم صاحبها لأنها شاهدة له بالكمال ، والا فلا عبرة لها ، ويرى ابن خلدون في مقدمته أن انكار الكرامة مكابرة ويقول في ذلك : « واما الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر ، وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق ، مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات ، وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابه واكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور » المقدمة ص ٤٧٤ .

روى البيهقي في دلائل النبوه بسنده الى أبي سيرة النخعي قال : أقبل رجل من اليمن ، فلما كان في أثناء الطريق نفق حمارة فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال : اللهم اني جئت مجاهدا في سبيلك ابتغاء مرضاتك . وأنا أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور ، ولا تجعل لأحد على اليوم منة أسألك أن تبعث لى حمارى فقام الحمار ينفخ أذنيه . قال البيهقي : هذا اسناد صحيح ومثل ذلك يكون معجزة لصاحب الشريعة حيث يكون في أمته من يحيى الله له الموتى ، وهذا الرجل اسمه نباتة بن يزيد النخعي .

وفي القرآن الكريم اشارات الى حدوث الكرامات منها قوله تعالى في شأن مريم : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » آل عمران ٣٧ ، وقوله في قصة سليمان عليه السلام : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك » النمل . ٤ .

وما لنا ننكر الكرامة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره . يقول الياضى في كتابه نشر المحاسن الغالية : لو لم يكن هذا الحديث لكفى .

ولذلك فليست مع الذين ينكرون المعجزات الحسية للنبي صلى الله عليه وسلم مكتفين بمعجزته الباقية وهى القرآن الكريم ، ولست معهم كذلك فى انكار كرامات الاولياء فهى نابتة ، واعتقادها لا بعنى الانكال عليها وترك العمل فان جميع من تبنت لهم خوارق لم يعتمدوا بها ولم يعتمدوا ولم يقصدوا انيها ، وانما هى شىء يمنحه الله لهم نكريما ، ثم ان الصادقين منهم يتجاوزون عنها خوفا أن يكون استدراجا ومكرا .

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم فى الفترة السابقة للوحى كان يطلع الى ما بهلأ قلبه ببرد اليقين وأن يهديه من هذه الحيرة التى يعانىها ، فقد كان يعتقد بوجود دين هو خير من هذا الدين الذى يدين به الجاهليون ، هو دين ابراهيم عليه السلام ، ولكن ائى له به ؟ وكيف الطريق اليه ؟ ولعل ذلك هو المعنى بقوله تعالى فى سورة الضحى : « **ووجدك ضالا فهدى** » فالضلال هنا هو الحيرة وليس الكفر أو الشرك ، يقال فلان ضل الطريق بمعنى لم يعرف ما يوصل اليها ، وقد جاء ما يشير الى هذا المعنى فى تفسير البيضاوى : **وجدك ضالا** عن علم الحكم والأحكام ، فهدى : فعملك بالوحى والالهام والنوفيق للنظر ، وفى تعليق للشيخ الحضرى فى سيرته : هداك بالنبوة وهداك للكتاب والايمان ودين ابراهيم عليه السلام ولم تكن تدري ذلك من قبل قال تعالى : « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان** » الشورى ٥٢ .

وكان الله معه يرقبه بعين الوداد ، حتى جاء يوم استقر فيه وجدانه وسعد فيه جنانه ، ونزل أمين الوحى فى لحظة فريدة التقت فيها الأرض بالسماء ، وارتقت فيها الطينة البترية الى مسنوى الأفق الأعلى ، لنجتمع فى أحضان جبريل يضمها ضمة تختلط فيها البشرية بالروحانية ، وتتبدد فيها الحيرة باثراقة الهدى واليقين ، ويطلقن الموعد بالسعادة الأبدية المحفوظة بالعناية الربانية أول آيات من القرآن الكريم تمأل كيانه بالنور ويفيض على العالم كله من حوله من أقصاه الى أقصاه ، ويوقفه على ما ينتظره فى مستقبل أيامه من جهاد فى سبيل دعوة أساسها الايمان وعمادها العلم وسياجها التقوى .

التماسا لدين ابراهيم عليه السلام كان النبي صلى الله عليه وسلم
يذهب الى غار حراء بين الحين والحين ، يمكث فيه الليالي المتعددة ، يتأمل في
ملكوته الله ويتعرف على الله في آثاره ومظاهر قدرته في خلقه ، والتفكير في
خلق الله يهده الى الله ، قال تعالى « ان في خلق السموات والأرض لآيات
لأولي الابصار — الذين يشكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في
خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار »
آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

جاء في سيرة ابن هشام « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهرا ، يطعم من جاء من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى اذا كانت الليلة التي أكرم الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى » .

كان ذلك على رأس الأربعين من عمره يوافق السابغ عشر من رمضان قبل الهجرة بثلاثة عشر عاما ويوافق بالناربخ الميلادى يوليو سنة ٦١٠ .

ويرى بعض المحققين أن بدء الوحي كان بواسطة الرؤيا وأن ذلك كان في شهر ربيع الأول . ولشهر ربيع الأول مركز مظلوظ بين الشهور القمرية ففيه ولد النبي صلى الله عليه وسلم وفيه بدء بالوحي وفيه هاجر وفيه لقى ربه . .

لا بد أن يكون قد سبق رؤيته جبريل ما يؤمنه حتى لا يفاجأ بما ليس

له به عهد فيفزع ، آتسه الله بالرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت
مثل فلق الصبح — كما خبر بذلك كسب الصحيح — .

وفي اليوم الموعود جاءه جبريل قائلا له : اقرأ ، قال محمد : ما أنا
بقارئ ، فغطه بردائه غطة قوية ، وقال له : اقرأ . قال محمد : ما أنا
بقارئ ، فقد كان عليه الصلاة والسلام أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقد أخبر
انقرآن الكريم بذلك قائلا « وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه يمينك
إذا لارتاب المبتلون » العنكبوت ٤٨ . فغطه جبريل غطة نائية حتى بلغ
منه الجهد ثم أرسله ، وقال له « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان
من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم
الآيات الأولى من سورة القلم . ثم تركه ومضى .

وانطلق النبي صلى الله عليه وسلم الى أهله يرجف من شدة ما رأى
وما سمع ، يقول لزوجته البارة : زملوني زملوني ، فزملته (لفته بالثياب)
حتى ذهب عنه الروع وأخبرها بما حدث قائلا : لقد خشيت على نفسي .
وهنا تتجلى عظمة المراه الحكيمة التي تقف الى جوار زوجها تهون عليه
ما يلقيه من أحداث وتعينه على ما يقوم به من مهام ، قالت له تطمئنن : كلا
والله ما يخزيك الله أبدا ؛ انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم
وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر .

هذه أعمال طيبة لا بد أن نثمر ثمارا طيبة ، فلا يمكن لصاحب هذه
الأيادي البيضاء أن يمسه سوء أو يحيط به شر أو يلحقه أذى أو يرى أطياف
الشياطين ، ان هذا المعنى ليلتقى مع قول النبي الحكيم رشد أمته « صنائع
المعروف تقى مصارع السوء » .

كانت كلمات خديجة اجابة طيبة وبلسما شافيا أدخل الطمأنينة على
قلب النبي الذي فوجيء في الفار بما لم يتوقع .

الى ورقة :

وتنطلق خديجة رضوان الله عليها الى ابن عمها ورقة بن نوفل
وبصحبته زوجها الكريم ليقص عليه ما رأى وما سمع ، ويصيخ ورقة

للنبي ، حتى اذا ما انتهى من كلامه ، قال ورقة : أبشر يا بن أخي ، هذا الناموس الذي نزل الله على موسى . ثم قال : ليتنى فيها جذعا اذ يخرجك قومك . قال النبي صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال ورقة : لم يأت رجل بمثل ما جئت به الا عودى . ثم قال : وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

ولكن القدر لم يمهل ورقة فلم ينشب أن مات ، ولكنه مات مسلما على أى حال ، فقد كان كلامه هذا الذى قاله للنبي صلى الله عليه وسلم تصديقا مسبقا برسالته ، وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته فى منامه فى هيئة حسنة تشهد بكرامته ، وقال عليه الصلاة والسلام عنه ذات مرة : لا تسبوا ورقة فانى رأيت له جنة أو جنتين — أخرجه البزار والحاكم وابن عساكر — .

وكان لكلام ورقة هذا اثر كريم فى نفس المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد طمأنه على أن ما رأى وسمع انما هو من عند الله جل وعلا ، وجعله يوقن بأنه انما يسير فى الطريق الصحيحة ، لقد ذهبت عنه الحيرة الى غير رجعة وأن له أن يماين الحق معاينة بعد أن أشرب روحه برد اليقين .

لقد ودع تلك الفترة فترة الحيرة والقلق ، وكان لطفنى جبريل وقمهما اللذين ما زال يذكرهما ويحسهما ويعيش فى خالهما ، فلم يكن ما آره خيالا بل كان حقيقة واقعة لمسها بكل جوارحه ، ولعل جبريل قد قصد من فعله هذا أن يظل أثر اللقاء باقيا خالدا فى نفس الرسول المصطفى ، فقد كان من الممكن أن يلقنه ما لقنه مشافهة ويمضى . ولعل فى ذلك اشارة الى اشتياق جبريل الأمين الى هذا اللقاء الذى كان مرتقبا بينه وبين حبيب الله ومصطفاه ، هذا اللقاء الذى فتح صفحة جديدة فى سجل الرسالة الخالدة والذى سيستمر منذ الآن بين الأمين والأمين حتى يشاء الله . .

كما كان من الممكن أيضا أن يتلقى النبي صلى الله عليه وسلم أول آيات الوحي فى منامه ، ولكن الله أراد أن يطلع رسوله الأمين على صورة روحه الأمين ، كما أراد أن يوضح له أن الأمر الذى يتهيأ له منذ الآن ليس

أمرًا سهلاً ، ولكنه ملئ بالمشقات منثور بالعقبات فعليه أن يودع حياة
النسكون ويستقبل حياة الكفاح والجهاد .

أن مضمون الرسالة التي أعد لها أمر ذو بال وهو من الأهمية بمكان ،
أنها الرسالة الخاتمة التي هبها الله لانقضاء البشرية — وإلى الأبد — من
الضياع ، فلا بد أن تكون أولى آيات دستورها القديم مبلغة لسفيرها في هذه
النصورة الجليلة من الاحتفال والتبليغ .

فتور الوحي :

وفتر الوحي بعد ذلك زمنا قدره بعضهم بأربعين يوما وقدره بعضهم
بأكثر من ذلك ، ولعل الحكمة في هذا الفتر أن يشتد شوق النبي صلى الله
عليه وسلم للوحي ، وقد اشدت الحال عليه وضاق بذلك الفتور ذرعا ، حتى
صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يلقي بنفسه من أعلى خوفا من قطيعة
ربه له ، بعد أن أراه هذه النعمة العظمى ومن عليه بتلك المنزلة الرفيعة ،
فيبتدى له جبريل على كرسى بين السماء والأرض يقول له : أنت رسول
الله حقا ، فيعود إليه الاطمئنان والهدوء ، حتى نزل عليه قوله تعالى
« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبِّكَ فَكْبِرْ . وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ .
وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » خمس صفات تتضمنها خمسة أوامر تنقل الإنسان من
حال إلى حال وترفع النفس من منزلة إلى منزلة حتى تصبح في حالة استعداد
كامل لما كلفته من مهام .

تبليغ الدعوة :

وشمر النبي صلى الله عليه وسلم عن ساعد الجد ، وبدأ يبلغ دعوة
ربه ، وكان أول من آمن به زوجته الوفية السيدة خديجة رضى الله عنها ،
وقد كانت له نعم المعين على مهمته ، وآمن به ابن عمه على بن أبى طالب
وكان غلاما صغيرا ، وآمن به غلامه زيد بن حارثة ، وآمن به صديقه
أبو بكر الصديق .

قصة في اسلام أبى بكر :

ويروى أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير قصة في اسلام
أبى بكر . قال : حدث أبو بكر — واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن

عمرو بن كعب بن سعد بن نعيم — قائلاً : كنت جالسا بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً فمر به أمية بن أبى الصلت ، فقال : كيف أصبحت يا باغى الخير ؟ قال : بخير ، قال : هل وجدت ؟ قال : لا ولم آل من طلب ، فقال :

« كل دين يوم القيامة الا ما قضى الله والحنيفة بور » .

أما هذا النبى الذى ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين .

قال : ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبى ينتظر أو يبعث ، فخرجت أريد ورقة بن نوفل وكان كثير النظر فى السماء كثير همومة الصدر ، فاستوقفناه ثم اقتصصت عليه الحديث ، فقال : نعم يابن أخى ، أبى أهل الكتاب والعلماء الا أن هذا النبى الذى ينتظر من أوسط العرب نسباً ولى علم بالنسب وقومك أوسط العرب نسباً ، قلت : يا عم وما يقول النبى ؟ قال : يقول ما قيل له الا أنه لا ظلم ولا تظالم . فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم آمنت به وصدقته .

ثم سمنه ابن الأثير فى سوق هذا الخبر على لسان أبى بكر . قال : خرجت الى اليمن قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت على شيخ من الأزد عالم قد قرأ الكتب وعلم من علم الناس كثيراً ، فلما رآنى قال : أحسبك حرمياً — نسبة الى الحرم — قلت : نعم ، قال : وأحسبك قرشياً ، قلت : نعم ، قال : وأحسبك تيمياً . قلت : نعم ، قال : بقيت لى فبك واحد . فكشفت عن بطنك ، قلت : لا أفعل أو تخبرنى لم ذلك ؟ قال : أجد فى العلم الصحيح الصادق أن نبياً يبعث فى الحرم يمسونه على أمره غنى وكهل ، فأما الفنى فخواض غمرات ودفاع مضلات وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة ، وما عليك الا أن ترينى ما سألتك ، فقد تكاملت لى فيك الصفة الا ما خفى على .

قال أبو بكر : فكشفت له عن بطنى فرأى شامة سوداء فوق سرتى ، فقال : أنت هو ورب الكعبة ، فأنى متقدم اليك فى أمر فاحذره . قال أبو بكر : وما هو ؟ قال : إياك والميل عن الهدى ، وتمسك بالطريقة المثلى الوسطى ، وخف الله فيما خولك وأعطاك . قال أبو بكر : فقضيت باليمن

أربى ، ثم أبيت الشيخ الأزدي لأودعه ، فقتل : أحامل أنت عنى أباتنا من الشعر قلتها في ذلك النبي ؟ قلت : نعم . فذكر أبياتا .

قال : فقدمت مكة — وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم — فجاءني عقبة بن معيط ، وشيبة وربيعة وأبو جهل وأبو البخري وصناديد قريش ، فقلت لهم : هل نابينكم نائبة أو ظهر فمكم أمر ؟ قالوا : يا أبا بكر أعظم الخطب ، يتهم أبى طالب بزعم أنه نبي ، ولولا أنت ما انتظرنا به ، فاذ قد جئت غائت الغاية والكفاية . قال أبو بكر : فصرفتهم على أحسن مس .

وسألت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل في منزل خديجة ، ففرغت عليه الباب فخرج الى ، فقلت : يا محمد ، بعدت من منازل أهلك ونركت دين آبائك وأجدادك ؟

قال : يا أبا بكر انى رسول الله اليك والى الناس كلهم فآمن بالله ، فقلت : ما دليلك على ذلك ؟ قال : الشيخ الذى لقيت باليمن ، قلت : وكم شيخ لقيت باليمن ، قال : الشيخ الذى أمادك الأبيات . قلت : ومن خبرك بهذا يا حبيبى ؟ قال : الملك المعظم الذى يأنى الانبياء قبلى ، قلت : مد يدك نأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنت رسول الله .

قال أبو بكر : فأنصرفت وما بين لابتيتها أشد سرورا من رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامى .

وعلى صحة هذه الرواية فقد أراد أبو بكر أن يزداد يقينا برسالة انبنى صلى الله عليه وسلم ويزداد تثبيتا من صحة ما أخبره به الأزدي ، والا فقد كان واثقا من صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت فيـه كجوة ونظر وتردد الا ما كان من أبى بكر . وقال عنه مرة أخرى : لو كنت منخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا .

لقد كان سؤال أبى بكر للنبي من قبيل ما جاء في شأن ابراهيم الخليل عليه السلام قال له الله تعالى : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى .

والقصة نفسها لبس فيها ما يستغرب إذا أدركنا أن كثيرا من مفكرى العرب كانوا يتوقعون نبيا يظهر آن أوانه ، وأن علاماته كانت معروفة لكثير من الذين أوتوا معرفة الكتب السابقة وكذلك علامات من آمنوا به . وقد أخبر القرآن الكريم بذلك « محمد رسول الله » والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطاه فأزره فاستغلاظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعهد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » الفتحة ٢٩ .

جاء الإسلام :

وبدا الإسلام يسير وثيذا وبسرى فى خفة بين فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى ، وكان لأبى بكر - رضى الله عنه - دور فى إقبال بعضهم الى الإسلام نظرا لمنزلته وسداد رأيه ، فمن حق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يسر باسلامه . كان له نعم الصديق الذى يقتدى بصديقه بأعز شئ لديه ، ويعرض نفسه من دونه للأهوال والأخطار ، وقد ضحى بماله فى سبيل الإسلام واقتداء الأرقاء المسلمين الذين كان الكفار يسيئونهم سوء العذاب ، وكان ممن أسلم من الأشراف بسبب أبى بكر عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وغيرهم .

حتى إذا تكاثرت عدد المسلمين بعض الشيء اتخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - دار الأرقم بن أبي الأرقم ليجتمع فيها بأصحابه الذين أسلموا يعلمهم مبادئ دينهم ويقرئهم ما ينزل عليه من آيات الله ، على غير علانية من الكفار .

وظلت هذه الفترة حوالى ثلاث سنوات . كان هؤلاء النفر السابقون الى الاسلام يعبدون الله سرا وقد علمهم النبى - صلى الله عليه وسلم - الوضوء والصلاة . وكانت ركعتين فقط قبل أن تفرض كاملة فى ليلة الاسراء والمعراج - كانت ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشي .

وبدا أمر الاسلام يشيع في مكة بعد أن دخل فيه كثير من الناس من أشراف القوم وفقرائهم ، أحرارهم وعبيدهم ، ولم تكن قريش قد وقفت بعد موقف العداء من هذه الدعوة ، فقد حسبت محمدا — صلى الله عليه وسلم — واحدا من أولئك المتحنفين من أمثال ورقة وزيد وأمية ابن أبي الصلت .

ولم ينادِ النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه قريشا بالعداء ، ولم يعلن المسلمون عن اسلامهم بل ظلوا يمارسونه خفية ، وكانوا اذا أرادوا الصلاة تفرقوا في شعاب مكة بعيدا عن الأنظر يصلون .

اعلان الدعوة :

ونزل على النبي — صلى الله عليه وسلم — قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » الحجر ٩٤ وقوله تعالى « وأنذر عشيرتک الاقربین » الشعراء ٢١٤ ، فصعد النبي — صلى الله عليه وسلم — على الصفا ، وأخذ ينادى ، يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، فجعل الرجل ينادى اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر ، فقال عليه الصلاة والسلام : أرايتم لو اخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا .

قال : فأنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك ، الهذا جمعنا ؟

فأنزل الله في شأنه « تبت يدا أباي لهب وتب : ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وأمراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » .

وقد خص الله امرأته بالذكر لشدة عداوتها للنبي — صلى الله عليه وسلم — وكثرة ايدائها له ، كانت تحمل الحطب والشوك وتلقيه في طريقه ، وقيل : كانت تمشي بالنميمة بين الناس وتفسد العلاقة بينهم .

وجمع النبي صلى الله عليه وسلم أهله وأقاربه وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف ، وقال لهم : ان البراءة

لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لثمنون كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا ، وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا ..

ولكن أبا لهب من دون قومه جميعا أراد أن يثير القوم عليه قائلا :
خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن سلمتموه اذاً ذللتهم وان منعتموه قتلتم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .

وكان أبو طالب مثالا للنجدة والشهامة والمروءة بعكس أبى لهب الذى كان مثالا للشدة والقحة والشر .

لقد رأى أبو طالب النبى وابنه عليا يوما قبل اعلان الدعوة فى أحد شعاب مكة يصليان خفية فسألهما عما يفعلان ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا الى العباد وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه ، فقال أبو طالب : أى ابن أخى انى لا أستطيع أن أنارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص اليك بشىء تكرهه ما بقيت .

وحافظ أبو طالب على كلمته ، وظل مانعا للنبى صلى الله عليه وسلم طول حياته .

تعذيب المسلمين :

واخذ المشركون يضيقون الخناق على المسلمين ، ولا سيما بعد أن أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يعيب آلهتهم ويسفه من أحلامهم ، وتعرض المسلمون لأذى شديد لا سيما المستضعفون منهم من أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه الذين كان المشركون يذيقونهم العذاب ، فيمر بهم النبى صلى

الله عليه وسلم ولا يستطيع أن يدفع عنهم ما يلقون فيقول لهم : صبرا آل ياسر موعدكم الجنة .

ومن أمثال بلال الحبشى الذى كان يعذبه أمية بن خلف بالقائه فى حر الرمضاء عاريا ووضع أثقال الأحجار عليه ، وبضربه بالسباط ، ولا ينطق بلال الا بكلمة : أحد أحد . وظل على هذا العذاب دهرا حتى أنقذه أبو بكر وأعتقه .

ومن أمثال خباب بن الأرت الذى ذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو اليه ما يلقيه من عذاب وبلاء فيطمئنه النبى صلى الله عليه وسلم بأن الله لا يد مظهر دينه وناصر نبيه ، حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت فلا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، ويثبت به بما كان يلقي المؤمنون فى العصور الغابرة من أذى قاس فلا يفتنهم ذلك عن دينهم . فعاد خباب وقد ازداد ايمانا وقينا .

لقد ضرب المسلمون الأوائل المثل الأعلى فى النضحية والجهد والبطولة والاستشهاد مما يترك أثره الواضح فى تاريخ البشرية ، ويهيب بالمسلمين الآن أن يأخذوا من ذلك العظة والعبرة ليعودوا بأمتهم الاسلامية سريتها الاولى . .

وتمضى الأيام ويزداد بطش الكفار بالمسلمين محاولين فتنهم عن دينهم ، فمن استطاعوا أن يحبسوه حبسوه ومن استطاعوا أن يمدبوه عذبوه ، ولم يزد هؤلاء المؤمنون الا ايمانا وتسليما .

علام يعذب المسلمون ؟!

عجبا لهذا ! محمد الأعزل الضعيف الذى لا يستطيع حماية أحد يلقى حوله هؤلاء ولا ينفضون من حوله ، وهم يزيدون ولا ينقصون ، وهؤلاء الصناديد الأقوياء الأغنياء لا يستطيعون أن يحولوا بين هؤلاء المؤمنين المستضعفين وبين هذا الرسول الأمين .

أفلا يدعوا ذلك الى التفكير لو كان هؤلاء يفكرون ؟ أفلا يدعوهم ذلك الى ادراك أن هؤلاء القوم انما آمنوا بالله ورسوله ايمانا خالط قلوبهم (م ٥ — هدى السيرة)

وتغفل في أعماقهم ، والايمان اذا أشربته القلوب استهانته بالدنيا وما فيها وضحت بالروح والنفيس في سبيل ما تؤمن به ؟

انه الايمان الذى يمد الانسان بالطاقة التى تتحدى كل قوة مادية فى الدنيا وتستهيئ بكل عذاب الأرض ، فى سبيل النعيم السرمدي الخالد الذى لا يفنى .

لقد آمن هؤلاء المؤمنون بالمبادئ العليا التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله . ولقد أزال الايمان الغشاوة عن عيونهم فأبصروا بعد طول عمى ، وأزال الصدا عن قلوبهم فأدركوا حقيقة الوجود بعد أن كانوا كالسوائى لا يفقهون شيئاً .

لقد هداهم الله بايمانهم اليه ، معرفوا القوى القاهرة الذى فى يده ملكوت كل شىء وهو السميع البصير ، وأدركوا أن ما كانوا يعبدونه من دونه وهم من الاوهام ، أصنام لا تضر ولا تنفع ، أحجار صماء من الصخور انصلدة نحتوها بأيديهم ثم سجدوا لها على أنها هى التى ترزق وتحىي وتميت وتضر وتنفع . ألا ما أضلهم حينذاك وما أبعدهم الآن !

لقد دعاهم محمد رسول الله الى الايمان باليوم الآخر فأدركوا أن الانسان لم يخلق عبثاً ، بل سوف يبعث بعد موته ، فيحاسب على أفعاله ان خيراً فخير وان شراً فشر ، لقد كانوا فى ضلال حين وقفوا بادراكهم عند حدود الحياة الدنيا فحسب فكذبوا بأن هناك بعثاً وحساباً وثواباً وعقاباً ، واذن فمن الذى يكف الظالم عن ظلمه ؟ ومن الذى يجزى المحسن على احسانه ؟ ومن الذى يعاقب الفاجر على فجوره ؟ ومن الذى يثيب المنصف على انصافه ؟ ان الأيام نمر والحياة تنقضى وقد لا يرى الغافل فيها عبرة يعتبر بها ، والأصنام كذلك غافلة عما يجرى هنا وهناك بكاء لا تنطق صماء لا تسمع بلهاء لا تعقل ولا تدرك شيئاً عما يحدث هنا أو هناك فلو ظل الأمر على ذلك لا يأخذ المظلوم حقه ولا يجزى الظالم على ظلمه لكان الأمر غاية الظلم ، ولكن الايمان باليوم الآخر يحل الاشكال ويزيل حيرة الحائر ويهدى الضال ، ويعيد الثقة الى النفوس ويبعث الأمل فى القلوب ، ويحجب ظلام

اليأس عن النفوس ، فلم يخلق الله الكون باطلا ، ولم يترك الخلق هملا ، وما كان الأمر عبثا ، وصدق الحكيم الذى يقول « أفحسبتم أنها خالقناكم عبثا وأنكم اليينا لا ترجعون » المؤمنون ١١٥ ، ويقول « وما خالقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » سورة ص ٣٧ .

ولقد هداهم الى وجوب ائمة مجتمعة فاضل مبنى على العدل والمساواة والاخاء لا فرق فيه بين سيد ومسود ولا فقير وغنى ولا أبيض وأسود « كلكم لآدم وادم من تراب و المفاضلة الوحيدة بينهم على أساس التقوى والعمل الصالح « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وهداهم الى الأخلاق الفاضلة الرفيعة ، لا كذب ، لا غش ، لا فجور ، لا خداع ، لا نفاق ، لا خيانة ، لا غدر ، بل هو الصدق والعفة والنزاهة والاخلاص والأمانة وكل القيم العليسا الرفيعة ، لقد جاء النبی صلى الله عليه وسلم ليقيم بنيان الأخلاق عاليا ويقول « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » يقيمه شامخا قويا مستمدا من الايمان بالله واليوم الآخر ، وليس مستندا كما كان على عصبية كاذبة وعنجهية ممقوته وانانية بغيضة ومباهاة باطلة .

بهذا آمن المؤمنون ، وتحملوا في سبيل هذا الايمان ما تحملوا من عذاب .

ولم يدخر المعاندون وسعا في ايذائهم ، ولم يقفوا بهذا الايذاء عند حد ، ونال النبی صلى الله عليه وسلم منه نصيب وافر .

آذوه بالقول وآذوه بالفعل ، قالوا عنه : ساحر ، وقالوا عنه : كاهن ، وقالوا عنه : شاعر ، وقالوا عنه : مجنون . وسخروا منه ومن المؤمنين به ، وتحذوه بأن يأتي بآيات تثبت صدقه ، كل ذلك والقرآن ينزل هاكيا أحوالهم ، فيزداد المؤمنون تثبنا ويزداد الكفار كفرا وعنادا .

الله يعصم نبيه :

ولقد بلغ بهم الأمر أن تأمروا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم ليستربحوا فيما زعموا ، فقد قال أبو جهل يوما ، يا معشر قريش ، ان محمدا تدأنى بما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم ، انى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينظره ، وغدا عليه الصلاة والسلام كما كان يغدو الى صلاته ، وقريش فى أنديتهم ينظرون ماذا أبو جهل فاعل . فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما منتفعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده ، فقام اليه رجال من قريش ، فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : ضمت اليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحمل من الابل والله ما رايت مثله قط هم بى أن يأكلنى ، فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذاك جبريل ولو دنا لأخذه .

لقد دفع الله سبحانه وتعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعصمه من القتل حتى يؤدى رسالته التى كلفه اياها ، وقد هم أحد المشركين مرة اخرى بعد ذلك بقتله ، فاختلط سيفه وجرده على النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم تحت شجره ، وقال له : من يعصمك منى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الله ، فوقع السيف من يده ، وناشد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه فعفا عنه .

الله يعصمه من القتل ويعصمه من الزلل ويعصمه مما يتنافى مع طبيعته كرسول ، ولكن الايذاء الذى يتعرض له الرسول لا يتنافى مع طبيعة الرسالة بل، ان من خصائص الرسل أن يؤذوا فى سبيل الله ، لقد أذى نوح وأذى ابراهيم وأذى لوط وصالح ، وأذى شعيب وموسى وعيسى ، وأذى كل نبي رسول يبلغ دعوة ربه ، لقد أخبر القرآن الكريم بما تعرض له كل أولئك من شر وأذى ، والا فكيف تصح القدوة ؟ كيف يصبر المجاهدون على

الشدائد ؟ وكيف يجتازون الصماب ويتخطون العقبات ان لم تكن لهم في رسلهم أسوة حسنة ؟ الا أن رسولنا صلى الله عليه وسلم تعرض لأقسى أنواع الأذى ، كأن الأذى الذى تعرض له الأنبياء جميعا اجتمع له وحده ، وقد نزل القرآن الكريم يعزيه ويسرى عنه في مواضع كثيرة . يقول له « **فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير** » آل عمران ١٨٤ ويقول له « **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبيا المرسلين** » الأنعام ٣٤ . ويقول له ليسرى عن أصحابه وثبت أقدامهم « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب** » البقرة ٢١٤ ويقول له « **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** » الأحقاف ٣٥ ويقول له « **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم** » القلم ٨ ويقول له « **واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا** » الطور ٤٨ .

كل هذه الآيات وكثير غيرها نزلت لتتقوى من عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، ولينأكد المؤمنون من نصر الله الذى وعدهم به والله لا يخلف الميعاد ، لقد وعد الله بنصر هذا الدين وظهوره فلا بد أن يظهر « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** » التوبة ٣٣ ، بل لقد وعد هؤلاء المستضعفين أن يظهرهم على عدوهم ويمكنهم فى الأرض فقال « **وعد الله الذين آمنوا منكم وهملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولا يمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » النور ٥٥ .

ويصمد النبى صلى الله عليه وسلم للأذى فلا يستطيع الكفار ان ينالوا منه شيئا ، حتى حين يشتد جهلهم وتطفح سخيمة شرارهم فيفعلون معه ما يدل على مدى الحقد الذى ننزى به نفوسهم والحقد الذى يكمن فى قلوبهم . حكى ابن مسعود فيما يرويه البخارى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وهو يصلى ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم

انى مرث جزور بنى فلان فيلقية على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبى معيط ، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبی صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجدا حتى جاءت فاطمة بننه فأخذت القدر ورمته ، فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال : اللهم عليك بالملأ من قريش وسمى اقواما ، قال ابن مسعود : فرأيتهم قتلوا يوم بدر .

ولقد دعا النبی صلى الله عليه وسلم على هؤلاء لأن الله قد أعلمه بأنه لا فائدة ترجى منهم وأن الله قد أعمى قلوبهم فلا رجاء فى إيمانهم ، والا فقد كانت دعوته المفضلة دائما : اللهم اهد قومی فانهم لا يعلمون . كان صلى الله عليه وسلم فى منتهى الرحمة والعطف فى الوقت الذى بلغ فيه أعداؤه غاية السفه والقحة والجهل ، ولكن الله جل وعلا أراد أن يرسله رحمة للعالمين .

أذنه لأصحابه بالهجرة الى الحبشة :

وجن جنون قريش فزادوا فى تنكيلهم بالمسلمين وتعذيبهم لهم ، وكره النبی صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يستمر بهم هذا الأذى الشديد وهو لا يستطيع أن يدفع عنهم . وضمن بهم على الهلاك وهم طلائع الدعوة وبراعمها الناشئة فأذن لهم فى الهجرة الى الحبشة ، لهمم يجدون فى ظل النجاشى الأمن والحرية والسلام ، وحالفهم الحظ فتمكنوا من الوصول الى الحبشة سالمين ، وكان عدد المهاجرين فى هذه المرة عشرة رجال وخمس نسوة فيهم عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووجد هؤلاء المهاجرون فى ظل النجاشى ما توقعه النبی صلى الله عليه وسلم لهم من الأمن والكرامة وحسن الضيافة ، ولكن المسلمين لم يكونوا قد تعودوا على حياة الغربة ، ولم يكونوا جماعة كثيرة تستطيع أن تتأقلم مع الجو الجديد ، وسرعان ما شنعوا بالحنين الشديد لوطنهم ففكروا فى العودة . ومن يدري ؟ فلعل نفوسهم لم تسترح الى بقائهم فى أمن وسلام

بينما النبي صلى الله عليه وسلم واخوانهم الباقون بمكة يقاسسون ألوان العذاب وصنوف الأذى ، فعلى الرغم من كرم الضيافة الذي وجدوه في جوار النجاشي فقد قرروا العودة الى مكة ولسان حالهم يقول : العذاب في جوار النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من النعيم بعيدا عنه .. وعادوا ادراجهم الى مكة ..

لقد طلب النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه الهجرة بعد أن أيقن وتأكد من أن قريشا ما زادت الا عنادا وأصرارا على الضلال ، ولعل من أسباب هذا الامعان في الكفر اسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب اللذين اشدت بهما ساعد المسلمين فجرعوا على أن يجاهروا باسلامهم وينحدوا بعلاتينهم ضلال الكفار دون خوف أو وجل . ولعل من أسباب ذلك أيضا فشل المفاوضات التي قام بها فريق من زعماء قريش محاولين اثناء النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته . كل ذلك حرك سخائم الكفر فارند فعلها على المسلمين تعذيبا وتنكيلا .

ولم يستطع المسلمون المستضعفون البقاء في مكة آمنين وكثير منهم سيم العذاب من صناديد قريش ، فاضطروا كارهين الى ترك وطنهم وخرجوا مهاجرين الى الحبشة .

مفاوضات :

وكان المشركون قد لجأوا الى هذه المفاوضات المشمار اليها لأنهم وجدوا أن الدعوة لم تزدها المقاومة الا انتشارا ، ولم يزدد المسلمون الا تمسكا بدينهم واستقنالا في سبيله على الرغم مما بلقونه من اذى . وحين اجتمع زعماء قريش للبشاور في هذا الأمر قال عتبة بن ربيعة وكان سييدا مطاعا في قومه : يا معشر قريش ألا أقوم لحمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا عليه يقبل بعضها فنعطيه اياها ونكفه عنا ؟ فقالوا له : قم فكلمه يا أبا الوليد .

فذهب عتبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده في المسجد يصلى ، ثم قال له : يا بن أخى ، أنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، ولكنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم

وعبت دينهم وآلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لملك بقل منها بعضها ، فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع .

فقال : يا ابن أخى ، ان كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد ثرماً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رؤياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم — هم تنزيل من الرحمن الرحيم — كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون — بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون — وقالوا فلربما فى آتية مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل أنفسنا على أن نلحقهم — قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم الله واحد فاستفتيوا الله وأستفتوه وويل للمشركين — الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . ومضى فى تلاوة هذه الآيات من أول سورة فصلت ، حتى وصل الى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود — إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم لا تعجبوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون » .

وأحس عتبة وقع الصواعق على أذنيه فأسرع ووضع يده على فم النبى صلى الله عليه وسلم حتى لا يعضى فى تلاوة هذا الكلام ، وناشدته الله والرحم أن يكف عن القراءة ...

وعاد عتبة الى قومه يرجف قلبه وترتعد فرائصه وقد انتقع لونه ، وحين سألوه قال : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط والله ما هو بسحر ولا بالكهانة ولا بالسحر ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكون لكلامه الذى سمعت نبأ ، فان تصبه العرب كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فعزه عزكم ...

ولكن ماذا يجدى هذا الكلام مع قوم أراد الله لهم الذل والهوان وركبت نفوسهم على العناد والطغيان ؟ قالوا : لقد سحره محمد . فقال : هذا رأى .

ومضى قوم آخرون الى أبى طالب يقولون له : ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فماذا أن تكفه عنا واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافة فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولوا رفيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه .

وعادوا اليه مرة أخرى ، فقال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ، ان قومك قد جاءونى فقالوا لى : كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فظن النبي صلى الله عليه وسلم أن عمه قد بدا له أن يخله ويسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته فقال : يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه عمه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخى ، فأقبل عليه الصلاة والسلام ، فقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

ولكن الشيء العجيب في المفاوضات والذي يدل على أن الرأي وضعف العقل فعلا ما قام به القرشيون من عرضهم على أبى طالب أن يأخذ عمارة بن الوليد ، وكان فتى نهذا قويا جميلا ، ويسلمهم محمدا صلى الله عليه وسلم فيقتلونه وانما هو رجل برجل ، ونارت حماسة أبى طالب ونفوته فيرد عليهم قحتهم وسفهم في عزم قائلا لهم : لبئس ما تسوموننى ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا ما لا يكون أبدا .

ويتدخل المطعم بن عدى فيقول : يا أبا طالب لقد أنصفك قومك فما أراك تقبل منهم شيئا ، فقال أبو طالب : والله ما أنصفونى ولكلك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك .

المشركون يتحدون :

وحين فشلت طرق المفاوضات سلك المشركون طريق التحدى آمليين تعجيزه فيكف عن هذه الدعوة ، لقد طلبوا منه أن يشق لهم القمر ، فشق

الله القمر نصفين ، وعانوا هذه الآفة ، ولكنهم صدوا عنها كبرا وعنادا وقالوا : لقد سحركم ابن أبى كبشة ، وأبو كبشة هو زوج حليلة السعدية أنى أرضعته ، وكانوا يكونونه بهذا اسنهزاء به وسخرية منه ، وحكى القرآن الكريم هذه المعجزة فى أول سورة القمر وصور ما قالوا اجابة عليها : « اقتربت الساعة وانشق القمر — وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

وعادوا يطلبون منه آيات أخرى حكى بعضها القرآن الكريم ومنها ما جاء فى سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا — أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا — أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله الملائكة قبيلا — أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » . آيات ٩٠ : ٩٣ .

كما عرضت سورة الأنعام ألوانا من هذا التحدى وردت عليه : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين — فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم انباء ما كانوا به يستهزئون — ألم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وانسانا بعدهم قرنا آخرين — ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين — وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون — ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » الآيات ٤ : ٩ .

ولقد علم الله أن تحديهم هذا ليس مبعثه الرغبة فى الاسلام ولكنه لون من ألوان التعنت والعناد والاصرار على الباطل والتمادى فى الشر والاستمرار فى الطغيان حتى ولو أقسموا على غير ذلك ، كما حكى عنهم القرآن الكريم : « واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون — ونقلب أفئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون — ولو أننا نزلنا اليهم

الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا
الا ان يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون» الانعام ١٠٩ : ١١١ .

وحين لم يأت هذا التحدى بنتيجته المطلوبة ، ولما لم تلن قناة محمد
بهذه السخرية التى لقيها من قومه ، ولما لم يزد أصحابه تهديدهم
ووعيدهم وتعذيبهم الا ايمانا ونسليما طلب النبى صلى الله عليه وسلم
من أصحابه أن يهاجروا الى الحبشة فائلا لهم : ففرقوا فى الأرض فان الله
سيجمكم .

وهكذا كان أول وفد هاجر الى الحبشة كما قدمت ، ولكنه عاد بعد
قليل .

ولقد كانت هذه الهجرة الى الحبشة اعلانا عن الاسلام فى غير دياره
الأولى ، وهى أول رحلة للاسلام فى خارج الجزيرة العربية ، ولو أن أفرادها
كانوا قليلى العدد ومدتهم لم تتجاوز الأشهر الا أنها أرعت الأذهان
الى الرسالة الجديدة وأذاعت خبر الدعوة الاسلامية فى خارج حدود الجزيرة
العربية وكانت أول احنكاك عملى بين عقيدة المسلمين وعقيدة النصارى ،
فقد كان أهل الحبشة يعتقدون المسيحية .

اسلام حمزة وعمر :

سبق اسلام حمزة هجره الحبشة بقليل . أما اسلام عمر فقد كان
فى أثنائها . وسبب اسلام حمزة فيما يرويه ابن هشام أن أبا جهل مر برسول
الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فأذاه وشتمه واحتمل النبى صلى الله
عليه وسلم فلم يرد عليه ، وسمعت جارية لعبد الله بن جدعان ورأت
ما حدث ، وحين عاد حمزة من قنص له متوشحا قوسه — وكان أعز فتى
فى قريش وأشد شكيمة — أخبرته الجارية بما حدث ، فغضب حمزة غضبا
شديدا وولى وجهه شطر أبى جهل فى المسجد بين القوم فوقف على رأسه ،
ورفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتثتم محمدا
وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على أن استطمت ، فهم رجال
من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل على حمزة — فقال أبو جهل : دعوا
أبا عماره فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا . . وتم لحمزة اسلامه .

وأمسكت قريش عن ابذاء الرسول بعض الشيء والى حين .
أما عمر فقد أسلم حين سمع القرآن وقراه في بيت أخته فاطمة ،
وكان قبل ذلك قد عزم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وتوجه بعزمه
الى ذلك ، ولكنه غير طريقه الى بيت أخته حين أخبره في الطريق نعيم
ابن عبد الله بإسلامها مع زوجها سعيد بن زيد وهو ابن عمها . ودق الباب
بعنف ، وحين فنج له سعيد الباب قال عمر : ما هذه الهيمنة التي سمعتها
آنفا ، يشبر الى صوت القراءة التي كان يقرئها اياها الخباب بن الارت .
فقال سعيد : ما عدا حديثا كنا نتحدثه ، فأغلظ عمر القول وحاول
أن يبطل به ، فدافعت عنه زوجته فاطمة فشحجها عمر حتى أسال الدم
على وجهها . فلما رأى الدم يسيل على وجه أخته ظهرت الرقة الدفينة
في قلبه والآن في القول ، ولح الصحيفة التي كانوا يقرعون فيها فرفضت
أن تعطيه اياها حتى يتطهر ، وعلمه سعيد كيف يتطهر ..

وأخذ عمر يقرأ في الصحيفة من أول سورة طه فخشع قلبه ، ورغب
في الاسلام وطلب من يده على بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي يجتمع
فيه مع أصحابه ، فظهر خباب من مخبئه الذي كان قد اختبأ فيه حين سمع
صوت عمر وهو يطرق الباب . وقال خباب فرحا : لقد استجاب الله دعاء
النبي صلى الله عليه وسلم حيث دعا : اللهم أعز الاسلام بأحب العمرين البك
عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام (أبو جهل) .

واصطحب خباب عمر الى دار الأرقم بن أبي الأرقم التي يلتقى فيها
النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، وحين طرق عمر الباب ، وعرفه
المسلمون توجسوا منه خيفة ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل عليه
وجذبه من رداءه وقال له : أما آن لك أن تسلم حتى ينزل الله فيك قارعة
كقارعة الوليد ؟ فبادر عمر باسلامه ، وهلل المسلمون وكبروا ، وتهلل وجه
النبي صلى الله عليه وسلم وأشرق ..

وباسلام حمزة وعمر عز المسلمون بعض الشيء ولكن ذلك لم يزد
قريشا الا جموحا في الشر واستمرارا في البغي ، حتى فكرت في مقاطعة
النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه بل ومقاطعة بنى عبد المطلب الذين
يناصرونه مقاطعة تامة .

الصحيفة الظالمية :

حين لم تلن قناة النبي صلى الله عليه وسلم لمعارضة قريش له ،
وحين استنفذ المشركون كافة جهودهم في حمل المسلمين على ترك دينهم ،
وحين رأوا أن ساعد المسلمين قد اشدت باسلام حمزة وعمر وبتزايد عدد
المسلمين يوما بعد يوم لجأوا الى فرض حصار شديد حولهم ، وقرروا
· ألا يبيعوا لبنى عبد المطلب شيئا أو يتاعوا منهم والا ينكحوا اليهم
أو ينكحوهم ، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة .

وانحاز بنو هاشم جميعا وبنو المطلب الى أبى طالب والمسلمين وخرج
أبو لهب على اجماع ذوى قرياه فانحاز الى صفوف المشركين وتزعم حركة
المقاطعة ، فكان اذا جاء التجار جعل يحرضهم على أن يغلوا على أهل
الشعب الذى انحاز فيه بنو عبد المطلب والمسلمون حتى يبيئسهم من الشراء ،
نم يعود هو الى التجار فيشتري منهم بما أرادوا .

الهجرة الثانية :

وقد أحس النبي صلى الله عليه وسلم بما يوشك المسلمون أن يتعرضوا
له من أذى شديد وضيق وألم بسبب المقاطعة فنصحهم بالهجرة مرة أخرى
الى الحبشة ، فخرج في هذه المرة عدد أكبر ممن خرج في المرة الأولى .
فقد بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلا .

واحسن النجاشي جوار ضيوفه كما أحسن في المرة الأولى . ولكن
المشركين حاولوا أن يردوا هؤلاء المهاجرين فأرسلوا خلفهم وفدا مثقلا
بالهدايا للنجاشي وحاشيته وبطارقته .

ووصل عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص زعيما الوفد الى بلاط
النجاشي ووزعا الهدايا المستطرفة على الحاشية والبطارقة وكلماهم في شأن
المسلمين المهاجرين حتى أوغرا صدورهم عليهم .

نم تقدا الى النجاشي بهديته — وكان الذى يعجب الأحباش
حين يذهبون الى مكة الأدم ، فجمعت قريش منه في هديتها الكثير — ثم قال له
ما قالاه لبطارقته .

قالا له : انه قد ضوى — لجأ — الى بلد الملك منا غلمان سفهاء
فارقوا دين آبائهم ولم يدخلوا في دين الملك ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه
نحن ولا انتم ، وقد بعثنا اشراف قومهم الى الملك لنردهم اليهم فان قومهم
أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوه عليهم .

وزكى البطارقة الذين أغرتهم الهدايا كلام هذين الرسولين ، فقالوا
للملك : صدقنا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوه عليهم
فأسلمهم اليهما .

ولكن النجاشي الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم في حقه :
انه لا يظلم عنده أحد غضب غضبا شديدا ، ثم قال : لاها الله ، اذن لا أسلمهم
انيهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سواي
حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فان كانوا كما يقولان
أسلمتهم اليهما ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنيت جوارهم
ما جاوروني .

حوار في بلاط النجاشي :

وأرسل النجاشي الى المسلمين فحضروا وهم عاقدون أمرهم على
أن يصدقوا الخبر وما أمرهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم كائنا ما يكون ،
ودعا أساقفته فجاءوا وقد نشروا مصاحفهم حوله .

قال النجاشي للمسلمين : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم
ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ .

فرد عليه جعفر بن أبي طالب قائلا : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية
نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأثى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار
ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا
نعرف نسبه وصدقته وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع
ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث
وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ،
ونهبنا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا
أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . . فمصدنا علينا قومنا
فعدبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان . . فلما قهرونا وظلمونا
وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على
من سواك ورجونا ألا نظلم عندك .

قال النجاشي : هل معك مما جاء به شيء عن الله ؟ فقرأ عليه جعفر
من أول سورة مريم آيات . فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته
حتى اخضلوا مصاحفهم ، ثم قال النجاشي : ان هذا والذي جاء به عيسى
ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت الى الرسولين وقال لهما : انطلقا
فلا والله لا أسلمهم السكما ولا يكادون .

فلما خرج عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وقد خذلا قال عمرو :
والله لأتينه غدا عنهم بما استأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله — وكان
أنقى من عمرو في هؤلاء المهاجرين — : لا تفعل فان لهم أرحاما وان كانوا
قد خالفونا .

قال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا عليه من الغد فقال : أيها الملك أنهم يقولون في عيسى بن مريم
قولا عظيما ، فأرسل اليهم فسألهم عما يقولون فيه . فأرسل اليهم النجاشي
فسألهم عما يقولون في شأن عيسى ، فرد عليه جعفر بن أبي طالب قائلا :
نقول فيه ما قال الله تعالى فيسه : عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها
الى مريم العذراء البتول . فضرب النجاشي بيده الى الأرض فأخذ منها عودا
ثم قال : ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود .

فتناخرت البطارقة من حوله فقال : وان نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم
شعبيوم بأرضي أي آمنون ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دبرا من ذهب
وأني أذيت رجلا منكم — والدبر بلفظة الحبشة الجبيل — ثم التفت الى
من حوله وقال : ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي فيها ، فوالله ما أخذ الله
منى الرشوة حين رد على ملكي حتى أخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في
فأطيعهم فيهم ، قال ابن اسحاق في روايته تلك عن أم سلمة رضي الله عنها :
فخرجنا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاء به ، وكان هذا الملك قد غصب
ملكه ثم رد اليه .

وهكذا انتصر الله لهؤلاء المهاجرين على يد الملك العادل الذى ضرب
اروع الأمثلة فى حفظ الجوار وانصاف المظلوم ، وان الهدايا المستطرفة
لم تطرف عينه ولم تغلقها عن معرفة الحق والتثبت منه ، وأن فى القصة
لدلالات تشير الى أن أهم ما يفسد الملوك هم الحاشية التى تحيط بهم ،
فقد لجأ الرسولان القرشيان الى تلك الحاشية قبل أن يلجئا الى الملك
حتى يستظهر بهما عليه ، ولكن الحاكم الفطن لا يخفى عليه وجه الحق
مهما زيفه المغرضون ومهما زين الباطل المبطلون .

ولقد عرفنا من القصة أن هناك من النصارى من كانت له عقيدة
حسنة فى المسيح ، فلم ينساقوا وراء التحريف الذى جعل المسيح ابن الله ،
أو وراء التحريف الذى قال بأن الله ثالث ثلاثة ، وأن الذى على عقيدة
صحيحة فى النصرانية لا يتردد فى الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم
حينما نبلفه ، لأن الحق لا يتعدد ولأن دين الله واحد وان تعدد الرسل .

وانظر الى عقيدة الاسلام حينما نسبحكم فى القلب ، انها تمده بقوة
روحية لا تخشى الصعاب ولا تفرق أمام النوائب ، ولقد حافظ هؤلاء
المهاجرون على عقيدتهم ، بل كان غرارهم من أوطانهم ولجوؤهم الى
الحبشة من أجل المحافظة عليها ، واذن فالعقيدة أقوى من الوطن واحب
للمؤمن من الأهل والولد وأغلى من النفس والنفيس ، والا ما فارق هؤلاء
أوطانهم التى فيها متاعهم ومتقلبهم ومثواهم الى وطن ناء غريب عنهم فى
لغته وعقيدته وعاداته وتقاليده ، ما حملهم على ذلك الا المحافظة على دينهم
انذى اعتنقوه طوعا ومن غير اكراه ، وفى سبيله تحملوا كل أنواع المشقات
والايذاء ، ان فى هؤلاء المهاجرين ضعافا وشيوخا ونساء وأطفالا ، ومع ذلك
لم يعق هؤلاء شئ عن الانطلاق فى الآفاق بحثا عن مكان آمن يمارسون فيه
شعائرهم فى حرية وهدوء لا يطلبون من متاع الدنيا شيئا سوى ما ييسد
الرمق ويستتر الجسد ويروى الظمأ ، وفيهم من خلف من ورائه ثروة طائلة
لم يحسب لها فى سبيل الهجرة أى حساب .

ألا ما أروع الايمان وما أعظمه حين يتربع على عرش القلوب ، ان
صاحبه يحسب أنه بلغ قمة السعادة وملك أعظم ثروة فى الوجود ، انها
ثروة يهون بجانبها ملك المالكيين وسلطان المنسلطين وكنوز الدنيا جمعها ،

انها لذة يحق لأحد الصالحين أن يقول فيها : نحن في لذة لو أدركها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف . وانه ليحق له أن يقول ذلك ، ليس الايمان هو الذى يعرفه على رب الأرباب ، ويوصله الى حضرة الله الذى في يده ملكوت كل شيء ، فكيف لا يتلذذ بذلك ويستعذب في سبيله الموت ؟ ولو نظرنا الى عالم الواقع أدركنا أن رب التاج قد يتخلى عن تاجه في سبيل امرأة نرابية يحبها ، وان التاجر قد يقتحم المخاطر في سبيل سلعة يروجها أو تجارة يكسب منها ، وتلك لذات حسية فانية فكيف تكون اذن لذة محبة الله الباقى ؟ وكيف تكون لذة الربح من المتاجرة معه ؟ انه لشيء يعز على العبارة أن تبلغ مداه ويستعصى على العقل أن يدرك فحواه ؟.

نقض الصحيفة :

مر بنا كيف تعاقبت قريش على مثاطعة بنى هاشم وبنى المطلب وقد كتبوا بذلك صحيفة أودعوها جوف الكعبة . لقد استمرت هذه المقاطعة زهاء ثلاث سنوات نال فيها المسلمين ضر شديد ومسهم أذى بالغ .

ولم يقتصر هذا الجهد على من أسلم بل امتد الى كل من أيد النبی صلى الله عليه وسلم من قومه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب ولدى عبد مناف ، ولم يخرج على هذا الاجماع — كما قدمت — سوى أبى لهب الذى قاسى منه المسلمون مقاساة عنيفة كما قاسوا من غيره من المشركين كذلك .

لقد بلغ الأمر بالمحصورين في الشعب الذى أقاموا فيه بعد خروجهم من مكة أن اكلوا ورق الشجر ولم يجدهم شيئا وهزل الناس وشجبت وجوههم وتقرحت أشداقهم واعترتهم الأمراض ولم ينقطع بكاء الأطفال ، وكان القرشيون في منتهى القسوة حين فعلوا ذلك بأهلهم وذوى قرباهم ، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على تلك الطبائع الجافية والقلوب القاسية ، ولو أراد الله بهم خيرا لرزقهم مسا من الرحمة وطيفا من الرقة التى تحيا عليها القلوب ، وانه ليدل على غاية اللؤم الذى يحيل الأئدة الى جلامد لا تشعر بعواطف الخير والحنان ولكنها تتغذى على عقد الشر والايذاء ، وقديما أوصت أعرابية ابنها فقالت له : واذا هزرت فاهرز كريما يلين لهزتك ، ولا تهزز اللثيم ثانه صخرة لا ينفجر ماؤها .

(م ٦ — هدى السيرة) .

أجل فكيف يسيغ الإنسان لنفسه أن يهنا بطعام وشراب ومن حوله أناس يجوعون وأطفال يتضاغون جوعا ويتساقطون من الهزال تساقط أوراق الشجر ، فما بالك إذا كان هؤلاء الناس من ذوى قرباه ؟ أنه لا يسيغ لنفسه ذلك إلا إذا كان صخرة لا ينفجر ماؤها كما تقول الأعرابية .

ولكن الذى يحمد للمسلمين حقا ومن معهم صبرهم على هذه الحال قرابة ثلاثة أعوام ، لم يصبهم الضرر ولم يراودهم اليأس ، بل كان يحذوهم الأمل في رحمة الله ويحرسهم الإيمان بنصر الله .

وفي حلقة الظلام ينفجر النور ، ويشاء الله أن يفتت في عضد المشركين من أنفسهم ويفرق جماعتهم من خلالهم ، فيبعث في قلوب بعضهم بصيصا من نور فيوقظهم على مدى ما تورطوا فيه من شر وما تردوا فيه من ضعة .

كان هشام بن عمرو بن ربيعة يحس في قرارة نفسه بهذا الظلم الذى ارتكس فيه قومه فيحاول أن يخفف حدته ببعض الأفعال الفردية ، فيأتى بالبعر — وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا — قد أوقره طعاما أو بزا أو برا حتى إذا أقبل به على فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ، فيأخذ هؤلاء المحاصرون فيفرجون به بعض ضوائقهم .

وهو عمل مشكور يدل على أريحية ومروءة ، ولكنه أراد أن يخطو خطوة أكبر في سبيل فك هذا الحصار الشديد ، فمشى الى زهير بن أمية ابن المغيرة المخزومي ، فقال له : يا زهير ، أوقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينحكون ولا ينكح اليهم ؟ أما انى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم ابن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبدا .

قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقيمت في نقضها حتى أنقضها ، قال : قد وجدت رجلا . قال : فمن هو ؟ قال : أنا ، قال له زهير : ابغنا رجلا ثالثا .

فذهب الى المطعم بن عسدى فدعاه الى مثل ما دعا اليه زهير ، فقال له : وما أصنع وانما أنا رجل واحد ؟ قال هشام : لقد وجدت ثانيا .

قال : فمن هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغنا ثلاثا ، قال : قد فعلت ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال له : ابغنا رابعا .

فمضى الى البخترى بن هشام فعرض عليه الأمر ، فقال له : هل من يعين على ذلك ؟ قال له : نعم ، أنا وزهير والمطعم ، فقال له : ابغنا خامسا .

فذهب الى زمعة بن الأسود وعرض عليه الأمر ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى اليه من أحد ؟ قال : نعم ، وسمى له القوم .

فاتعدوا خطم الحجون (١) ليلا بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك وتوافقوا وتعاهدوا على نقض الصحيفة من الغد وأن زهيرا أول من يتكلم .

وحين أصبحوا وغدوا الى أندبتهم أقبل زهير على الناس فقال : يا أهل مكة ، أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة .

قال أبو جهل — وكان فى ناحية من المسجد — : كذبت والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

قال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

قال المطعم بن عدى : صدقتهما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله

منها ومما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضى فيه بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان ، كل ذلك وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد لا يتكلم . فقام المطعم ابن عدى الى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها الا كلمتى : باسمك اللهم .

ويروى ابن هشام أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر عمه ابا طالب أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة الا باسمك اللهم ، فوجد الأمر كما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان اخبار النبى صلى الله عليه وسلم كافيا ليرد القوم الى صوابهم ويكفوا عن عدوانهم ، ولكن ذلك لم يزد هم الا اشرا وتماديا فى الظلم .

(١) خطم الشيء مقدمته ، والحجون : موضع بأعلى مكة .

ولقد عاقب الله كاتب هذه الصحيفة الظالمة ، وهو منصور بن عكرمة
بأن شلت يده ، وقيل ان كاتبها غيره .

وفد من النصارى :

ولقد أراد الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يحتصم بالأمل والتفاؤل ،
فكان يرسل له بين الحين ما يزيده أمنا واطمئنانا ، ففى خلال هذا الظلام
الحالك ، أقبل عليه من الحبشة وفد من النصارى قرابة عشرين رجلا ،
فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا اليه وكلموه وسألوه — والقرشيون فى أنديتهم
حول الكعبة ينظرون — فلما فرغوا من مسألة النبی صلى الله عليه وسلم
عما أرادوا دعاهم الى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن
فاضت عيونهم بالدمع ، ثم استجابوا لله ورسوله وآمنوا وصدقوا ، وعرفوا
أن ما أخبرت به كتبهم عن النبی العربی المنظر حق وصدق ، ولكن هذا
أنوفد لم يسلم من سخرية قريش وأذاهم ، فقد قالوا لهم : ما رأينا ركبا
أحق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم . فقال الوفد :
سلام عليكم لا نجاهلكم لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه ، وسجل القرآن
الكریم قصة هذا الوفد واسلامه فى قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب
من قبله هم به يؤمنون — وإذا ينأى عنهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا
انا كنا من قبله مستكبرين — أولئك يؤمنون أجروهم مرتين بما صبروا ويُدْرِكُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ — وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه
وقالوا انا أعمالنا وأعمالكم مسالمة عليكم لا نبتغى الجاهلين »
القصص ٥٢ — ٥٥ .

يصدون الناس عن لقاء محمد :

ان قريشا أعمتها الجاهلية حتى لقد صدتها عن كل عرف وتقليد
فهى لا تعرف للضيف حقا أقله ألا تسمعه ما يكره ، ولكن أمر الدين الجديد
ما زال يخيفها ويفزعها حتى جعلها لا تفرق بين الصواب والخطأ .

ولقد أبى عليها تعصبها الا أن تحاول أن تحصم آذان الناس جميعا
فلا يستمعون الى آية من القرآن ، وأن تعميهم جهيفا فلا يرون محمدا
أو أحدا من صحبه — يحدث ابن اسحاق قائلًا : وكان رسول الله صلى الله

عليه وسلم على ما يرى من قومه يبذل لهم النصيحة ويدعوهم الى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرون منه الناس ومن قدم عليهم من العرب ، حدث الطفيل بن عمرو الدوسي قائلًا : انه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى اليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبياً ، فقالوا له : يا طفيل انك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشئت أمرنا ، وانما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وانا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً .

قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشمت فى أدنى حين غددوت الى المسجد كرسفنا — قطنا — فرقا من أن يبلغنى شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعنه .

قال : فعدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم بصلّى عند الكعبة ، فقممت قريبا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، ففلت فى نفسى : وأكل أمى ، والله انى لرب لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من التبييح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان الذى باتى به حسنا قبلته وان كان قبيها تركته ؟

قال : فمكنت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته فأتبعته حتى اذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، ان قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف ملا أسبح قولك ، ثم أبى الله الا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولاً حسناً ما مرض علي أمرك .

قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ا
القرآن ، قال : يا سميع ، لا تقل احسن منه ولا اعدل منه ، قال :
فأسلمت ونسخت منه الله ، قلت : يا نبي الله انى امرؤ مطاع فى قومه
وانا رابع الذم وداعون الى الاسلام نارع الله ان يجعل لى آية تكون لى
عونا عليهم فيما اتوهم اليها ، قال : للزم احصل له آية .

قال : فخرجت الى قومي حتى اذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر وقع نور بين عينى مثل المصباح ، فقلت : اللهم فى غير وجهى ، انى أخشى أن يظنوا أنها متلة وقعت فى وجهى لفراق دينهم ، قال : فتحول فوقع فى رأس سوطى . فجعل الحاضر — القبيلة النازلة على الماء — يثراعون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق وأنا أهبط اليهم من الثنية — ما انفرج بين الجبلين — حتى جئتهم فأصبحت فيهم .

ويمضى الطفيل فى سرد قصته التى يرويها ابن اسحاق ، حتى يقول : ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أسلم معى من قومي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، حتى نزلت بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، وأسهم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين .

وكانت دوس قد أبطأت فى اسلامها على الطفيل فطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم ، ولكن الرسول الرحمة دعا لهم قائلا : اللهم اهد دوسا وأجاب الله دعاه .

هذه الرحمة الشاملة التى أرسلها الله للناس لتنقذهم من الظلام المحيط بهم وتأخذ بيدهم الى النور الذى جاء به « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين — يهتدى به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور » المائدة ١٥ ، ١٦ .

ياقريش وفضاظتها وجهالتها ، انها لا تريد أن تأخذ حظها من الضلال وحدها ، لكنها تريد أن تشرك الناس جميعا فيه . وهى تحاول أن تصد الناس عن الهدى ولكن الله يأبى ذلك ، فالهداية والضلال بيد الله ، وهى بقدرتها ومكرها وكيدها كله لا تستطيع أن تضل من أراد الله هدايته ، كما أنه ليس فى مقدور أحد — ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يهدى مردا أراد الله له الضلالة ، وصدق الله جل وعلا اذ يقول : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » الانعام ١٢٥ .

عام الحزن :

ويشاء الله جلت قدرته أن يعرض حبيبته وصفية لامتحان عسير من لون آخر . . كان قد مضى على البعثة نحو من عشر سنين ، لم تكل فيها عزيمة النبي صلى الله عليه وسلم عن الدعوة الى ربه وتبليغ رسالته ، وقد وجد من حماية عمه ابي طالب الزعيم الموقر في قريش ، ومن زوجته الشريفة المطهرة السيدة خديجة رضى الله عنها كل عون مادي وأدبي .

كانت قريش على الرغم من كراهيتها لدعوة محمد لا تستطيع أن تنال منه مأربها احتراماً لأبي طالب ، وفي هذا العام العاشر ماتت الزوجة الوفية المواسية لزوجها بكل ما تملك من جهد وطاقة وبعدها بقليل مات عمه أبو طالب الذي كان بالنسبة له عضداً وعوناً .

لم تستطع قريش أن تنال من النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى الذي تريد إلا بعد وفاته عمه ابي طالب . قال ابن هشام فيما يرويه : ان سفياً من سفهاء قريش اعترض طريقه فنثر على رأسه تراباً ، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إحدى بناته فغسلت عنه التراب وهي تبكي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تبكى يا بنية فان الله مانع أبائك .

والموت لغز الحياة الأبدى ، احتفظ الله لذاته بسرّه ، وان كانت حكمته التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : « هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » الملك ٢ — تنادى الانبياء بأن يدخر من حسن العمل ما ينفعه في معاده ويسعده في آخرته .

والموت قدر الله الغالب لا ينجو منه أحد ولا يغلبه غالب ، يفاجم أحب الناس الى الانسان فلا يملك له دفعا ولو استطاع أن يفديه لفداه بأعز ما يملك ، يأخذ الصغير كما يأخذ الكبير ، وربما يؤخر الكبير ويختطف الصغير ، كل ذلك لحكمة لا يعلمها الا سيّد هذا الوجود وخالقها « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع الا يعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ان ذلك على الله يسير » فاطر ١١ .

والموت نهاية كل حى لمصلحة الحى نفسه ، ولو خلد الناس ما كان للحياة طعمها الحلو الذى يتنافس فيه الناس وعليه يتقاتلون ، ففى الفناء سر البقاء ، ومن عجب أن معرفة الناس بالموت وحثيئته لا يوقفهم عند حد فى التصارع والتقاتل كأنهم فى دنياهم على موثق من الخلود ، ولذلك حكمة عليا أرادها الله حتى يبقى على نعيم الحياة واستمرارها ، ان من نحبه يمكن أن نكرهه لو استمرت الحياه ولم يكن للمعمر تلك النهاية المأسوية ، ومنذ زمن قلت هذا البيت فى رثاء صديق عزيز :

ولولا وجود الموت فينا لأصبحت

أزاهرنا شوكا يصد ويبعد

لقد قضى الله على نبيه أن يفقد زوجته وعمه متعاقبين فى أيام قلائل ، لأنه أراد له أن يكون القدوة المثلى فى الصبر الأمثل والتأسى الجميل ، لقد ابتلى النبى صلى الله عليه وسلم بأقسى ما يبتلى به الانسان فلم يجزع ولم يفرق ، ولكنه كان خير معنصم بجانب ربه لائذ بحمى مولاه ، وليس غريبا على الذى فقد أباه قبل أن يولد ، وأمه وهو فى الخامسة ، وجده الذى كان عوضا عن والده وهو فى الثامنة ، وأولاده الذين يعتبرهم الناس زينة الحياة الدنيا ، وعزاه الله عن ذلك عزاء جميلا ، ليس غريبا أن يعزيه الله أيضا عن فقد العم وفقد الزوجه ، وعزاء الله خير عزاء .

لقد أراد الله للدولة الاسلاميه أن تقوم أعمدها على كواهل المسلمين أنفسهم وأبو طالب ناصر المسلمين مع احتفاظه بشركه ، فربما لو امتدت حياته حتى نجح المسلمون فى بناء دولتهم لنسب الناس ذلك الى زعامة هذا العم ومعاضدنه ، ولكن الله كان أغير على دينه وأحرص على توطيده بجنود الايمان وأبناء الاسلام .

أما اطلاق عام الحزن على هذا العمام فليس مرده الى حزن النبى صلى الله عليه وسلم على فقد عمه وزوجه ، فالنبى صلى الله عليه وسلم أصبر من أن تهزه أحداث الموت ولو كانت مزلزلة ، وهو أعرف الناس بالله وأقربهم منه ، وما تشغل قلبه الا الدعوة الاسلاميه والحرص على ابلاغها للناس والحرص على هدايتهم . . هذا هو الذى أحزنه ، أحزنه أن هذه الرفاهة كان لها أثر فى انطلاق وحوش قريش يقطعون الطريق فى وجه الدعوة

ويبسطون بكل من يعلن اسلامه حتى خاطبه الحق بقوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » الكهف ٦ .

ولقد صور الله سبب حزنه الحقيقي في قوله تعالى : « ولقد نعلم انه ليحزنك الذين يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » الأنعام ٣٣ .

محاولة مع ثقيف :

وحين استبدد الالم بالمسلمين في مكة وتعرض النبي صلى الله عليه وسلم للمضايقات الشديده بعد موت عمه ، وكثر المعارضون والمستهزئون حاول أن يقصد الطائف يلتمس النصرة من ثقيف على قومه ، راجيا أن يقبلوا دعوته فيهندوا الى الاسلام .

واصطحب في طريقه موله زيد بن حارثة ، وكان من أحب الناس اليه ، واطلق عليه اسم زيد بن محمد ، لأن زيدا كان قد اختاره على أبيه وعمه حين وفد الى مكة لاسترداده ، وكان زيد قد اختطف صغيرا وبيع في مكة بيع الرقيق فاشتترته السيدة خديجة رضى الله عنها ووهبته لزوجها محمد صلى الله عليه وسلم ، ونشأ زيد في رعاية النبي صلى الله عليه وسلم وأحبه حبا شديدا وآثره على نفسه وكان أول من آمن به من الأرقاء .

ولكن ثقيفا لم يوفقها الله لحسن استقبال النبي صلى الله عليه وسلم ، فأغلق عيونها وقلوبها عن الحق ، وأصم آذانها عن الهدى ، بل كانوا في صورة جافية عن المروءة متنافية مع الشهامه ، ولم يكتفوا برده أسوأ رد وهو ضيف مستجير ، بل أغروا به سفهاءهم يسمعون قارص الكلام ويرجمونه هو ومن معه بالأحجار حتى دميت قدماه وشج رأس زيد ، وطلب منهم أن يكتموا ما فعلوا به اذ لم يستجيبوا له حتى لا يثيروا عليه قريشا ، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك أيضا .

ولجأ عليه الصلاة والسلام مجهدا الى حائط لعنبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وهما فيه .

وعاد السفهاء يتضاكون ويتعابثون ، وجلس هو في ظل شجرة عنب ينسجى ربه قائلا : اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على

الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك .

الله أنت يا سيدى يا رسول الله ، ما أعظمك وما أعظم ما قمت به ، وما أروعك وما أروع كفاحك وما أنبلك وأنبل مقصدك ، وما أفسى القلوب التى كذبتك وأذنتك ، ان أفسى ما يلاقيه الانسان أن يقدم الخير فلا يجسد الا الشر جزاء له ، ويصنع الجميل فيجزيه من يقدمه اليه بالقبيح ، ولقد ذهب النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف فى محاولة لهدايتهم ، ولو أنهم حققوا رجاءه لكان لهم فى ذلك عز الدنيا والآخرة ، ولكن كانت لهم قلوب غلف وعيون عمى وأسماع صم .

وقد وطن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه على أن يتحمل فى سبيل هذه الدعوة كل صعب ، وفى رضاء الله نهون الآلام وتلذ المتاعب ويعذب الموت . لقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مناجاته لربه : ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ثم اسدرك قائلاً : ولكن عافيتك أوسع لى ، وفى ذلك تأديب لنا وتعليم لنا كيف نناجى الله ، فمهما بلغ حب الانسان لله فلا ينبغي له أن يقف أمام امتحان الله الا موقف الضعيف المستغيث ، والدعاء مخ العبادة كما ورد فى حديث ثريف رواه النعمان بن بشير ، والله يقول لنا : **((قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم))** الفرقان ٧٧ .

ومما يدخل فى نطاق الأدب فى المناجاة ما يرويه السلمى فى طبقات الصوفية عن سمنون المحب ، حيث قال ذات مرة مخاطباً ربه تعالى : وبما شئت فى هواك اختبرنى . وأصيب بحبس البول فلم يستطع الصومود ، فطاف على صبيان المكاسب يقول لهم : ادعوا لعمكم الكذاب ، يقصد أنه كان كاذباً فى ادعائه الصومود للاختبار .

ما أراذك يا سيدى يا رسول الله وما أحكمك وما أعظمك ، انك تبعث لنا من هديك نوراً نستضيء به فى ظلمات الحياة .

وأُنزل الله الرقة في قلب ابني ربيعة حين رأيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا اسمه عداس ، وقالاه : خذ قطفا من العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل .

ففعل عداس ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الطبق قال : باسم الله ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى من نينوى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نريا وأنا نبي ، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما عاد عداس اليهما قالاه : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : ما فى الأرض خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه الانبى .

وكذلك يشاء الله ألا يصرف نبيه من هذا المكان وهو يائس ، لقد اهتدى على يديه رجل ، وما اهتداء رجل واحد بالشئ الهين القليل ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم يوما لعلى بن أبى طالب وهو يفتح خيبر : لأن يهذى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها .

ويشاء الله ألا يكون هذا الرجل من هذه الديار ، كأن حكمة الله أبنت ألا أن تكون نصرة نبيه من غير هذا الصقع الجافى .

إيمان الجن :

ولكن الحكمة البالغة تبدو فى إيمان الجن به فى هذه الرحلة ، لقد انصرف الانس عن دعوته ، فليقبل الجن على هذه الدعوة ، وليشهد الكون على أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عامة للانس والجن بل والملائكة أيضا .

فحين قتل النبي صلى الله عليه وسلم راجعا من الطائف فى طريقه

الى مكة ، قام في جوف الليل صلى في واد اسمه نخلة ، فانصرف اليه نفر من الجن اسنمعوا القرآن فأسلموا على نبيه ، وقص الله قصتهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : « اذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين — قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم — يا قومنا أحيوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم — وذن لا يجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » الأحقاف ٢٦ : ٣٢ .

ونزلت سورة الجن لتؤكد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى الجن ، كما نزلت سورة الرحمن مؤيدة لذلك أيضا ؛ اذ الخطاب فيها موجه للانس والجن معا .

أى تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا ؟ لئن كذب به الانس فقد آمن به الجن ، ولقد كان بوسعهم لو أراد أن يستمعين بهم على الانس ، ولكنه عف عن ذلك ، فانه لم يرد أن تنتشر رسالته بغير طريقها الطبيعى المرسوم ، لقد قرر أن يسير في طريق الدعوة الى نهايتها امثالا لقول الحق : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » النحل ١٢٥ .

والدعوة حين تسلك الطريق الطبيعى تترك أثرها القوى الخالد في النفوس ، وتأخذ سبيلها الى القلوب والعقول بالمنطق السليم والبيان الواضح والاقناع القوى .

ولقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة أروع آيات الرحمة ، فقد حدثوا أن جبريل عليه السلام جاء للنبي صلى الله عليه وسلم يقول له : ان الله أمرنى أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك ، فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون .

وحدثوا بأن ملك الجبال قال له : مرنى لأطبقن عليهم الأخشبين — جبيلين — فقال : دعهم فانى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله . فبقال له : صدق من سماك الرعوف الرحيم .

ما أرحمك يا سيدي يا رسول الله وما أجدرك بقوله تعالى في نهاية سورة النبوة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنكم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وعاد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يستطع دخولها — وهو رسول الله المستجاب الدعوة — الا في حماية المطعم بن عدي ، وهذا هو منطق الواقع الذي أراد رسول الله أن يحدث به الناس ويواجههم به ، واستجاب المطعم بن عدي — على كفره — لطلب النبي صلى الله عليه وسلم فتسلح هو وبنوه والتفوا حوله ، فقال له المشركون : أمجير أم منابع ؟ فقال لهم : مجير ، فقالوا : لقد أجرنا من أجرت .

وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يعلمنا بذلك جواز الاستعانة بالكافر على الكافر ، أما الاستعانة بالكافر على المؤمن فلا والف لا . .

الاسراء والمصراع :

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يشرف نبيه ويعلى قدره ويعزيه عما لقيه من تكذيب قومه ويريه من آياته الكبرى ، فأسرى به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ثم عرج به من هناك الى السموات العلا .

وأشار القرآن الكريم الى الاسراء وحكمته في قوله تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » كما أشار الى المعراج في أول سورة النجم حيث قال : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى — عندها جنة المأوى — إذ يفشى السدرة ما يفشى — ما زاغ البصر وما طفى — لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وقصة ذلك فيما ترويه الكتب الصحيحة عن أنس وابن مسعود ومالك بن صعصعة — رضى الله عنهم — أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث عن ليلة أسرى به قال ما خلاصته : بينما هو في الحطيم — أو الحجر — مضطجعا إذ أنه آت فشق ما بين ثغره الى نحره الى شعرته ، فاستخرج قلبه ، ثم أتى بطشت من ذهب مملوءة ايمانا ففصل قلبه ثم حشى ثم أعيد ،

ثم أتى بالبراق يضع خطوه عند أقصى طرفه ، فحمل عليه فانطلق به جبريل حتى أتى باب المقدس ، فربط البراق بالطلق التي تربط بها الأنبياء ، ثم دخل المسجد فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ، ثم أتى باناء من خمر واناء من لبن واناء من ماء ، فأخذ اللبن فشرب فقال له جبريل : هديت وهديت أمثك . ثم عرج به الى السماء . حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : مرحبا به فنعلم المجيء جاء . .

وما زال يرقى في السموات ويستقبل بالترحيب في كل سماء حتى رفع الى سدرة المنتهى نادياً نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الهيلة . ثم رفع الى البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، وفرضت عليه الصلاة . خمسون صلاة كل يوم ، وعند رجوعه مر على موسى ابن عمران عليه السلام فقال له : ان أمثك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، واني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك فاسأله التخفيف ، فرجع فوضع عنه عشرة ، فقال موسى مثل ما قال أولاً فعاد ووضع عنه عشرة أخرى ، وما زال يسأل التخفيف حتى وصلت الى خمس في العدد مع بقاء أجر الخمسين لها .

وحديث الاسراء والمعراج عجيب ترتب على غرابته ارتداد بعض ضعاف الاسلام ، وهذا دليل قاطع على أن الاسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معاً ، فلو كانا رؤيا لما عد الأمر غريباً ، وكون هذا الحدث بالجسد لا يتنافى مع قدرة الله التي تقول للشئ كن فيكون ، وهو معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وشرط المعجزة أن تكون خارقة للعادة .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يسر بنفسه ولكن الله جلّت قدرته هو الذي أسرى به ، وأعطاه القابلية والامكانية لاختراق الفضاء ومنحه الصلاحية الكاملة لذلك ولولوج أبواب السماء ، وإذا كان العلم بمعطياته الحديثة وهب الانسان قدرات فائقة مكنته من اختراق الحواجز وتخطي المعوقات حتى وضع قدمه على القمر وربما يضعها على كواكب أخرى ، أفلا يكون في قدرة الله واهب العلم للانسان وهاديه للابتكار والاختراع

أن يصل بعبده الذى اصطفاه الى ملكوت السماء ويحمله فى أسرع من لمح
أنىصر من مكة الى بيت المقدس ثم يصعد به بعد ذلك الى السماء ؟ .

لقد تحدث العلماء الأجلاء فى ذلك كثيرا ، وليس لى ما أضيفه الى كلامهم
الراقى الذى أرادوا به أن يثبتوا هذا الحدث بالجسد والروح ، ان هذا أمر
داخل فى نطاق المعجزة ، والمعجزة شىء ثابت بالدليل العقلى والنقلى للأنبياء
عليهم السلام فهى الدليل على صدقهم ، وليس تحول الحديد الصلب عجيبة
لينا فى يد داود يصنع منه ما يشاء ، وانقلاب الصا فى يد موسى بأقل
من أن يمتطى النبی صلى الله عليه وسلم براقا يضع حافره عند منتهى بصره
فينتقل فى مثل اللح فى بيت المقدس أو أن ينصب له المعراج فيرتقى
الى السموات السبع ، فكل هذه الأمور خارقة للمعتاد .

ولئن حاولت أن تفلسف الأمر عقليا لما أعجزك ذلك ، فالمعجزة
كما يقول العلماء أمر خارج على المؤلف ، وكما من الأمور يستغريها الناس
فى زمن ويعتادونها فى زمن آخر ، ولو قيل لشخص فى القرن الأول : ان انسانا
فى يده جهاز يستطيع أن يكلم به أخاه فى أقصى الأرض لاعتبر أن الذى يقول له
هذا الكلام مجنوناً ، أما الآن فهو شىء عادى جدا ، وقس على ذلك — كما
يقول الدكتور محمد سعيد البوطى فى كتاب فقه السيرة — : ان المؤلف
وغير المؤلف معجزة فى أصله ، فالكواكب معجزة وحركة الأفلاك معجزة
وقانون الجاذبية معجزة والمجموعة العصبية فى الانسان معجزة والدورة
الدموية معجزة والروح معجزة والانسان نفسه معجزة ، وكما كان دقيقا
ذلك العالم الفرنسى شاتوبريان الذى أطلق على الانسان اسم الحيوان
الميتافيزيقى أى الحيوان الغيبى المجهول ، غير أن الانسان ينسى من طول
الالف واستمرار العادة وجه المعجزة وقيمتها فى هذا كله فيحسب جهلا منه
وغرورا أن المعجزة هى تلك التى تفاجئ ما ألفه واعتاده فقط ، ثم يمضى
يتخذ مما ألفه واعتاده مقياسا لإيمانه بالأشياء وكفره بها ، وهذا جهل عجيب
من الانسان مهما ترقى فى مدارج العلم والمدنية ، وتأمل يسير من الانسان
يوضح له بجلاء أن الاله الذى خلق معجزة هذا الكون ليس عسيرا عليه
أن يزيد فيه معجزة أخرى ، أو أن يبدل ويغير فى بعض أنظمتها التى أنشأ
العالم عليها ، ولقد تأمل مثل هذا التأمل المستشرق الانكليزي وليم جونز

حينما قال : القدرة التى خلقت العالم لا تعجز عن حذف شئ منه أو اضافة شئ اليه ، ومن السهل أن يقال عنه انه غير متصور عند العقل ، لكن الذى يقال عنه انه غير متصور ليس غير متصور الى درجة وجود العالم ، يقصد انه لو كان هذا العالم غير موجود وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق : سيوجد عالم كذا ، فانه سيجيب رأسا ان هذا غير متصور ، ويكون نفيه لتصور ذلك اشد بكثير من نفيه لتصور معجزة من المعجزات ، فهذا ما ينبغي ان يفهمه كل مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وما أكرمه الله به من المعجزات » .

ويؤخذ من حدث الاسراء والمعراج سلامة الفطرة النى يلتقى معها الدين الاسلامى حيث أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأوانى الخمر والماء واللبن فاختار اللبن ، فقيل له : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك ، والفطرة هى التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله : « صِبْغَةَ اللَّهِ وَهُنَّ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً » البقرة ١٢٨ — وهى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » الروم ٣٠ — ولو ترك الانسان حرا فى تفكيره وكان ذا منطق سليم وعقل حكيم وحاول أن يصل بفكره الى الدين الصحيح لاهتدى الى الاسلام ، ولكن الذى يحول بين الناس وبين الاسلام هو تلك الحواجز المصطنعة والضلالات الشائعة والعادات الفاسدة والمبادئ الهدامة ، وهو ذلك الزيف الذى يقدم للناس باسم الدين والدين منه براء .

كما يؤخذ منه أيضا أهمية الصلاة ومنزلتها وشرفها ، فهى طريق انوصول الى الله ، واسمها يهذى الى سرها ، فالصلاة صلة بين العبد وربيه ، انظر أين فرضت ومتى ؟ لقد فرضت فوق السموات السبع فى مكان يسمع فيه صريف الأقلام ، وفى وقت رفعت فيه الستر بين الحبيب والمحبيب ففاجى كل منهما صاحبه حيث انعكس بصر النبى صلى الله عليه وسلم فى بصيرته فرأى من ليس كمثله شئ .

ولقد جرت عادة الملوك — والله المثل الأعلى جل وعلا — فى اصدار مراسيمهم أن يرسلوها لولاتهم مع السفراء ، فاذا كان المرسوم هاما مثل الوالى أمام الملك ليثبته بما يريد ، فيكون ذلك أحرى بالتأكيد وأدل على التأييد .

وإذا أردت أن تعرف قيمة الصلاة فانظر الى أثرها في السلوك والتقويم ، فقد ضمن الله لمن يقيمها بصحتها التناهي عن الفحشاء والمنكر قال تعالى : « **واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » العنكبوت ٤٥ .

ويؤخذ من الحديث أيضا فضل الأمة المحمدية وشرفها على سائر الأمم ، فقد قال موسى حين سئل عن سبب بكائه — وقد بكى حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في السماء السادسة — : أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وليس غريبا على من جعله الله خسير النبيين أن تكون أمته خير الأمم ، وقد وعده الله نبيه صلى الله عليه وسلم خيرا في أمته حيث قال له : « **ولم يسوف يعطيك ربك فترضى** » قال بعض العلماء : ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يرضى وأحد من أمته في النار ، وذلك مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام : من قال لا اله الا الله دخل الجنة .

وعلى هامش المعراج سأل بعض المشككين أستاذنا الشيخ محمد على منصور الأقدمي قائلا له : ألم يكن الله قادرا على أن يجعل نبيه يراه وهو على الأرض ؟ فما الحاجة الى صعوده الى السماء ؟ فأجابه بقوله : بلى ، الله قادر على ذلك ، ولكنه أرسله الى السماء ارسال تشريف كما أرسله الى الأرض ارسال تكليف ولكي تطأ قدمه الشريعة فوق كل قدم . ألم تسمع أن جبريل في صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم وقف عند حد معلوم لا يتخطاه ، حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أفي هذا المكان يترك الخليل خليله ؟ فقال جبريل : لو خطوت خطوة لاحترقت ، وما منّا الا له مقام معلوم .

كان من المتوقع أن يقابل المشركون حدث الاسراء والمعراج بالكذب ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن دليل يثبت زيارته لبيت المقدس وأن يصفه ان كان قد رآه حقا ، فوصفه لهم بدقة بالغة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه جابر : لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه .

(م ٧ — هدى البصرة)

وحين أعجزهم بذلك الوصف الدقيق سألوه أن يخبرهم عن غيرهم القادمة من الشام ، فأخبرهم بعدد جمالها وحدد لهم يوم قدومها وساعة وصولها يتقدمها جمل أورك ، فخرجوا يشهدون ذلك اليوم نحو الثانية ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت ، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يتقدمها جمل أورك كما قال محمد ، وكان قد أخبرهم أنها ستقدم مع شروق الشمس . ولكن ذلك اليوم لم يزدهم الا عنادا وكفرا .

لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة كثيرا من آيات ربه الكبرى ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم ، وكانت رحلة ميمونة طمأنت قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم وسرت عنه بعد تلك الأحداث الطويلة القاسية التي مرت وفي عام أطلق عليه عام الحزن لشدة ما انتابه من غم لتمرد قومه وإصرارهم على الكفر وهو يريد بهم الخير والهدى والرشاد .

وجاءت هذه الرحلة على مشارف مرحلة حاسمة في طريق الدعوة فكأنها المقدمة الكبرى للانطلاق الكبير نحو ذبوع الإسلام وانتشاره خارج حدود هذا البلد الذي أغلق مسامعه عن الدعوة وحاول أن يصد عنها كل مقبل عليها .

وفي صبيحة تلك الليلة المباركة جاء جبريل عليه السلام ليعلم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة كما فرضها الله ويبين له أوقاتها ، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه قائلًا لهم : صلوا كما رأيتموني أصلي ، وقد جعل الله قرة عين نبيه في الصلاة ، وكان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ، وكان يقول لبلال حين يجيء وقت الأذان : أرحنا بها يا بلال ، كيف لا والقرآن يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ؟ البقرة ١٥٣ .

خطوات على الطريق إلى يثرب :

استمر هذا الأذى ، بل اشتد ، والنبي صلى الله عليه وسلم مثابر على أداء رسالته ، ولم ييأس من الموقف الذي تعرض له في ثقيف وما لقيه من قومه عقب ذلك ، بل زاده ذلك إصرارا على تبليغ أمر الله ، فمن صور الأذى ما يرويه الطبري من أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أن أجابه

المطعم بن عدى بعد عودته من ثقيف ، دخل المسجد الحرام يوما والمشركون عند الكعبة فلما رآه أبو جهل قال : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف — كأنه يتهكم منه لأنه احتاج الى جوار ولم تمنعه الملائكة — فرد عليه عتبة بن ربيعة : وما ينكر أن يكون منا نبي أو ملك ؟ فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسؤال أبي جهل ورد عتبة عليه . قال : أما أنت يا عتبة فما حميت الله وانما حميت لنفسك — ذلك أنه قالها من موقع العصبية الجاهلية وليس حذبا وحماية للنبي صلى الله عليه وسلم — وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتى عليك غير بعيد حتى تضحك قليلا وتبكي كثيرا ، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتى عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون .

وفى هذا الرد المسمى ما يفيد ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وثقته بربه ووعدده الذى وعده بظهور دينه .

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل الوافدة الى مكة فى المواسم ، وكانت قريش قد أعدت نفسها لمثل ذلك ، فكانت تندب من يتبعه ليكذب ما يقوله للقبائل ، وكثيرا ما كان أبو لهب يندب نفسه للقيام بهذه المهمة ، فاذا قال النبي صلى الله عليه وسلم للناس : قولوا لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم واذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة ، قال أبو لهب وراءه : لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب ، فتنصرف القبائل عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أوشك بنو عامر بن صعصعة أن يستجيبوا لما دعاهم له ، ولكنهم اشترطوا أن يكون لهم الأمر من بعده ، فقال لهم : ان الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقالوا : أفنتهدف غورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك .

وقد كان هينا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل شرطهم لو أنه كان مغامرا نهازا للفرص ، ولكنه كان رسول الله وصفيه لا يقبل الزيف والبهتان ولا يحب الا أن يكون واضحا ، على الذى يبايعه أن يبايعه على أن يتحمل فى سبيل اسلامه المشقة ويتحمل الغرم ، أما الغنم فهو بيد

الله يمنحه من يشاء من عباده ، ولقد آمن به من آمن فضرب وأوذى ومع ذلك فقد كان يجد في هذا العذاب والأذى لذة لا ندانها لذة .

بيعة العقبة الأولى :

حتى جاءت السنة الحادية عشرة من البعثة وأراد الله لأهل يثرب من العزة والكرامة ما لم يرده لأهل مكة ، فبينما هو عند العقبة لقي جماعة من الخزرج ، ستة رجال هم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورائع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى فجلسوا معه ، فدعاهم للإسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله انه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه وكان اليهود في يثرب أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أورثان ، وكان اليهود قد عزوهم ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم : ان نبيا مبعوث الآن قد أظلم زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فأجاب هؤلاء نفر الستة النبي صلى الله عليه وسلم فيما دعاهم اليه وصدقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك ، فستقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبتك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم مؤمنين مصدقين ، وفي المدينة دعوا قومهم الى الاسلام حتى فشا فيهم ، فثم يبق بيت من بيوت الأنصار الا وفيها ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي العام التالي وفد الى النبي صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج ، ولقيهم عند العقبة فبايعهم على الايمان والتمسك بفرائض الأعمال ، وكانت هذه هي بيعة العقبة الأولى التي يقول فيها عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أحد أفراد هذا الوفد « بايعنا رسول الله صلى

الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأسي بيهتسان نفنريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف » قال عليه الصلاة والسلام : « ان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة لها ، وان سترتم عليه الى يوم القيامة فأمركم الى الله ان شاء عذب وان شاء غفر » .

ما أروع الاسلام وما أجله ؟ ماذا ينتظر ذوو العقل أفضل من هذا ؟ وعلام يعادى هؤلاء المشركون الدين الذي يدعو الى فضائل الأعمال ؟ أوليس ذلك دليلاً على نقصان العقول وضلال الأحلام ؟ لقد أضاع القرشيون أوقاتهم في نصب وبددوا جهودهم في ضياع ، وكتبوا على أنفسهم طول الشقاء وخزى الأبد . وفاز بالسعادة أولئك الذين فتحوا عقولهم وقلوبهم لدعوة الاسلام . .

كان هذا الوفد يضم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وأخاه معاذ ، وذكوان بن فليس ، وعبادة بن الصامت ويزيد بن سعلبة والعباس بن عبادة وأبا الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة ورائع بن مالك وقطبة وعقبة ابني عامر . .

وعاد الوفد وفي صحبته أول سفير في الاسلام مصعب بن عمير وهو من أوائل السابقين الى الاسلام والمهذبين فيه ، ومعه عبد الله بن أم مكتوم الذي عاذب الله فيه نبيه بقوله تعالى « عيسى وتولى » أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنتفه الذكرى » وهو ابن خالة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها .

وكانت مهمة مصعب وعبد الله أن يعلموا من أسلم القرآن ويفقهاه في الدين ويدعوا الى دين الله ، وبينما هو في بستان مضيئه ذات يوم اذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس لاسيد بن حضير وهو ابن عم أسعد بن زرارة ، قال له : ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفانا لتزجرهما ، فقام أسيد بحريته .

وحين رآه أسعد مقبلاً قال لمصعب : هذا سيد قومه فأصدق الله فيه .

فلما وقف عليهما قال : ما جاء بكما ؟ تسلفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا ان كان لكما بأنفسكما حاجة . فقال مصعب : أونجلس فنسمع فان رضيت أمرا قبلته وان كرهته كفنا عنك ما نكره ؟ فقرأ مصعب القرآن ، فاستحسن أسيد دين الاسلام ، وهداه الله اليه فأعلن اسلامه ، ورجع الى سعد فسأله عما فعله فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا ، فسقيظ سعد وقام اليهما ، ففعل مصعب معه ما فعله مع أسيد ، فهداه الله الى الاسلام فأسلم ، ورجع الى قومه يقول لهم : ما نعدوننى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حنى تسلموا . فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد التمهّل الا أجابه ، وانتشر الاسلام انتشارا عظيما ، حنى لم يعد هناك حديث فى يثرب الا عن الاسلام .

البيعة الثانية :

وحين جاء موسم الحج فى العام التالى قدم مكة كثيرون من أهل يثرب يريدون الحج وبينهم خيرون من المسلمين ، وقابل وفد من المسلمين اليتريين رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدهم اللفاء ليلا عند العقبة ، وأمرهم الا ينهبوا نائما ولا ينتظروا غائبا ، فآخذوا يقبلون على موعدهم مسلمين بعد ان مضى من الليل ثلثه ، حنى بلغ عددهم ثلاثا وسبعين رجلا ، منهم اثنان وسون من الخزرج واحد عشر من الاوس ، ومعهم امرأتان هما نسييه بنت كعب واسماء بنت عمرو ، وحضر مع النبى صلى الله عليه وسلم عمه العباس — وهو على دينه لم يسلم بعد — وقد أراد ان يسنونق لأبن أخيه .

وحين وافى الجمع قال العباس : ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من مومنا ممن هو على ملأينا فيه فهو فى عز من قومه ومعه فى بلده ، وانه مد أبى الا الاحياز اليكم واللحوق بكم ، فان خسم برون انكم وافون له بما دعونموه اليه ومايعوه ممن حالفه فانتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون انكم مسلموه وخادلوه بعد الخروج به اليكم فمن الان فدعوه ثأنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

قال الانصار : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . » . فأخذ البراء بن معمر بيده ، ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أئمتنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرنا عن كابر .

فاعترض القول والبراء يتكلم أبو الهيثم بن النيهان فقال : يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم .

ثم اختاروا من بينهم اثني عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي .

وبلغ خبر هذه البيعة مشركى قريش ، فقالوا للأنصار : بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا ؟ فصار المشركون من أهل يثرب يقسمون على أنه لم يحدث شيء في ليلتهم ، وجعل عبد الله ابن أبي كبير الخزرج يقول : ما كان قومي ليفتاتوا على شيء من ذلك .

وكذلك أراد الله بالأنصار خيرا ، وأراد الله بدينه أن يظهره على أيدي هذا الحى من العرب وقضى بأن يكون للأنصار اليد الطولى في نصره الاسلام ، بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة التوحيد والتوحد ، ومحسا ما كان بينهم من العداء والتنافر ، فلطالما سالت الدماء غزيرة بين الأوس والخزرج وكان آخر يوم شهده هو يوم بعث الذى ذهب ضحيته العديد من رجالهم ، وكان اليهود وراء هذه الدماء الغزيرة التى تسيل ضمانا لسيادتهم وابتزازا لأموال المتحاربين عن طريق بيعهم الأسلحة وما تحتاج اليه الحروب .

لقد قامت هذه المبايعة على المصارحة ، فقد اشترط العباس للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما اشترط أبو الهيثم لقومه ، وبذلك لم تكن البيعة

شائمة على مجرد العاطفة فقط ، ولكنها شامت على التثهم للموقف والنظرة البعيدة للمستقبل .

وتجلت حكمة النبي صلى الله عليه وسلم حين طلب من الانتصار أن يكتفوا أمرهم حين يتوافدون اليه في المكان الذي واعدتهم فيه ، فلم يوقظوا نائما ولم ينتظروا غائبا ، ذلك أنه كان يراقبهم في هذا الموسم من لم يدخل نور الاسلام في قلبه . فقد تولى هؤلاء الذين لم يسلموا عبء الرد فيما بعد على مشركي قريش حين عاتبوا اليربيين على مبايعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلم الانتصار المبايعون من عناء مجادلة المشركين والتعرض للكذب ان أنكروا .

حول البيعتين :

كلف النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة الأولى اثنين من أصحابه الأخيار مرافقة الوفد الانتصاري ليقوما بمهمة الارشاد والتعليم والدعوة ، وفي ذلك تعويد للمسلمين وتشريع لهم في مستقبلهم الا يكنوا عن الدعوة الاسلامية وحملها الى مختلف البقاع حتى يعم النور وينتشر الضياء ، ان الاسلام هو الحياة وبدونه تصبح النفوس مجذبة عديمة الجدوى ، ولقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطنا أن من واجب الشعور بالمسؤولية أن يأخذ الناجي بيد الضال ويهديه ما وسعه الى سواء السبيل ، وذلك مصداق لقوله تعالى « **وَلَقَدْ مَنَعْنَاكَ اللَّهُ مِمَّا كَفَبْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْبِضُوا إِلَيْكُمْ فَوَدَّ أَنَّكُمْ لَأَكْفَرُونَ** » آل عمران ١٠٤ واختيار النبي صلى الله عليه وسلم للمرافقين يدل على وجوب حسن الاختيار للمكلفين تبعة الدعوة ، فيكونون ممن فقهوا في الدين واتسموا بالبراعة والحكمة في نقل الدعوة والتبشير بها ، وقد مر بنا كيف صنع مصعب مع زعيمين من زعماء الانتصار ، حتى استطاع أن يجذبهما الى الاسلام ، وباسلامهما أسلم خلق كثير .

وتوقفنا أخبار البيعة الثانية التي لتبت بالبيعة الكبرى على موقف حميد للمرأة المسلمة ، فقد شهدتها امرأتان هما نسيبة بنت كعب وأسماء

بنت عمرو ، ومن هنا نتعلم أن الاسلام رفع من شأن المرأة وأعلى مكانتها ، ولم يضمن عليها بالاثنراك في كبريات الأمور ، وتجلّى بعد نظر الاسلام في ذلك حين رأينا للنساء مواقف نبيلة أغنت فيهما بعقلها ورأيها وشجاعتهما وحسن تصرفها ، ونسبية بنت كعب بالذات كان لها في موقعة أحد غناء ما أغناه كثير من الرجال ولقد جرححت دون النبي صلى الله عليه وسلم بجراحات غائرة وهى تصد عنه بسيفها ، حتى أغمى عليها من كثرة ما نزفت من دماء ، وحتى قال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « من يطيق ماتطيقين يا أم عمار ؟ » وحين أقافت من غشيتها لم يكن همها الا السؤال عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تسأل عن زوجها وولديها الذين كانوا معها في المعركة .

انه الايمان العميق الذى يملأ ارادته على المؤمن فلا يكون فى النفس حب الا الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

ولو تأملنا هاتين البيعتين لأدركنا كيف يفعل الايمان فى النفوس وكيف يحولها الى طاقات من الخير والنور تتحدى الظلام ولا تخشى الشر المتربص ، فالبراء بن معرور رضى الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ازنا .

هو الايمان الذى اشربته القلوب وهو الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى خالط ارواح هؤلاء الانصار فبادلهم النبى حبا بحب وايثارا بايثار ، ولقد كشف حب النبى صلى الله عليه وسلم للانصار فى مواقف عديدة وسأعرض بتوفيق الله بعض صور منها فيما بعد .

كان لابد من هاتين البيعتين لنتفتح الطريق الى يثرب أمام المهاجرين من المسلمين .

وبدا المسلمون ينطلقون بعد أن اذن النبى لهم افرادا وجماعات الى دار الهجرة حيث وجدوا فى رحاب المدينة المنورة متنفسا لهم وحرية كاملة يمارسون فى ظلالها شعائر دينهم ومن ثم يستطيعون الانطلاق بدعوتهم الكريمة الى الافاق ؛ ليسعدوا بها البشرية ويطلعوا نورها على البرية .

وعلى الدرب الذى سار فيه من قبل الأنبياء مهاجرين الى الله سار
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مهاجرا الى ربه وتاركا وراءه بلده الذى
قال فيه : انك أحب البلاد الى ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت .

وفى سبيل الله يهون كل شىء . يهون الوطن والنفس والمال والأهل .
ويشأء الله أن يجعل كل نبى غريبا فى وطنه ، وصدق الذى قال من
انحكاء : لا كرامة لنبى فى وطنه .

ما الحكمة فى ذلك ؟ انها لحكمة عليا تجل على الأهمام ، وربما يدل
ذلك على عظمة الحق وجلاله الذى يشبه الشمس فى قوتها فتعشـو عن
ادراكها الأنظار القريبة منها . .

ومهما حاول المبتلون طمس الحقيقة وحجب الشمس فهى لا شـك
ساطعة وبالغة منتهاها الى أهلها الجديرين بها مهما بعدت الشـقة وطال
الزمن . .

انطلاق النور

الهجرة الى يثرب :

أخذ الاسلام ينتشر في المدينة بسرعة خارقة ، وقابل ذلك رد فعل في مكة ، فقد ضيق المشركون فيها الخناق على المسلمين بعد أن نما الى علمهم ما حدث ليلة العقبة ، وقد وقع في روعهم أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه موشكون على منطلق جديد يجدون فيه أمنهم ، ويجدون فيه دعوتهم ، فليأخذوا عليهم الطريق ..

ولم يكن هناك بد من أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم صحبه بالهجرة الى المدينة ، فآخذوا يتسللون خفية حتى لا يحبسهم المشركون ، وآثروا الفرار بدينهم على أهلهم وديارهم وأموالهم ، ولم يجروا على الهجرة علنا الا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي نحدى قريشا بهجرته ، فانطلق الى الكعبة فطاف بها ، ثم نظر الى وجوه المشركين في نواديهم بالمسجد انحرام ، فقال : شأمت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تشكله أمه أو نرمز زوجته أو ييتم ولده فلينبعنى خلف هذا الوادى .. فلم يتبعه أحد .

ولم تخل هجرة المسلمين من مغامرات تذكر لهم بالخير ونحدث عنها الأجيال بالفخر والأجلال .

ففى هجرة أبى سلمة وزوجه مثل للمصابرة وحسن البلاء . حدث ابن اسحاق قاتلا : لما اجتمع أبو سلمة الخروج الى المدينة رحل بعيره ليحمل عليه زوجه ومعهما ابنهما سلمة ، فلما رآته رجال بنى المغيرة قالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايتك صاحبك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فنزعوا خطام البعير من يده ، فأنزلوا امرأته أم سلمة ، وغضب لذلك رهط أبى سلمة ، فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ، فآخذوا يتجاذبون الطفل الصغير « سلمة » بينهم حتى خلعوا ذراعه ، وانطلق به بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة ، وحبس بنو المغيرة عندهم أم سلمة ، وبذلك فرق المشركون بينها وبين زوجها وابنها ، فما زالت

أم سلمة نبكى سنة أو قريبا منها حتى رقى لها رجل من بنى عمهنا ، فقتل لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة التى فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟ فقالوا لها : الحقى بزوجك ، ورد عليها بنو الأسد ابنها ، فخرجت وحدها فى الطريق الى المدينة ، ولكن الله لم يرد أن ينكرها وحدها فى هذا الطريق فقيض لها من يصحبها . قالت : لقبت عثمان بن طلحة ، فقال لى : الى أين يا بنت أبى أمية ؟ قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أوما معك أحد ؟ فقالت : لا والله الا الله وبنى هذا ، قال : والله ما لك من منرك ، وصحبها . قالت أم سلمة : فر الله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه . وكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة . وقد أصبحت أم سلمة زوجة لرسول الله بعد استشهاد زوجها ...

وهكذا تتابع المسلمون فى الهجرة حتى لم يبق بمكة مع النبى صلى الله عليه وسلم الا أبو بكر وعلى وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون منهم المستضعفون الذين لم يستطيعوا أن يهاجروا ..

هجرة النبى صلى الله عليه وسلم :

وتأمر المشركون على النبى صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة ، بعد أن أيقنوا أنه لابد من أن يلحق بأصحابه الذين وجدوا فى المدينة الصدر الرحب والمستقر الأمن . وافق المشركون الذين زين لهم الشيطان ذلك على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدا فيضربوا النبى صلى الله عليه وسلم بسـيوفهم ضربة رجل واحد حتى يفرق دمه فى القبائل ، فلا يكون لبنى عبد المطلب قدرة على المطالبة بنأره ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى « **وَأَذِّنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُحْبِطُوا أَوْ يَفْتَنُوا أَوْ يُخْرِجُوا وَيَمْكُرُوا وَيَمْكُرْ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** » الأنفال ٣٠ .

لقد أوحى الله الى عبده بالهجرة ، فأسر بذلك الى أبى بكر الذى كان قد أعد للأمر عدته ، وفى الليلة المشهودة أمر النبى صلى الله عليه وسلم عليا بأن ينام فى فراشه ويتغطى ببرده ، ثم يلحق به بعد أن يرد الودائع الى أهلها .

واجتمع القرشيون حول الدار ينظرون من خصاص الباب فيرون النائم فيظنونهم محمدا فبطمئون ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد خرج على أعينهم يتلو قوله تعالى من أول سورة يس « **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَهِنْ خَلْفَهُمْ سَدًا فَأَنْشَيْنَاهُمْ فِيهِمْ لَا يَبْصُرُونَ** » ولم يروه . . وبلغ النبي خارج مكة فلقى أبا بكر الذي كان ينتظره ، وبيما معا شمس طر غار ثور فاختفيا فيه عن الأنظار حتى يسكن اللباب .

واقتحم المشركون الدار فلم يجدوا الا عليا ، فانطلقوا الى بيت أبي بكر فلم يجدوه أيضا ، فسألوا عنه ابنه أسهماء ، فقالت : لا أدري ، فلبطمها أبو جهل لطمه أطارت قرطها . .

آية الاعجاز في الهجرة :

وقد ظهرت آية الاعجاز واضحة في هذه المسيرة ، على الرغم مما ينكره البعض من معجزات ، لأنهم يرجعون عادة الأحداث الى الأسباب والمسببات ، ويربطون بين الأمور بروابط مادية تقوم على المقدمات والنتائج ، ولكنهم يغفلون في كثير من الأحيان عن تصارييف الأقدار التي يقف العقل أمامها عاجزا لا يقدر على التفكير ولا يستطيع التدبير ، كما يغفلون أحيانا عن الطاف الله الخفية التي تصاحب الأقدار فتخفف من وقعها وتعين على تحملها ، وتلفت نظر الناس الى رحمة الله الواسعة .

وبذلك المقياس المادى حاول كثير من المؤرخين أن يقيسوا خطوات الهجرة الشريفة ، قائلين : أنها تمت على أساس من الترتيب العقلى والتخطيط السياسى البارع الذى يدل على عبقرية فريدة وبعد نظر جديرين بتلك الشخصية الفذة شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهم فى ذلك يحاولون أن يجعلوا شخصية الرسول كغيره من البشر الا أن الله اختصه من بينهم بالعقل المستنير والقدرة على التصرف السليم فى الوقت المناسب وبالصورة المناسبة ، فما يصدر منه من تصرفات لا ينبغى أن يكون لجوانب أخرى غير منظورة دخل فيه ، وهذا فى نظرهم قمة الكمال البشرى والرسول صلى الله عليه وسلم بشر لا شك فى ذلك « **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ** » ولكن هذا الوحى هو الميزة الكبرى التى اختص الله بها نبيه

وأمدته بصلاحيات خاصة رفعتة فوق سائر البشر فجعلته برى الملائكة ويكلمهم ويسمع منهم وتلقى عنهم الوحي ، فهو بذلك متفرد بصفة متميزة لا يشركه فيها سوى أخوانه من الأنبياء وفضلته عليهم فقد أسرى به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم عرج به الى السموات العلا .

أجل لقد أنعم الله على النبي صلى الله عليه وسلم بنعمة العقل الكبرى التى تجلت فى مؤدبرته على أن يسع أفكار الناس جميعا ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ولكن العناية الالهية لم تتخل عنه الى جانب ذلك فى أى لحظة من لحظات حياته ، وكان يدعو الله دائما ألا يكله الى نفسه طرفة عين .

وفى حادث الهجرة صاحبتة هذه العناية فأمدته بخوارق كثيرة وقفت أمامها عقول الكفار من قريش ذاهلة مشدوهة ، وليس فى ذلك طعن فى مقدرته على التصرف السليم والتخطيط البارع الحكيم ، فلم بدخر النبي صلى الله عليه وسلم وسعا فى الاعداد للهجرة والتخطيط لها ، فجعل أصحابه يسبقونه الى المدينة بعد أن مهد للإسلام فيها ووطد أركانه من جوانبها وأثار شوق أهلها للقاء أخوانهم المهاجرين ، واستبقى صديقه أبا بكر وأمره أن يعد الرواحل والدليل والعيون التى ترقب الطريق وتأتى بالأخبار وتحمل الزاد وتعفى على الآثار ، وانتقى الفدائى الذى ينال على الفرائش فيعمى الطلب ويؤخره حتى يبلغ الركب مأمنه ، الى غير ذلك مما قام به من اعداد يشهد بدقة التفكير وقوة الملاحظة وبعد النظر والتعرض لكافة الاحتمالات .

وبذلك ترتفع هذه الشخصية الفريدة فى نظر المفكرين المحدثين الى القمة الشامخة التى تتطامن دونها القمم وتتخاذل دونها الهمم ، وهذا يكفى عند هؤلاء لأن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قوة لها خطرها وثأنها بغض النظر عما يورده رواية السيرة وكتاب التاريخ من معجزات خارقة صاحبت موكب الهجرة من بدئها الى منتهاها .

الاعجاز لا يعارض التفوق البشرى :

ولا ينافى الاعجاز الذى أحاط بالنبي صلى الله عليه وسلم فى هجرته بحاله البشرى ومقدرته العقلية وبراعته فى قياس الأمور وتقدير الأحوال

والظروف ، بل الكمال كل الكمال أن يوهب النبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك ويمنح الى جانبه العناية التي تحبط كل كيد وتتحدى كل شر لا يقع في مقدور البشر توقعه أو صده .

ليس هناك غضاضة في أن ترقب السسماء خطوات النبي صلى الله عليه وسلم في طريقه الى يثرب وهو الذي بعثه بالحق ليوطد الدين الذي لا يرضى الله بغيره من الناس وبخاصة بين قوم لا يريدون الاعتراف بغير الخوارق والمعجزات . ولئن كان القرآن الكريم أراد أن يرد الناس الى صوابهم ويطلب منهم أن يحكموا العقل في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فيؤمنوا بها لأنها دعوة الفطرة ورسالة النور وطلب من النبي أن يوضح لهم أنه بشر كغيره فان ذلك لا يجاقى أن يكون للرسول معجزاته التي تؤيد الحق الذي جاء به فهذا وحده — في اغلب الاحيان — الذي يبهز العقول ويذل الجبابرة ويكبح جماح المعارضين .

يروى لنا الثقات أن النبي صلى الله عليه وسلم صاحبه معجزاته الشريفة في الهجرة كما صاحبه في غيرها فالاسراء والمعراج وانشقاق القمر وغيرها معجزات ، وجاء في سيرة ابن هشام : لما نزلت آية « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين » . أنى جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم والمشركون يطوفون بالببيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه ، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمرى ، ومر به الأسود بن يغوث فأثسار الى بطنه فاستسقى في بطنه فمات به ، ومر به الوليد بن المغيرة فأثسار الى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك بسنين وليس بشيء ، فأنقض به فقتله ، ومر به العاص بن وائل فأثسار الى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فألقاه على شبرقة — نبات ذى شوك — فدخلت في أخمص رجله شوكه فقتلته ، ومر به الحارث بن الطلائع فأثسار الى رأسه فامتنحض قنجا فمات ، وهؤلاء هم رأس الكفر والشقاق والمستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ما رواه ابن هشام أيضا : كان ركانة بن عبد يزيد بن هشام

أبن المطلب أشد قريش فخلا يوم برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله : يا ركانة ألا تتقى الله وتقبل ما دعوتك إليه ؟ فقال : لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أفرايت أن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم ، فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم مرتين . قال ركانة : يا محمد والله إن هذا للعجب أنصرعني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعجب من ذلك أن أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فأتأينني . قال ركانة : فادعها فادعها ، فأقبلت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : أرجعي إلى مكانك ، فرجعت .

وليس غريباً هذا ، فالقرآن الكريم وهو أصدق الحديث يقص علينا أن الملائكة نزلت تشاغل في صفوف المسلمين في بدر وحنين ، وليس هذا إلا الإعجاز الذي لا يكون إلا لنبي أیده الله بالحق .

ولا شك أن نزول الملائكة ليحاربوا مع المسلمين لا ينافي الاستعداد الذي استعده النبي والمسلمون للمعركة . يقول الأستاذ سعيد حوا في كتابه « الرسول » : عندها تدرس حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تجدك دائماً أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قدرة الله المباشرة التي لا دخل لعالم الأسباب فيها ، ولا تستطيع أبداً أن تجد تظليلاً لما تراه أو نقل إليك نقلاً صحيحاً ، إلا أن الله جلت حكمته يجرى على يد هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ما تقوم به الحجة على الكافر ويزداد به المؤمن يقيناً ويخرج به الشاك من شكه وهذا هو سر المعجزة .

معجزات صاحبة الهجرة :

جاء في سيرة ابن هشام : لما اجتمع المشركون وفيهم أبو جهل بن هشام فقال — وهم على باب النبي صلى الله عليه وسلم — : إن محمدا يزعم أنكم أن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها ، وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال :

نعم أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو الآيات من أول سورة يس حتى قوله تعالى : « فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت من لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمد ، قال : خبيكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته . وحين قصوا أثره ووقفوا عند الغار أعمى الله أبصارهم عن النظر داخله وأوقع الله في رؤوسهم أن هذا النسيج على قم الغار من فعل العنكبوت أقدم من ميلاد محمد ، ولو أن أحدا ساورته نفسه أن يقتحم الغار لتحول هذا النسيج الواهن الى حراب طاعنة .

وفي الطريق الى المدينة مر الراكب الميمون بخيمة أم معبد ، وهي عاتكة بنت خالد من خزاعة ، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم منها لبنا أو لحما يشربونه ، فلم يجدوا عندها شيئا ، فنظر الى شاة في كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها النبي صلى الله عليه وسلم : هل بهما من لبن ؟ فقالت : هي أجهد من ذلك ، فقال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟ فقالت : بآبى أنت وأمى ، ان رأيت أن بها حلبا فاحلبها ، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرت واجترت ، ودعا باناء يشبع الرهط فحلب فيه حتى ملأه وسقى القوم حتى رويوا ثم شرب آخرهم ، ثم حلب فيه مرة أخرى عللا بعد نهل ، ثم غادره عندها ، وذهبوا فجاء أبو معبد ، فلما رأى اللبن قال : ما هذا يا أم معبد ؟ أنى لك هذا والشاة عازب حيال ولا حلوبة بالبيت ؟ فقالت : لا والله الا أنه مر بنا رجل مبارك ، فقال : صفيه فوصفته له ، فقال : هذا والله صاحب قريش ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن ان وجدت سبيلا . قال ابن الأثير في أسد الغابة : وأسلم وشهد الفتح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد فيه . ومن تمام هذه المعجزة أن أصبح أهل مكة يسمعون صوتا عاليا ولا يرون صاحبه يصيح قائلا :

جزى الله رب الناس خيرا جزائه

رفيقي حسلا خيمتي أم معبد

(م ٨ - هدى السيرة)

هما نزلا بالبر ثم تروحا
فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهمين بنى كعب مكان فتاتهم
ومقعدا للمؤمنين بمرصد ...

ولم يزد خروج النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة قريشا الا امعانا
في الكيد واجماعا على الشر ، لقد غاظها ذلك الخروج غيظا شديدا اذ باء
تدبيرها بالخسران ، فاتفقوا على أن يجعلوا مائة ناقّة لمن يستطيع
أن يرده اليهم .

حدث سراقّة بن مالك بن جعشم قائلًا : لما خرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم من مكة مهاجرا الى المدينة جعلت قريش مائة ناقّة لمن يرده
عليهم ، فبينما أنا جالس في نادى قومي اذ أقبل رجل منا حنى وقف علينا
فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفا ، انى لأراهم محمدا
وأصحابه . قال : فأومأت اليه بعينى أن أسكته ، ثم قلت : انهم بنو فلان
يبتغون ضالة لهم . قال : لعله ، ثم سكت .

قال : ثم انى مكثت قليلا ، ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسى
فقيد لى الى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى فأخرج لى من دبر حجرتى ،
ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى ، ثم أخرجت
قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره ، قال : وكنت أرجو أن أرده
الى قريش فأخذ المائة ناقّة .

قال : فركبت على اثره ، فبينما فرسى يشتد بى عثر فسقطت عنه ،
فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى
أكره ، قال : فأبيت الا أن اتبعه ، فركبت فى اثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم
عثر بى فرسى فذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنسه ، ثم انقزع يديه
من الأرض وتبعهما دخان كالأعصار ، قال : فعرفت حين ذلك أنه قد منع منى
وأنه ظاهر . فناديت القوم فقلت : أنا سراقّة بن جعشم انظرونى اكلمكم
فوالله لا أريكم ولا يأتىكم منى شيء تكرهونه . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لأبى بكر ، قل له : وما تبغى منا ؟ فقال لى ذلك أبو بكر ،

فقلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك ، قال : اكتب له يا ابا بكر ، فكتب لى فى عظم أو فى رقعة . ثم القاه الى فأخذته فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئا مما كان .

قال : حتى اذا كان فتح مكة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين والطائف خرجت ومعى الكتاب لآلقاه ، فلقيته بالجعرانة ، فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعوننى بالرماح وية ولون : اليك اليك ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته والله لكأنى أنظر الى ساقه فى غرزه كالجارية ، فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى أنا سراقه بن جعشم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه ، قال : فدنوت منه فأسلمت ، ثم تذكرت شيئا أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره الا أنى قلت : يا رسول الله ، الضالة من الابل تفتش حياضى وقد ملأتها لابل . هل لى من أجر فى أن أسقها ؟ قال : نعم .

هذه بعض معجزات صاحب النبى صلى الله عليه وسلم فى رحلته تلك التى فرق الله بها بين الحق والباطل ، وكانت ايدانا بظهور هذا الدين الذى عم نوره الآفاق وتظهرت به الدنيا من أرجاسها .

النبى فى المدينة :

تسامع أهل المدينة بخروج النبى صلى الله عليه وسلم اليهم فكانوا يخرجون كل يوم الى الحرة ينتظرون على شوق مقدمه السعيد ، ولا يعودون حتى يمسه حر الظهيرة ، الى أن كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتظروا حتى غلبتهم الشمس فعادوا ، فما أن دخلوا بيوتهم حتى سمعوا يهوديا — وكان يرى ما يصنعون كل يوم — ينادى بأعلى صوته : يا بنى قيلة — جسدة الأنصار التى ينسبون اليها — هذا حدكم — حظكم السعيد — قد جاء ، فخرجوا يهرعون يتلقونه بأرواحهم ويحيطونه بقلوبهم وقد ملأت العبرات ميونهم ، وود كل منهم لو استطاع أن يضم النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه بين جوانحه ، انه الحب الكبير الذى تشريته قلوبهم وانطوت عليه أفئدتهم ، وانه الايمان العظيم بالله ورسوله

الذى عبر عنه القرآن أروع تعبير وصوره أجمل تصوير « **والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » الحشر ٩ .

ووقفت الفتيات — في رواية — يضربن بالدفوف ويوقعن أجمل نشيد من الأعماق :

| | |
|-------------------|-------------------|
| طلع البدر علينا | من ثنيات الوداع |
| وجب الشكر علينا | ما دعا لله داع |
| أيها المبعوث فينا | جئت بالأمر المطاع |

وكان أول نزوله في قباء حيث أقام فيها عدة أيام ، نازلا على كلثوم ابن هدم ، وأسس مسجد قباء الذي أثنى الله عليه في كتابه الكريم : « **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** » التوبة ١٠٨ .

واهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالمسجد في أثناء إقامته القصيرة بقباء يدل على أهمية الصلاة والاجتماع عليها .

واستقبل النبي صلى الله عليه وسلم بقباء على بن أبى طالب الذى قدم المدينة بعد أن أدى عن النبي صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده لأصحابها .

ثم واصل النبي صلى الله عليه وسلم رحلته الى المدينة حيث استقر بها المقام في يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول في العام الهجرى الأول .

وكان الأنصار يلتفون حول ناقتسه ، كل منهم يتطلع بشوق وحرص شديدين على أن يتحرف بنزول النبي صلى الله عليه وسلم عنده ، ويحاولون تجاذب زمام الناقة طمعا في ذلك ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : خلوا زمام الناقة فانها مأمورة . . وهذا دليل على أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بيده ، ولكنه بيد ربه الذى يرقب خطواته

ويهيئ له الأمور ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يردد قول ربه :
« رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك
سلطاناً نصيراً » .

وسارت الراحلة المباركة في فجاج يثرب وطرقاتها في يوم من أسعد
أيامها تلتقي فيه الأرض بالسماء ، وتحرس الملائكة خطوات الراحلة ،
والقلوب تهفو من حولها والأرواح تود لو أنها حملت الناقة ومن عليها .
حتى بركت الناقة أمام دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، في مريد
لغلامين يتيمين .. وخرجت جوار من بني النجار ينشدن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال لهن النبي صلى الله عليه وسلم : أنجبني ؟ فقلن : نعم : فقال :
الله يعلم أن قلبي يحبكن .

واحتل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه رحل النبي صلى الله عليه
وسلم وأدخله بيته ... ونزل لديه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتخذ
المريد مسجدا بعد أن اشتراه من صاحبه .

وقد اشترك النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في بناء المسجد ،
حتى كان الصحابة يرتجزون بذلك وهم يشيدون المسجد قائلين :

لئن قممنا والنبي يعمل

لذاك منّا العمل المضلل

ويقولون :

لا عيش الا عيش الآخسرة

اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

ونسب ابن هشام هذا القول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا دليل آخر على أهمية المسجد وأهمية الصلاة ، فقد عمل فيه
النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ، فالمساجد لله وما أشرف العمل
في مسجد يرفع فيه اسم الله ، وما كانت الرسالة التي جاء بها الا لتحقيق

هذا الهدف الأسمى ، ولم يستوح النبي صلى الله عليه وسلم في بناء مسجده
الروح الاسلام الذى يتسم بالبساطة واليسر والبعد عن الغلو والزينة .

وعلى هذا الأساس يجب أن تكون مساجدنا تأسيساً بمسجد الرسول
صلى الله عليه وسلم . ان المسجد — كما يقول الدكتور حسين مؤنس
في كتابه المساجد — مجرد مكان طاهر يلتقى فيه العبد بالخالق ، فهو مساحة
نظيفة مستوية مطهرة يحيط بها سور ، وظيفته تعيين حدود ذلك المكان
المطهر المخصص للصلاة ، ولم تكن هناك حاجة الى تغطية هذه المساحة
بستف ، فاكفى النبي صلى الله عليه وسلم بتسقيف جزء منها في مقدمتها
على نحو بسيط جداً ، جذوع نخل نصبت صفين بموازاة الجدار الشمالى ،
ثم غطى ما فوقها بهريش من خشب وسعف وغصون شجر ، ولم تكن به
فرش ، ولكنه فرش فيما بعد . ولكن هذا البناء المتواضع جداً هو الذى
تخرج فيه جنود الاسلام وعباقرته ، فقد كان للمسجد رسالته السماوية ،
كان بيتاً للعبادة ومدرسة للتعليم وملتقى كريماً للنبي بأصحابه حيث أشربوا
سعاليمه وحملوا رسالته وخرجوا بها الى الآفاق .

ولأن المسجد له حرمة واحترامه سن للمسلم أن يحييه عند دخوله
بصلاة ركعتين ، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من أن يتخذ مكاناً للرقود
أو يضع فيه المسلم رجلاً على أخرى وهو مستلق على ظهره ، ومن الآداب
التي يجب أن تراعى في المسجد ما رواه ابن ماجه : خصال لا تنبغى
في المسجد ، لا يتخذ طريقاً ولا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس
ولا ينثر فيه نبل ولا يمر فيه بلحم نبيء ولا يضرب فيه حد ولا يقتضى فيه من أحد
ولا يتخذ سوقاً .

ألا وان المساجد حارسة عالم الاسلام وهى مظهر قوته ومجده ،
فعلى المسلمين الاكثار منها وتنشئها وتعميرها امنناً لقول الحق :
« إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة
ولم يَخْشُ إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » التوبة ١٨ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب أصحابه في جمعهم ، كما كان
يخطبهم في مختلف المناسبات والظروف ومن نماذج خطبه في جمعه ما رواه

ابن اسحاق : « ان الحمد لله وحده ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . ان احسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد افلح من زينته الله في قلبه ، وادخله في الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من احاديث الناس انه احسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تنقس عنه قلوبكم ، فانه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، وقد سماه الله خيريه من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ومن كل ما أوتى الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن ينكس عهده . والسلام عليكم . »

كلمات قلائل ولكنها جماع المعاني الجمّة التي لا تحصى ولا تعد ، فهي أصل من أصول الحكمة ، ولعل الصوفية الأوائل استقوا من هذا الحديث معاني الحب لله والفناء فيه ، نهدي هذه الخطبة الجامعة الى خطباء مساجدنا اليوم الذين يحلو لهم أن يطيلوا فيبدئوا ويعيدوا حتى تمل الأسماع وتنصرف الأذهان ويخرج الناس من صلاة الجمعة ولم يستفيدوا من خطبة الامام الطويلة شيئاً .

الأذان :

ولتكتمل للصلاة أهميتها كان لابد من الاعلام بها حين يدخل وقتها ، وكان المسلمون قد تشاوروا في ذلك ، فمنهم من أشار باتخاذ الناقوس ، وبعضهم أشار بالبوق وبعضهم أشار بالنار ، ولكن ذلك رفض كله ، وكانوا يجتمعون لوقتها بغيرشارة تتخذ لذلك حتى تشاوروا ... و رأى عبد الله بن ثعلبة بن عبد ربه في منامه رؤيا تعلم منها الأذان بصيغته المعروفة ، فأخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : انها رؤيا حق علمه بلالا فانه أندى منك صوتا ، فلما أذن بلال سمعه عمر وهو في بيته فجاء يقول : يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله على ذلك .

ولعل الحكمة في أن الأذان جاء عن طريق صحابيين جليلين لتتسع حركة التشريع فيما بعد على يد المجتهدين والفقهاء من أمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد ورد في فضل الصحابة ما يرفعهم الى منزلة من الشفافية العليا والحدس الصادق والرؤى الحقة التي هي جزء من النبوة ، ومن ذلك ما يروى : « ان من أمني محدثين منهم عمر بن الخطاب » ولقد ورد القرآن موافقا لرأى عمر في بعض المواقف . .

ويمكننا أن نفهم من الحديث تفضيل ذى الصوت الحسن في ابلاغ الناس بوقت صلاتهم .

النبي في بيت أبي أيوب :

وما أسعد ابا ايوب الا نصارى رضى الله عنه — وهو خالد بن يزيد — ما أسعده بضيافته للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع الله له الحير كله ، وأصبح بينه قبله المسلمين جميعا يؤمنونه ليليقوا فيه بحبيهم في غير اوقات الصلاة ، وقد أثر النبي صلى الله عليه وسلم ان يكون مثامه في بيت مضيفه في الطابق الأول لانه ارفق به وبمن يزورونه . قال أبو أيوب وهو يحدث عن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته قائلاً : « لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في اسفل البيت وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله بأبي انت وامى انى لاكره وأعظم أن اخون فوقك ونكون نحتي ، فإظهر انت فكن في الاعلى ، ونزل نحن نكون في السفلى ، فقال : يا ابا أيوب ، ان الارفق بنا وبمن يفشما ان نكون في اسفل البيت . قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سعله وكنا فوقه في المسكن ولقد احسرت لما جره معها ماء يوما فميت انا وأم أيوب يمطيفه لنا ، ما لنا نحافه غيرها نتشف بها الماء خوفا ان يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه تنىء يؤديه ، فنزلت اليه وانا مشفق فلم ازل اسنعطفه حتى انتقل الى العلو . قال : وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به اليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغى البركة ، حتى بعثنا انيه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا له بصلا ونوما ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثر ، فجئنه فزعا فقلت : يا رسول الله بأبي انت

وأمرى رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيهم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة فقال : انى وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه ، قال : فأكلناه ، ثم لم نضع فى طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد » .

ان أبا أيوب رضى الله عنه ينقل لنا فى هذا الحديث الشريف صورة كاملة من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فى تواضعه ورفقه ورحمته وكياسته ، ومن أخلاق الأنصار الذين نفانوا فى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم واثارهم له ولاخوانهم المهاجرين .

ولقد تجلّى اثارهم فى حرص أبى أيوب على راحة النبى صلى الله عليه وسلم ورغبته فى التبرك به والاسفاح بفضلته وأثره ، لقد كان يتيهم أثر أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم فيأكل مما مسته عسى أن تناله البركة ويمسه الخير والفضل .. وعلى هذا فالتبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه واثار الصالحين من أمته أمر مشروع غير مستنكر ، والتوسل كذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ليس أمراً مستنكراً بل هو أمر مشروع ، وكيف لا يتوسل الانسان بجاهه صلى الله عليه وسلم وجاهه عند الله عظيم ؟ وان كان فى الحقيقة لا فرق بين الشرك والتوسل . وقال الدكتور محمد سعيد البوطى : « ولا يذهب بك الوهم أن تقيس التوسل على التبرك وأن المسألة لا تعدو وان تكون استدلالاً بالقياس فان التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد ، وهو التماس الخير والبركة عن طريق التوسل به ، وكل من التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم والتوسل بآثاره أو نيايه أفراد أو جزئيات داخله تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذى ثبت حكمه بالاحاديث الصحيحة ، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى بتنقيح المناط عند علماء الأصول » ولقد قال الدكتور البوطى ذلك بعد أن ساق بعض الآثار النقلية التى تثبت حرص الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم على التبرك بآثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، من ذلك ما رواه مسلم فى كتاب الفضائل فى باب طيب عرقه صلى الله عليه وسلم : « انه عليه الصلاة والسلام كان يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها ، وليست هى فى البيت ، فجاء ذات يوم فنام على فراشها ،

فجاءت أم سليم وقد عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت عتيدها (العتيدة صندوق صغير نحفظ فيه المرأة ما يعز من متاعها) فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، فأفاق النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا ، قال : أصبت .

وليس العقل المستنير يمنع التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم .
حيا وميتا فهو أقرب الخلق الى الله وأحبهم اليه وأفضلهم عنده ، وقد أثر عن خالد بن الوليد أنه كان يحتفظ بشعرات من ناصية الرسول صلى الله عليه وسلم في قلنسوته يخوض بها معاركه ويتفاعل بها في اكتسابه النصر الذي يتحقق له دائما .

تنظيم الأوضاع بالمدينة :

أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يضع قواعد تضمن الاستقرار في المدينة وتنظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، ولذلك عقد معاهدة تضمن عدم الاعتداء بين المسلمين واليهود ؛ ذلك أن المدينة كان يقيم بها طوائف من اليهود يعيشون على افساد العلاقات بين العرب ، ويثيرون الخلافات بينهم ، وتعد هذه المعاهدة نموذجا فريدا في حسن التنظيم والتعامل بين الناس ، فقد نصت على أن المسلمين جميعا أمة واحدة مهاجرينهم وأنصارهم متكافلون فيما بينهم وهم يد على من سواهم ، وعلى أن اليهود أحرار في دينهم ، ويضمن لهم المسلمون حريتهم في ذلك بل يدفعون عنهم عدوهم ما داموا محترمين لحق الجوار وغير مسيئين للمسلمين .

وقد وضعت صحيفة المعاهدة شروطا والتزامات يجب الوفاء بها ، كما وضعت محذورات يجب تجنبها والاحتراز منها . وكان لابد من هذه الوثيقة حتى يضمن المسلمون الاستقرار والهدوء ويتمكنوا من اعلان دينهم والتبشير به في الأفاق دون خوف أو قلق ، وحتى تقطع الطريق على قوم عرفوا منذ أقدم العصور بالشقاق والفساد والعدوان .

كان لابد من هذه الوثيقة المكتوبة بين المسلمين واليهود الذين نفسوا

على الأنصار إسلامهم وأخذوا يبنون أحقادهم وينشرون سمومهم مستظهريين في ذلك ببعض المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر .

ولقد أسلم من اليهود بعضهم ، منهم عبد الله بن سلام وكان حبرا عالما ، وحين أسلم طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يخفيه ويستدعى اليهود فيسألهم عنه ، فلما جاءوا قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أى رجل الحصين (عبد الله) بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم فقال لهم : يا معشر يهود ، انقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله اكمل لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، وإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأؤمن به وأصدقته وأعرفه . فقالوا : كذبت ثم واقعوا به . فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟ .

وأظهر عبد الله بن سلام إسلامه وإسلام أهل بيته ، وكذلك أسلمت عنده خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها .

ومنهم مخريق — وكان عالما حبرا من أحبارهم — تيقن أن النبي صلى الله عليه وسلم هو ما أثبتت صفته التوراة ، فأسلم يوم أحد وقاتل مع المسلمين حتى قتل ، وكان قد أوصى بكل ماله للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء ، فوضعه فى سبيل الله .

ولكن أغلبهم على رغم علمهم بصديق النبي صلى الله عليه وسلم فقد استمروا فى عداوته بغيا وحسدا ووصفوا من آمن منهم بأنهم شرارهم . قال ابن اسحاق : ولما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأخوه أسيد وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم قالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد ولا اتبعه الا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا الى غيره ، فأنزل الله قوله تعالى : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتولون آيات الله آناء الله وهم يسجدون » آل عمران ١١٣ .

وفى قمة العمل التنظيمى كانت المؤاخاة التى عقدها النبي صلى الله

عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار قائلا لهم : تأخوا في الله أخوين أخوين ، فجعل حمزة وزيد بن حارثة أخوين ، وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وأبا بكر وخارجة بن زهير أخوين ، وعمر بن الخطاب وعثمان ابن مالك أخوين ، وأبا عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين ، وأخى صلى الله عليه وسلم بينه وبين علي بن أبي طالب قائلا له : أنت أخى في الدنيا والآخرة .

وبهذه الأخوة التي أصبحت مثلا أعلى في الوفاء والايثار سار المسلمون على طريق الله ورسوله يوطد الحب مكانه في قلوبهم ، وحلت هذه الأخوة محل الثوبة والرحم وبمقتضاها كان التوارث بينهم حتى نزل قوله تعالى : **« وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ »** (الأنفال ٧٥) .

وأصبحت هذه الأخوة منطلقا عاما بين المسلمين جميعهم ، فلم تعد منحصرة في حدود الاثنيتية بل شملت أفراد المسلمين جميعا ، وبذلك نادى القرآن الكريم حيث ذكرهم في معرض النعمة قائلا لهم : **« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا »** آل عمران ١٠٣ — ونادى بها النبي صلى الله عليه وسلم داعيا أمتة قائلا لهم : **« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »** ويقول لهم في وصاياه : **« وكونوا عباد الله إخوانا »** .

ولقد أصبحت هذه الأخوة مسئولية كبرى يحرص عليها كل مسلم ويعمل على صيانتها بكل ما يملك من قوة ، لأنها هي الأساس المتين الذي ترس على قواعد الأمة الاسلامية الكبرى وتستمر بعد ذلك ، وما تأخرت الدولة الاسلامية الا حين فرطت في هذا الشعار العظيم ، فحل الجفاء محل الوفاء ، وجاء الخلاف مكان الوفاق .

بهذين العاملين الكبيرين : الاخاء والمعاهدة سار المسلمون آمنين فيما بينهم من الخلافات ، وفيما بينهم وبين غيرهم ، وأصبح المسلمون يظلمهم الايثار والمودة ويحرسهم الوفاء والآفة . آمنين من جهة اليهود الذين كبلتهم المعاهدة فلم يستطيعوا — الى حين — أن ينفصوا على المسلمين حياتهم أو يضعوا العراقيل في طريقهم .

المنافقون :

ولكن الله ابتلى المسلمين في المدينة بطائفة جاحدة كانت أشق عليهم من مشركي مكة ، هي طائفة المنافقين ، ولقد ظل هؤلاء المنافقون — الذين أنزل الله في شأنهم سورة برمتها في القرآن الكريم عدا ما تنائر في سوره من آيات بينات تفضح شأنهم وتدمغ خبثهم — مثار ماعب للمسلمين ، وكان رأس النفاق في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول . كان المنافقون يتواثقون سرا مع اليهود ويتضامنون معهم ضد المسلمين ، ولكن الله كان ينجي نبيه وأصحابه منهم .

وقد خذل الله المنافقين واليهود بخطوة النبي الجريئة حين أجلى اليهود عن المدينة بعد تقضيم المعاهدة التي أبرمها معهم ، ولعلنا نستفيد من قصص هؤلاء المنافقين وجوب التنبيه لهم في حياتنا وتطهير صفوفنا منهم وهم — لحكمة يعلمها الله — موجودون في كل زمان ومكان ، وهم السوس الذي ينخر في جسم أى دولة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله » .

هذه حكمة الله العالمة التي أشار اليها القرآن الكريم : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون » الأنعام ١٢٣ .

ذلك نوع من البلاء الذي يبتلى الله به الأمم لتظهر عن طريقه قوة العزائم وصدق المخلصين وجلال الاخلاص وجمال النقاء .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف هؤلاء المنافقين واحدا واحدا ، ولكنه كان يكل سرائرهم الى الله محافظة على وحدة المسلمين واحتراما لمشاعر من حسن اسلامه من ذويهم ، الا أنه كان يضطر كثيرا الى مواجهتهم بالشدة حين يحتاج الأمر الى ذلك ، وبخاصة حين ينزل القرآن فاضحا نياتهم وكاشفا خباياهم ، ولقد اضطر الى طردهم مرة من المسجد حين رآهم ~~يحدثون سرا فيما بينهم~~ وقد لصق بعضهم ببعض . .

تحويل القبلة :

وظهر عداة اليهود واضحا في أمر تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة المشرفة ، وكان ذلك في منتصف شعبان بعد مرور ثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوق الى ذلك ويردد نظره الى السماء طالبا من الله تحويل القبلة ، فاستجاب الله اليه ، فقال اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ وظاهرهم المنافقون حتى لقد ارتد بعض من أظهر اسلامه ، ونزل في شأن تحويل القبلة قوله تعالى من سورة البقرة : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ... » الى آخر الآيات الواردة في ذلك . آيات من ١٤٢ : ١٥٠ .

صوم رمضان وفرض الزكاة :

وفي الشهر الذي حولت فيه القبلة أوجب الله رمضان شهرا يصوم فيه المسلمون ، ولا يجهل أحد حكمة الصيام ، ففيه صحة للبدن والروح ، وفيه تحقيق للتقوى التي أراد الله أن يربى عليها عباده المؤمنين ، ولذلك قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » البقرة ١٨٣ ، ولعل السر في اختيار هذا الشهر هو نزول القرآن فيه فأراد الله أن يربط بين الناس وبين قرآنهم حين يصومون عن الشهوات ويتجردون عن المطامع ويقطعون أوقاتهم بمطالعة قرآنهم فيكتسبون بذلك صفاء ويزدادون من الله قربا فيناجونه ويتضرعون اليه ، مصداقا لقوله تعالى : « وإذا سألك عبادي عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » البقرة ١٨٦ — وقد رشد حقا من استعان بربه واستهداه سواء السبيل .

ويكمل صوم الانسان بصدقة الفطر التي شرعها الله للمسلمين جميعا يخرجونها بسخاء نفس وطيب قلب ، وتمت نعمة الله على عباده في تربيته لهم وتعريفهم بابيه الذى يلجون اليه منه بفرضية الزكاة التي تخلص النفوس من أثرها وتطهرها من أرجاسها مصداقا لقول الحق تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » التوبة ١٠٣ ، وقد جعل الله لهذه الزكاة مصارف جمعها قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين

عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل
فريضة من الله والله عليم حكيم» التوبة ٦٠ .
وقد فرضت الزكاة في العام نفسه الذي فرض فيه الصوم .

الكفاح العملي :

باستقرار المسلمين في المدينة انتقلوا الى مرحلة جديدة فعلا ،
فقد شعروا بأنهم أصبحوا قوة لها وزنها ، وأصبحوا في عزة ومنعة تمكنهم
من اعلاء كلمة الله وأظهارها ، وقد أذن الله لهم في الجهاد والدفاع عن أنفسهم
بعد أن كان الله يأمرهم بالصبر والاحتساب .

لقد مكثت الدعوة الإسلامية في مكة ثلاث عشرة سنة ربي النبي صلى
الله عليه وسلم في خلالها رجالا يستطيعون الانتصار على أنفسهم ويرتفعون
فوق الاستغزازات ، كان في مقدور المسلمين في مكة أن يدفع الواحد منهم
عن نفسه ويرد السيئة بمثلها — وقد أودع الله في العرب أنفة وحمية —
ولكنه كان يتوقع حين يدفع أن يقتل ، وبذلك توءد الدعوة في مهدها ولا يمر
طويل من الزمن حتى يكون عدد المسلمين قد نفذ أو كاد ، ولذلك أمرهم الله
بالصبر عن طريق الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم « **واصبر لحكم ربك
فإنك بأعيننا** » الطور ٤٨ « **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل
ولا تستعجل لهم** » الأحقاف ٣٥ ، الى غير ذلك من الآيات .

لقد كان هم النبي صلى الله عليه وسلم أولا تربية الرجال واعداد
الأبطال ، واستغرقت هذه التربية طوال ثلاثة عشر عاما هي فترة الدعوة
في مكة ، وبناء الرجال ليس أمرا سهلا ولكنه أمر أصعب من بناء القلاع ،
وفتح النفوس والعقول أشد من فتح المدن والبلاد .

في خلال هذه المدة كان المسلمون يتعلمون من نبيهم صلى الله عليه
وسلم ضبط النفس وقوة الاحتمال والعفو عند المقدرة ودرء السيئة بالحسنة
وغيرها من الصفات المثلى والأخلاق العليا التي تمكنت فيهم ، واجتمعت لهم
منها قوة الشكيمة والارادة .

نزلت أولى آيات الجهاد بعد الهجرة « **أذن للذين يقاتلون بأنهم**

ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير « الحج ٢٩ ، ثم تتابع نزول الآيات التي تأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** » البقرة ١٩٠ ، ثم بعد ذلك بتأديب المشركين وتطهير الأرض من رجسهم في كل مكان جزاء لبغيهم « **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** » التوبة ٣٦ .

مشروعية الجهاد :

ولم يشرع الجهاد في الاسلام للعدوان ، ولكنه شرع لحكمة عليا وغاية سامية ، ويكفى في الرد على من يزعم أن الجهاد شرع للعدوان قوله تعالى : « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** » البقرة ١٩٠ . لقد شرع الله الجهاد دفاعا عن النفس وقضاء على الفتن وتأديبا لأولئك الذين يصدون عن سبيل الله ، ومنذ أن استشعر المسلمون حلاوة الايمان وجمال الهداية وأصبحوا واثقين من قدرتهم على انقاذ الناس مما هم فيه من عمى وضلال أصبح من واجب الالتزام الأدبي الأخذ بأيديهم الى طريق النور والهداية .

لقد انبعث الجهاد من منطلق الرحمة ، فمن الرحمة تقليم أظافر البغى والظلم والشرك ، ولا يستطيع أن يقول أحد أن قتل الذي يبعث في الأرض فسادا مجانب للرحمة ، وما يفعله الكافرون والمشركون إنما هو من هذا القبيل ، إنها الفتنة التي يقول الله فيها : « **والفتنة أشد من القتل** » البقرة ١٩١ .

ولقد حمل المسلمون السيف وساروا به من هذا المنطلق ، ولم يكن السيف وسيلة انتشار الاسلام فقد انتشر الاسلام بروحه وتعاليمه وأخلاق ذويه ، ولو انتشر الاسلام بالسيف لترك الناس الاسلام بعد وضع السيف ولكن الملاحظ أن البلاد التي فتحها المسلمون حملت لواء الاسلام والدفاع عنه والاجتهاد فيه والتبريز في علومه . قال العقاد في كتابه عبقرية محمد : « **أى ارباب ؟ وأى سيف ؟ ان الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف ، وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون**

عننا ولا يصيبون أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم ليأذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره ، فهم لم يسلّموا على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأثوياء المتحكمين ، ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الأرهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطيّلوا على الناس بالسلطان ، فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع .

وقد كان الأذن بالقتال في الثاني عشر من صفر في السنة الثامنة من الهجرة ، وفي ضوء ما نزل من آيات كريمة تدعو الى الدفاع والجهاد وضعت مبادئ توضيح حدود ذلك أشار إليها الشيخ محمد الخضري في كتابه نور اليقين :

١ — اعتبار مشركي قريش محاربين لأنهم بدعوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين .

٢ — متى رأى من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل مصداقا لقوله تعالى « **وَمَا تَخَافُنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَاَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ** » الأنفال ٥٨ .

٣ — متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشا قوتلت حتى تدين بالاسلام .

٤ — كل من بادأ بعدوان من أهل الكتاب كالتصاري قوتل حتى يذعن للاسلام أو يعطى الجزية .

٥ — كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا يحقه ، والاسلام يقطع ما قبله .

الغزوات والسرايا

غزوة ودان :

(ودان قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ستة أميال) . يقول علماء السيرة أن الغزوة ما قام النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه فيها ، والسرية ما كلف أحد قواده القيام بها .

وأول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم هي غزوة ودان ، وكانت في شهر صفر على رأس اثني عشر شهرا من هجرته صلى الله عليه وسلم ، وكان يريد قريشا وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناف من كنانة ، فوادعته ضمرة ، وعاد ولم يلق كيذا .

غزوة بواط :

وكانت في ربيع الأول من السنة الثانية عقب عودته من غزوة ودان ، فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن عيرا لقريش بقيادة أمية بن خلف آية من الشام ، فسار إليها في مائتين من المهاجرين ، وكان يحمل لواءه سمع بن أبي وقاص ، ولكن العيرنجت فرجع ، فقد كان المشركون يأخذون جانب الحذر خوفا من اعتراض المسلمين . وبواط جبالان من جبال جهينة ، وهما فرعان لأصل واحد على مسافة أبراد من المدينة جهة ينبع .

غزوة العشيرة :

وكانت في جمادى الأولى من السنة نفسها ، فقد خرجت قريش إلى الشام في أعظم تجارة لها جمعت فيها كل أموالها برئاسة أبي سفيان بن حرب ، فخرج لها النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن العير كانت قد مضت في طريقها ، فعاد النبي صلى الله عليه وسلم — وقد حالف بنى مدلج وحلفاءهم — منتظرا عودة العير من الشام ، والعشيرة بالتصغير مكان في بطن ينبع .

سرية عبد الله بن جحش :

وكانت في رجب ، وعدد جنودها ثمانية يقودهم عبد الله بن جحش ،

أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم كتابا وأمره ألا يفرضه إلا بعد مسيرة يومين ، وبعد اليومين فتحه فاذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل « نخلة » — مكان — فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم .

وظهرت حكمة الرسول واضحة في إخفاء خبر الكتاب حتى لا يعلم أحد من المنافقين أو اليهود وجهة الحملة فيخبروا قريشا .

وسار عبد الله بمن معه ، وفي أثناء سيره أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلنا بطلبانه .

ونزل عبد الله بن نخلة لمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة ، فأجمع أمر المسلمين على قتال القرشيين فحملوا عليهم وقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت واحد منهم ، وعاد عبد الله بن جحش بالأسيرين والعير حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وشاع في المدينة أن المسلمين قاتلوا في الأشهر الحرم ، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ما أمرتكم بالقتال في الأشهر الحرم ، فندم عبد الله وصحبه على ما حدث ، ولكن الله أنزل قوله تعالى « يسألونك عن الأشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل » البقرة ٢١٧ . فكان ذلك تسرية لهم ، وأراد القرشيون فداء أسيريهما فترى النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يعود سعد وعتبة ، فلما عادا قبل الفدية في الأسيرين ، فأما الحكم فأسلم ، وأما عثمان فعاد كافرا إلى مكة .

غزوة بدر الكبرى :

كانت في رمضان من السنة الثانية ، وقد نزل في شأنها آيات مبينات منها : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فانقوا الله لعلكم تشكرون » آل عمران ١٢٣ ولئن كانت هذه الآية قد نزلت في موقعة أحد لتذكر المؤمنين بمنة الله عليهم في بدر فهناك آيات كثيرة أخرى تحدثت عن نعمة الله الكبرى على المؤمنين ونصره الذي منحهم إياه في أول مجابهة مسلحة بينهم وبين

أعدائهم ، وكان للمشركين في هذه الغزوة من المسلمين منزلة سامية عند الله حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة .

ترصد النبي صلى الله عليه وسلم غير قريش وهي راجعة من الشام وحين علم برجوعها قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : هذه غير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم لثلاث ليال خلون من رمضان ، وقد ولى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، معهم فرسان وسبعون بعيراً يعتقبونها ، وحمل اللواء مصعب بن عمير .

وحين علم أبو سفيان بخروج المسلمين للقائه استأجر رجلاً ليستنفر قريشاً لإنقاذ غيرها ، فاقبل هذا الرجل على أعلى مكان يشرف على مكة ويقول : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ، وأخبرهم الخبر ، فثاروا وأجمعوا على أن يسيروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقضهم وقضيضهم . في الوقت الذي تمكن فيه أبو سفيان أن يخالف عن الطريق ويعود سسالمًا بالعير .

ولكن عودته سسالمًا لم تحل دون انفاذ قريش ثورتها ، حتى قال أبو جهل : والله لا نعود حتى تأتي ماء بدر — قرية على مسافة ١٥٠ كم بين المدينة وساحل البحر — ونقيم أياماً فننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان ، ولا تزال العرب تسمع بخروجنا هذا فتتظلم تهابنا وتحترمنا .

وخرج المشركون في عدة سابغة وزهو كبير وجيش يقدر بتسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد وصل إلى بدر قبلهم وعلم فوات القافلة وخروج قريش بجموعها له ، فاستشار أصحابه فأجمعوا على الثبات وعدم التراجع على رغم قلة عددهم وضعف عددهم ، قال المقداد بن عمرو : والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون ، ولكننا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون .

وسر النبي صلى الله عليه وسلم من قول المقداد ودعا له بخير ، ولكنه عاد يقول : أشيروا على أيها الناس ، فقام سيد الأنصار سعد بن معاذ وقال : لكأنك تعيننا يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، أنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ..

الاستعداد للمعركة :

سر النبي صلى الله عليه وسلم من قول سعد وأخذ يستعد للقاء ، وكان الحباب بن المنذر حين رأى مكان المسلمين قد قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هل هذا منزل أنزلكه الله ؟ أم أنها الحرب والرأى والمشورة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل هي الحرب والرأى والمشورة . فقال الحباب : اذن علينا أن نتقرب من مكان الماء وهناك نقيم حوضا نحجزه فيه ونمنع قريشاً منه فنشرب ولا يشربون ونستسقى ولا يسقون ، فاستحسن النبي صلى الله عليه وسلم رأيه وفعل بها أشار .

المعركة :

واشتد الظمأ بقريش فأقسم الأسود بن عبد الأسد المخزومي أن يأتي الحوض ويشرب منه أو يهدمه أو يهوت دونه ، واندفع بفرسه حتى دنا من الحوض ، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وجندله بسيفه ، فالتهمت حماسة المشركين حين رأوا صاحبهم يشخب دمه ، فخرج ثلاثة منهم هم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة طالبيين من يبارزهم ، فخرج إليهم عبدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب فمقتلوا هؤلاء المشركين .

وحين رأى المشركون ما حل بفرسانهم أخذوا يرشقون المسلمين

عودة مظفرة :

وكان المنافقون واليهود قد أرجفوا برسول الله صلى الله عليه وسلم كعادتهم في كل زمان ومكان ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم لاهل المدينة من يبشرهم بالنصر المظفر ، فوصلت البشرى وقد فرغ المسلمون في المدينة لتوهم من دفن ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم رقية زوج عثمان ابن عفان رضى الله عنه . فخذل الله المنافقين واليهود وأخزاهم بنصر المسلمين ، وعاد النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة شاكرًا نعمة ربه الذى وهبه النصر على عدوه ، واستقبلته الولاة بما استقبلته به يوم هجرته الى المدينة ، حيث أخذن ينقرن على الدفوف وينشدن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ووزع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم على حسب ما نزل من قرآن كريم في سورة الأنفال ، وهدايت نفوس المسلمين واطمأنت قلوبهم وهدايت خواطرم بما أسعدهم الله به من نصر وبما وضعه لهم من حدود وتشريعات في أمر الفء والغنائم .

الأسرى :

واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمر الأسرى ، فأشار عمر بن الخطاب بقتلهم لأنهم قاتلوا رسول الله وآذوه وأخرجوه من بلده ، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، والذى كان لا يخير بين أمرين الا اختار أرفقهما وأيسرهما مال الى رأى أبى بكر الذى قال له : يا رسول الله ، هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقتهم وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضدا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله ليلين قلوب أقوام حتى

تكون ألين من اللين وان الله ليثدّد قلوب أقوام حتى نكون أشد من الحجارة ، وان منلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فإناك غفور رحيم ، وان مثلك يا عمر كمثلك نوح قال : رب لا تذّر على الأرض من الكافرين ديّارا .

وقبل النبي صلى الله عليه وسلم الفداء في الأسرى ، في كل أسير أربعمائة ألف درهم ، ومن لم يكن له مال فعليه أن يعلم عشرة من غلمان المسلمين يعلمهم القراءة والكتابة ان كان يحسن ذلك .

عظة وعبرة :

ومن خلال عرض هذه الغزوة تتجلى لنا مواقف غاية في الحكمة وحافلة بالعبرة منها ..

— حين خرج المسلمون الى هذه الغزوة لم يكن هدفهم القتال ، ولكن كان هدفهم الاستيلاء على العير باعتبار أن قريشا كانت قد صادرت أموال المهاجرين وديارهم ، فالاستيلاء على العير انما هو جزء مما للمسلمين في ديار الكافرين ، ولأن المسلمين لم يكن في اعتقادهم القتال تخلف كثير منهم ، حتى قال في ذلك بعض المسلمين حين بدأ القتال : يا رسول الله نبني لك عريشا بعيدا عن رمى سهام المشركين حتى لا نطالك ، فان في المدينة من المسلمين من هم بحاجة اليك ولو علموا أن في الأمر حربا ما تخلفوا عن الخروج معنا ، فان كان النصر حليفنا كان الغرض المنشود وان كانت الهزيمة لحقت بالمدينة والمسلمين بها .

— وتجلّى حب المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفدائيتهم واستبسالهم في القتال ورغبتهم في الاستشهاد ، فحين قال النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة ، قال عمير بن الحمام — وبيده تمرات يأكلها — بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف بالتمرّات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل .

— وفي نزول الملائكة تقاتل في صفوف المسلمين وفي هطول الأمطار

معجزة كبرى للنبي صلى الله عليه وسلم أخبر عنها القرآن الكريم
« اذ يغشيكم النعاس أدنّه ونزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به
ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام »
الأنفال ٩ : ١١ . نزل الماء فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى
واغتسلوا وتوضأوا ومادوا الأسقية ولبدت الأرض ، وبقدر ما كان المطر
نعمة على المؤمنين كان نقمة على الكافرين .

— ولقد تجلت وداعة النبي صلى الله عليه وسلم وسعة صدره
وحكمته فى استشارة أصحابه ، فلم يكن مستتبدا بالأمر ، بل كان عطوفا
ودودا لبيبا حصيف الراى يقبل المشورة من أصحابه ، ولقد نزل على رآى
أصحابه حين رآى الصواب فى رأيهم ، وقد وصفه القرآن الكريم فأحسن
وصفه حين قال : « فهما رحمة من الله أنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب
لأنفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » آل عمران
١٥٩ .

— وظهرت حكمة النبي صلى الله عليه وسلم فى استيثاقه من أصحابه
حين قال : أشيروا على أيها الناس : فلم يقنع بما أشير به أولا من وجوب
لقاء العدو بل استنزد فى طلب المشورة حتى قال سعد بن معاذ : كأنك
تعيننا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يريد
من الأنصار الوفاء بالمبايعة التى بايعوها اياه ليلة العقبة ، وفى ذلك تأكيد
على وجوب الالتزام بالعهود والمواثيق .

— وإن هذه الغزوة تعلمنا الوثوق بالله واللجوء اليه فى كل آن وطلب
النصر منه ، فما النصر الا من عند الله ، وعلى المجاهد ألا يركن الى قوته
فحسب ، فقد تخون المجاهد عدته ، وقد يتخلى عنه حظه وشجاعته وقد
يأتيه عدوه من حيث لا يحتسب ، فعليه بجانب استعدادة لعدوه واخذ
الحيلة له أن يستعين بالله ويحسن التوكل عليه ويكثر من التضرع له
ومناجاته كما حدث من النبي صلى الله عليه وسلم فى مناجاته ربه حتى سقط
رداءه عن منكبه فسواه له أبو بكر وقال له : بعض مناشدتك ربك يا رسول
الله فان ربك منجزك ما وعدك .

— وفي الغزوة دليل على أن المسلمين لا يقاتلون عدوهم بكثرتهم ولكنهم يقاتلونهم بإيمانهم ، فالعدد بين المسلمين وعدوهم متفاوت تفاوتاً بيناً ، ولكن الإيمان هو الذى يشد القلوب ويقوى العزائم ، وهو الذى ببركته يوقع الله الرعب فى القلوب ، وبذلك انتصر المسلمون قليلاً العدد على المشركين الذين يفوقونهم أضعافاً مضاعفة ، « **وَكَمْ مِنْ قَوْمٍ غَلِبَتْ قُوَّةُهُمْ عَلَى قُوَّةِ اللَّهِ** » .

— وإن خطاب النبى صلى الله عليه وسلم لقتلى قريش دليل على أن أهل القبور يسمعون ما يدور حولهم ولكنهم لا ينطقون ، فقد مال النبى صلى الله عليه وسلم لمن قال له . انحاطب قوماً قد جيفوا ؛ قال : ما أنتم باسمع لما أقول منهم . وإذا كان هذا فى حق الكفار فما بالك إذا كان هؤلاء المؤمنون . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن قتلى أحد من المسلمين : زورواهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده ما يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام .

— وفى استقبال الولائد للنبى صلى الله عليه وسلم بالغناء دليل على جواز الانتساب والغناء ما دامت المعانى نبيلة لا تهدف إلى فجور أو فحش أو إثارة غرائز ، وخالصه ما قاله العنقاء فى ذلك : الغناء كالشعر حسنه حسن وفيحه تبيح ، ولا يفغل أحد عن دور الانشاد الجيد فى إثارة المشاعر الطيبة وتقديس العواطف الكريمة ، ولا سيما فى مواقف البطولة والنضحية والفداء .

— أما قصة فداء الأسرى فهى تدلنا على صفة النبى الرحمة السدى يقول الله فى حقه « **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** » (الأنبياء ١٠٧) ، ولم يكن نزول القرآن موافقاً لرأى عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم أخطأ ، فتقدم استنصار واجتهاد وتصرف فى حدود ما اشير به عليه بما يوافق ما ركب فى طبيعته من الرحمة والعفو والسماح ، ولقد أباح الفران ما قبلوه من فداء حيث قال « **هَلُّوْا مِمَّا عَمِلْتُمْ حَالَالًا طَيِّبًا** » (الأنفال ٦٩) .

غزوات أخرى :

بعد غزوة بدر حدثت غزوات لم يلق فيها النبى صلى الله عليه وسلم كيداً ، منها غزوة بنى سليم بالكدر ، وكانت بعد غزوة بدر بسبع ليال ،

ثم غزوة السويق ، وكانت في غرة ذي الحجة أراد أبو مسغبان فيها أن يحقق نصرا ، فقدم الى المدينة مستظهر ببني النضير ، وأشعل النار في نخل خارجها وقتل رجلا من الأنصار وعاد موليا الأدبار ، انه أراد بذلك أن يحقق نصرا فات ثومه ولكنه لم يفلح وكان فعله هذا أشبه بفعل قطاع الطريق لا فعل المحاربين ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم خلفه يريد أن يلحقه ولكنه استطاع أن يفلت بعد أن تخفف من أزواره وأزوار من معه ، وكانت هذه الأزوار سويقا ، فسميت الغزوة باسمها . ثم غزوة ذي أمر بنجد ، وكانت في صفر ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد غطفان ولكنه لم يلحقهم بها فعاد ، ثم غزوة الفرع من بحران ، وكانت في شهر ربيع الآخر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يريد بها قريشا ، والفرع قرية ناحية المدينة . ولكن هناك غزوة ذات بال حدثت هي غزوة بني قينقاع .

غزوة بني قينقاع :

بنو قينقاع قوم من أكثر اليهود غنى وأوسعهم ثراء ، كانت صناعتهم صياغة الذهب والفضة والجواهر ويحتكرون هذه الصناعة . وكانوا يفهمون في ضاحية من ضواحي المدينة ، وفي حي شيدوه وأحكموه حتى كان حصنا قويا إذا أغلقوه لم يستطيع أحد اقتحامه .

وقد عرفنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أبرم معاهدة بين المسلمين واليهود ، وطلب من الجميع احترامها ، ولكن اليهود أهل غدر ونفاق في كل زمان ومكان ، ولا يحسنون الا في الماء العكر ، وقد ساءهم جدا الوفاق الذي حدث بين الأوس والخزرج . وكانوا يرتزقون من خلافتهم ، كما ساءهم أكثر انصار المسلمين في بدر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحذر منهم لاطلاعه على خبايا نفوسهم وما تنطوى عليه من حقد وحسد وعداء ، وبخاصة بعد أن جاءت نتيجة غزوة بدر على غير ما يشتهون — فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر — كما صورهم القرآن الكريم .

وانتهزوا فرصة ذهاب احدي العربيات الى سوق المدينة وهي زوجة أنصاري مسلم ، فباعته بعض ما تملك من ابل وغنم ، ثم ذهبت الى صائغ

يهودى من بنى قينقاع لنشترى بعض الحلى ، فنجمع حولها بعض اليهود ، يريدونها على أن ترفع حجابها ساخرين منها مستهزئين بها ، لكنها رفضت فغافلها أحدهم وربط طرف نوبها الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها فضحكوا منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على انيهود ، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وحين وصل الأمر الى النبى صلى الله عليه وسلم نهض للأمر ، فدعا رؤساءهم وحذرهم من عاقبة البغى ونقض العهد ، فأغلظوا عليه فى الرد . وكان مما قالوا : يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقينا لتعلمن انا نحن الناس .

لقد قالوا ذلك من واقع الغرور الذى كانوا يعيشون فيه ، فقد كانوا أشجع يهود وأغناهم ، وظهر واضحاً ما فى نفوسهم من شر يستفحل وتساء مغبته لو ترك ، وكان الله قد أنذرهم فأنزل فى شأنهم فى مطلع سورة آل عمران « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْرٌ لَّهُمْ وَسِتْرُهُمْ فَاتُزِيلُ عَنْهُمُ وَيُسْوَغُ لَهُمُ الْقَوْلُ يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ » .
قد كان لآية فى فتق التفتت ، فتنة تفائل فى سبيل الله وأخرى خافرة يرونهم مثليهم رأى الصين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك العبرة لأولى الأبصار » آل عمران ١٢ ، ١٣ .

كما نزل فى حقهم قوله تعالى « وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين » الانفال ٥٨ .

الفزوة :

وضرب النبى صلى الله عليه وسلم عليهم الحصار الذى دام خمسة عشر يوماً ، واشتد الحصار عليهم وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وجاء عبد الله بن أبى بن أبى سلول ليستشفع لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد احتفظ بحلفهم فى الوقت الذى نخلى فيه عنهم عبادة بن الصامت بعد أن علم غدرهم وسوء نياتهم .

قال عبد الله بن أبى للنبى صلى الله عليه وسلم : أحسن فى موالى ،

فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة ، ولكن عبد الله أدخل يده في جيب قميص الرسول على هيئة الرجاء والتشفع ، فغضب النبي وقال : ويحك أرسلنى ، ولم يكن غضبه من الرجاء نفسه ، فكم قبل النبي صلى الله عليه وسلم من رجاء وكان حلما عفوا ، ولكنه غضب لنفاق عبد الله الذى أبى أن يستجيب لما نزل من قرآن فى شأن هؤلاء القوم كما فعل عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، لقد استظهر عبد الله بالناس ونسى الله واعتقد أن اليهود نافعوه ، وإنما النافع والضار هو الله .

قال عبد الله : والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى فانهم أعزنى ، أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع وقد منعونى من الأحمر والأسود وتحصدهم فى غداة واحدة ؟ انى والله امرؤ أخشى الدوائر .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم ، خذهم لا بارك الله فيهم .

وأصدر النبي صلى الله عليه وسلم قرارا باجلائهم عن المدينة فى خلال ثلاثة أيام ، بعد أن يتركوا أموالهم واسلحتهم ، وأشرف على تنفيذ ذلك عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، فخرجوا سراعا لا يصدقون بالنجاة ، وغنم المسلمون ما تركوه من مال وسلاح وديار ، ولاحتقتهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يمض عام على نزولهم أذرعات التى خرجوا إليها حتى هلكوا جميعا ..

وكذلك نصر الله المسلمين وأراحهم من شر هؤلاء اليهود الذين دأبوا على الشقاق ، كما أخزى الله المنافقين الذين كانوا يمالئونهم ويدافعون عنهم .

وقد نزل فى شأن عبس الله بن أبى الذى والى اليهود ودافع عنهم قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ » الى آخر الآيات ، كما نزل فى شأن عبادة بن الصامت قوله تعالى : « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » اقرأ الآيات فى سورة المائدة من ٥١ : ٥٦ .

مقتل كعب بن الأشرف :

وتيقظ المسلمون لأعدائهم من المشركين واليهود ومن بمالئونهم ، وحاولوا أن ينبعوا مع المشركين ما يسمى اليوم بحرب الاستنزاف عن طريق النرصد لعبرهم الذاهبة والآية من الشام ، ولعل في ذلك ما يرهق أعصابهم ويصيبهم بمختلف الخسائر والفرع ، فمن ذلك سرية زيد بن حارثة التي خرج فيها على رأس فرقة من المسلمين ، فلقى عيرا لقريش في مكان اسمه « القردة » وهو ساء من مياه نجد ، فأصاب تلك المير وهرب الرجال ،

كما حاولوا أيضا أن يتخلصوا من قادة الكفر من اليهود الذي ثبت بالدليل القاطع ما يعمدونه للمسلمين من اذى وما يقومون به من تحريض صريح وهجاء قبيح . فقد كان كعب بن الأشرف رجلا من طييء وأمه من بنى النضير وكان شاعرا طالما هجا المسلمين بشعره وهييج عليهم الكفار ، وغافله ما حاق بقريش في موقعة بدر فأخذ يرثى من قتل منهم ويحرض على الأخذ بثأرهم ، ولم يكتف بذلك بل ازداد سفها وعتدا حين أخذ يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فندب له النبي صلى الله عليه وسلم محمد ابن مسلمة وجماعة من المسلمين ، فقتلوه وخلصوا المسلمين من شره ، وكان ذلك في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة .

ويستفاد من هذا الحدث جواز التخلص من أعداء الله ما داموا يعيشون في الأرض فسادا مصداقا لقوله تعالى : « **إنها جزاء الذين يهاذبون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** » المائدة ٣٣ .

غزوة غطفان :

تهيأت قبيلتان من قبائل نجد هما بنو ثعلبة وبنو محارب للانقضاض على المدينة بقيادة فارس من فرسانهم اسمه « دعثور » ونما الخبر الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج اليهم في الليلة النانية عشرة من ربيع الأول في العام الثالث ليفاجئهم قبل أن يفاجئوه ، ولكنهم حين سمعوا بمسيره اليهم هربوا الى رموس الجبال ، وعسكر المسلمون عند ماء يسمى « ذا أم »

وهطل المطر غزيرا حتى بلل ثياب النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وخلع النبي صلى الله عليه وسلم ثوبه وعلقه في شجرة جلس تحتها حتى يجف ، وتفرق المسلمون بعد أن علموا أن القوم فروا من وجوههم ، وأبصر دعثور من مرقبه المرتفع فوق الجبل بالنبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وحده فأراد أن يهتبلها فرصة ، وجاء وحده في خفيته شاهرا بسيفه حتى وقف على النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا محمد ما يمنحك منى ؟ فقال : الله ، فارتعدت فرائص الرجل وسقط السيف من يده . فتناوله النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : من يمنحك منى ؟ قال الرجل في وجل : لا أحد ، فعلما عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم دعثور ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا ، وتحولوا من أعداء إلى أنصار .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد ظفر برجل منهم في الطريق اليهم ، وهو الذي أنباه بتفرق القوم وفرارهم ، ودعاه النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام فأسلم وترك معه بلال بن رباح يعلمه الإسلام .

لقد كان الرعب أحد جنود النبي صلى الله عليه وسلم يبعثه الله في قلوب أعدائه فلا يثبتون أمامه أو يذعنون لما يريد ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : نصرت بالرعب ، كما تجلت رحمة النبي وعفوه عند المقدرة في تصرفه مع دعثور ، وكان في إمكانه أن يقتله ، ولكن حلمه الواسع هو الذي كان سببا في إسلام الرجل وقومه ، وهكذا تكون الأخلاق الفاضلة التي أثنى عليها الله جل وعلا في كتابه الكريم .

غزوة أحد :

أصرت قريش على الأخذ بثأرها لما أصابها في بدر ، واستعدوا لحرب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورصدوا لذلك ربحهم من التجارة التي سلمت من المسلمين حينما تعرضوا لها في بدر ، وكان ربحها يقرب من خمسين ألف دينار .

وتجمع ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم حلفاؤهم من الأحابيش وأبو عامر الراهب الأوسي الذي ترك المدينة كراهية لجوارية المسلمين بها ، وشاركهم

أيضا جماعات من أعراب كنانة ونهامة ، لقد استنفرت قريش للقتال كل من يقدر عليه وحشدت من السلاح كل ما يقدر عليه .

واستشار النبي صلى الله عليه وسلم — وقد أبلغه عمه العباس نبأ خروج قريش له — أصحابه ، وكان رأيهم البقاء بالمدينة حتى يحضر القوم ، فان أقاموا بمكانهم أقاموا بتر مقام ، وان دخلوا المدينة قاتلوهم ، ووافق الشيوخ من المهاجرين والأنصار على ذلك الرأي ، ولكن الشباب تحمسوا للخروج ، وما زالوا بالرسول حتى قبل رأيهم ، فدخل ليلبس لباس الحرب .

ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكروها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج ، وجهوا اليهم اللوم وقالوا لهم : اتركوا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما خرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله نتبع رأيك ، فقال : ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

الخروج للمعركة :

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه للقتال ، وقد عقد الألوية للمقاتلين ، فجعل لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ولواء الخزرج للحباب ابن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن حضير ، وكان عدد المسلمين ألف رجل وقبل سبعمائة وأراد اليهود مشاركنه في القتال فرفض ، وقال : لا نستعين بالمشركين على المشركين . والذي قال : ان عدد المسلمين كان ألفا قتاله على اعتبار العدد قبل أن ينسلخ عبد الله بن أبي بن سلول بثلاثمائة من أصحابه راجعا بهم الى المدينة ، وكان انسلاخه هذا دليلا على استبطان الكفر في قلبه وتمكن النفاق منه ، وقد حاول عبد الله بن عمرو والد جابر اثناء ابن سلول عن رجوعه قاتلا له ولمن معه : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، ولكن عبد الله بن أبي رد عليه قائلا : لو تعلم قتالا لا تبعناكم ، وكان يرد : عصاني — يقصد النبي صلى الله عليه وسلم — وأطاع الولدان ، فعلام نقتل أنفسنا ؟ .

ولقد همت طائفتان من المسلمين أن يتبعوا هؤلاء المنسحبين ولكن الله عصمهما ، وقد نزل في ذلك قوله تعالى : ((اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا

والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » آل عمران ١٢٢ ، وقوله تعالى :
« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا فقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا
أو نعلم قتالا لا تبغناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم
ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » آل عمران ١٦٧ وغدير ذلك من
الآيات .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد
في عدوة الوادي إلى الجبل ، فجعل يظهر عسكريه إلى أحد ، وقال : لا يقاتلن
أجد منكم حتى نأمره بالقتال .

وعبا الرسول الجيش للقتال ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ،
وكانوا خمسين راميا ، وقال له : انضمع الخيل عنا بالنبل ، ولا يأتونا من
خلفنا ، ان كانت لنا أو علينا فثبت مكانك ، لا تؤتينا من قبلك . وظاهر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، ودفع اللواء إلى مصعب بن
عمير .

المعركة :

وعبأت قريش رجالها الثلاثة آلاف ، ومعهم مائتا فرس قد حنبوها
وعلى ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل .

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يشجع المسلمين وبحضهم على
النبات وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ قالوا : وما حقه ؟ قال — وقد
أمسك أبو دجانة بالسيف من رسول الله — : أن تضرب به العدو حتى
ينحني . فقال أبو دجانة : أنا أخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه له ،
وكان أبو دجانة شجاعا يختال عند الحرب ، وعصب رأسه بعصابة
حمراء وأخذ يتبختر بين الصفين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنها
لمشية يبغضها الله الا في مثل هذا الموطن .

وكان أول من بدأ القتال أبو عامر الراهب الذي أطلق عليه الرسول
لقب الفاسق ، فقد طلب المبارزة فرضخوه بالحجارة احتقارا لشأنه فولى
(م ١٠ — وهي السجيرة)

مدبرا ، ثم أخذت نساء قريش تثر الحماس في نفوس المشركين ، يضرين بالدفوف وينشدن الأشعار .

وبدأت المعركة بالمبارزه فأخذ المسلمون يجندلون الكفار واحدا بعد الآخر ، وازدادت المعركة تسعرا والمشركون يصرعون ، حتى قتل لطلحة ابن ابي طلحة أربعة أولاد ساءبوا لواء المشركين واحدا واحدا .

وحملت خيالة المشركين على المسلمين فرماها الرماة بنبالهم فتقهقرت ثلاث مرات .

وهتف النبي صلى الله عليه وسلم بربه قائلا : اللهم بك أجول وبك أصول وفيك أقاتل حسبي الله ونعم الوكيل ، ولم يلبث أن ولى المشركون الادبار ناركين خلفهم أسلابهم وأمتعتهم ، وتبع المسلمون المشركين يجمعون هذه الغنائم .

ولما رأى الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين ذلك تركوا أماكنهم ونزلوا يشتركون مع المسلمين في جمع الغنائم ، ولكن رئيسهم عبد الله بن جبير قد نهاهم عن ذلك امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوصاه بالثبات في مكانه هو ومن معه ، ولكنهم لم يقفوا الموقف حق التقدير فانطلقوا من أماكنهم ، فاهتبل خالد بن الوليد هذه الفرصة وانقض بمن معه على مؤخرة الجيش الإسلامي وقتل من ثبت من الرماة وفيهم عبد الله بن جبير ، وأخذ يعمل سيفه في المسلمين المشغولين بجمع حطام الدنيا .

وتغير وجه المعركة ورد للمشركين روحهم بعد أن ارتبكت صفوف المسلمين ، ففر منهم من فر وقتل من قتل ، وزاد الموقف تعقيدا أرجاف المشركين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بطولة :

وثبت النبي صلى الله عليه وسلم في موقفه ثباتا عظيما وحوله قلة من أصحابه الشجعان الذين تجلت بسالتهم وتضحيتهم . منهم أبو طلحة

الأنصاري الذي استمر بين يدي الرسول يرمى بجحفته وكان راميا شديداً.
الرمي ونثر كنائته وصار يقول : وجهي لوجهك فداء ، وكل من يمر ومعه
كنائته يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم : أنثرها لأبي طلحة .

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينظر ليري القوم ماذا يفعلون ،
فبنول له أبو طلحة : يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تنظر يصيبك سهم من
سهام القوم ، نحري دون نحرك .

وكان ممن ثبت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، كان النبي صلى
الله عليه وسلم يشجعه قائلا : ارم سعد فذاك أبي وأمي .

ومنها سهل بن حنيف ويكنى أبا سعد وهو من أهل بدر ، كان راميا
ماهرا نضج عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى انفرج عنه الناس .

ومنها أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري تترس على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه .

ومنها زيادة بن الحارث الذي ظل يقاتل دون رسول الله صلى الله
عليه وسلم حتى أصيبت مقاتله ، فأمر به فأدنى منه ووسده قدمه حتى مات .

ومنها نسيبة بنت كعب التي ألقت ما في يدها من سهام وضامد
واخترطت سيفاً وقاتلت حتى أصيبت بثلاثة عشر جرحاً غائراً وحتى أغمى
عليها من كثرة ما نزلت من دماء .

وفي هذه اللحظة أقبل أبي بن خلف يريد قتل النبي صلى الله عليه
وسلم ، فأخذ النبي حربة ممن كانوا معه ، وقال : خلوا طريقته ، فلما قرب
منه ضربه ضربة أودت بحياته .

وحين رأى المشركون صمود المسلمين وانهم لم يستطيعوا أن يحققوا
نصراً حاسماً ارتضوا بما حدث ورجعوا من حيث أتوا .

درس بالغ :

وعلى الرغم مما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من جراح جعلت
الدماء تسيل من وجهه الشريف حتى قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجهه

نبيهم بالدم ؟ على الرغم من ذلك فقد أخذ يستعرض شهداء ذلك اليوم وينفذ أصحابه ، وبكى على الشهداء وبخاصة حينما رأى جسد عمه حمزة الملقب بأسد الله وقد مثل به الأعداء ، بعد أن قتلته وحشى العبد الحبشى الذى حرضه هند بنت عتبة على قتله ثارا لأخويها وقبل حرضه جبر بن مطعم .

لقد استشهد فى هذه المعركة سبعون من خيرة الصحابة الأجلاء من بينهم غير حمزة ، مصعب بن عمير رضى الله عنه حامل اللواء الذى قطعت يده اليمنى فحمل اللواء باليسرى ، وحين قطعت اليسرى ضم على اللواء بـجـديـه ولم يتركه يسقط .

وأمر الرسول بالشهداء فدفنوا دون أن يغسلوا أو يكفنوا .

ولقد ظهر اخلاص المسلمين واضحا فى هذه المعركة ، فعلى الرغم من مخالفة أكثر الرماة وتركهم أماكنهم الا أنهم استثمروا الندم الشديد واحسوا بالآلم البالغ ، ولئن كانت المفاجأة غير المتوقعة قد أذهلت بعض المسلمين وأصابتهم بالذعر ، وبخاصة حين سرت شائعة وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن كثيرا منهم التفتوا بالرسول وصانوه بأنفسهم حتى استشهد بعضهم دفاعا عنه — كما رأينا — .

افتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن الربيع فبعث من يبحث عنه ، فجاء من يخبره بأنه وجدده فيه رمق فأخبره بسؤال الرسول عنه فقال . قل لقومى يقول لكم سعد بن الربيع : الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة فوالله ما لكم عندى عذر .

وحين سمع أنس بن النضر — عم أنس بن مالك — يشائحة قتل الرسول قال : يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده ؟ مونوا على ما مات عليه اخوانكم ، ولم يزل يقاتل حتى قتل .

هذه الفدائية المستبسلة هى التى حالت بين اتهام النضر لقريش ، وهى التى جعلتهم يفكرون فى العودة سراعا قبل أن تتحول هذه الفدائية الى ضرام يقضى عليهم . وعلى ذلك فلا يحق القول بأن المسلمين انهزموا فى

هذه المعركة ، ولو أن المشركين انتصروا لما توقفوا دون اقتحام المدينة ليستأصلوا شأفة المسلمين فيها .

الى حمراء الأسد :

وحتى يقطع النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين خط الرجعة ويقتلع من نفوسهم ما تخيلوه نصرا ويعمق في نفوس المسلمين شعور الثقة بالنفس ويرفع روحهم المعنوية نادى في أصحابه عقب عودته الى المدينة مباشرة بالخروج خلف العدو ، وأمر ألا يخرج الا من كان معه بالأمس ، فاستجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرع ، فضمدوا جراحاتهم واللواء معقود لم يحل ، وحمله على بن أبى طالب ، وسار الجيش حتى وصل الى حمراء الأسد .

وقد كان ما ظنه الرسول صلى الله عليه وسلم حقا من تفكير قريش بعد اغترارها بمزاعم النصر في الاغارة على المدينة ، ولكنهم ما ان علموا بخروج النبي صلى الله عليه وسلم في أثرهم حتى اعتقدوا بأنه قد أعد لهم ما لا قبل لهم به ، وأن من لم يصحبه من المسلمين في المرة الأولى قد صحبه في هذه المرة وأوقع الله الرعب في قلوبهم ، وقبض الله المسلمين من يبلغ قريشاً استعدادهم لها وعزمهم على القضاء عليها .

ذلك أن معبد بن أبى معبد الخزاعى — وكان يومئذ مشركا ولكنه كان يميل هو وقبيلته خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم وينصحون له — لقي أباسفيان ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه أبو سفيان قال له : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم نحرنا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط . قال أبو سفيان : ويحك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل . قال أبو سفيان : وأنا قد أجمعنا الكرة عليهم ، قال : فانى أنهاك عن ذلك ، ولقد قلت في ذلك شعرا . وأخذ ينشد :

كادت تهد من الأصوات راحلتى
 اذ سالت الأرض بالجرد (١) الأبايل
 نردى بأسد كرام لا تنابله
 عند اللقاء ولا ميل معازيل (٢)
 فظلت أعدو أظن الأرض مائلة
 لما سموا برئيس غير مخزول
 فقلت ويل ابن حرب من لقائك
 اذا تغططت البطحاء بالجيسل (٣)
 انى نذير لأهل البسل ضاحية
 لكل ذى اربة منهم ومصقول (٤)
 من جيش أحمـد لا وحش تنابله
 ولا يوصف ما أنذرت بالقيسل (٥)

والشعر منذ أقدم العصور العربية سلاح لا يفـل ، فما أن سـمـع
 أبر سفيان هذه الأبيات حتى امتأ رعبا هو ومن معه ، فعادوا الى مكة
 مسرعين .

أبو عزة الشاعر :

وفى الطريق الى حمراء الأسد ظفر النبى صلى الله عليه وسلم
 ببئى عزة الشاعر ، وقد كان أسيرا فى بدر واستعطف النبى صلى عليه
 وسلم فمن عليه ولم يقتله ولم يأخذ منه فدية ، وتعهد أمام النبى بألا يسـمـى
 الى المسلمين فى شعره ، ولكنه بعد أن عاد الى مكة أغراه أبو سفيان
 وما زال به حتى نقض عهده مع النبى وأخذ يحرض المشركين ضد المسلمين
 كما أخذ ينال منهم فى شعره . فلما وقعت أحد كان مع المشركين فيها .

(١) الجرد : المتاق من الخيل ، والأبايسل الجماعات — (٢) تردى :
 تسرع ، التناhle : القصار ، الميل الذين لا رماح لهم ، العزل : الخالون من
 السلاح . (٣) تغططت : اهتزت ، الجيل : الصنف من الناس . (٤) أهل
 البسل : قریش ، الضاحية : الظاهرة للشمس ، الاربة : العقل .
 (٥) الوحش رذلة الناس .

وساقته قدّره الى الوقوع في قبضة النبي صلى الله عليه وسلم في حمراء الأسد فأمر بقتله ، فذهب يستعطف النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى قائلاً له : دعنى لبناتى وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت . فقال له النبي : لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، اضرب عنقه يا زبير فضرب عنقه .

إجابيات أحمد :

ولا يمكن أن يحدث شيء بدون قضاء الله وقدره ، ولقد كانت نتائج هذه المعركة من قضاء الله وقدره ، وتم ما فيها بناء على حكمة علوية سامية أشار اليها الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » آل عمران ١٤٠ : ١٤٢ .

حقاً لقد تميز موقف المؤمنين عن موقف المنافقين ، وظهر النفاق مكشوف الوجه يظهر عليه خبث الطوية كأنها الأعين تراه ، ففي الوقت الذى ينسحب هؤلاء المنافقون بعيداً عن المعركة بأعذار واهية يقبل المؤمنون على الموت بقلوب راضية ونفوس مطمئنة وشوق لا مثيل له ، أنها الشهادة النى يطلبونها ويحرصون عليها ، ولقد أثنى الله على الشهداء خيراً فقال في حقهم « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ويستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » آل عمران ١٦٩ - ١٧١ .

لقد عودت هذه الغزوة المؤمنين ألا يغفروا بالنصر ويفرحوا به ، بل عليهم أن يحمدا الله في السراء ويصبروا على الضراء ، فالأيام دول ومن سره زمن ساءت أزمته كما يقول الحكماء ، والدهر يومان ، يوم لك ويوم عليك ، ولكن العاقل هو الذى يستفيد من اليوم الذى عليه ويستثمر اليوم الذى له ..

وان كانت هناك من فائدة جلى حقتها المؤمنون فى أحد فتلك التى حذرتهم من فتنه الدنيا ، وقد رأوا ذلك فى نجريه عمليه قاسية وحذرتهم من عاقبة عصيان الرسول وقد رأوا منبه ذلك فى وضوح ، كما الهمهم بواجبهم الذى عليهم ان يلزموا به فى غيبه القائد الأعلى حين أرجف المرجفون بوفاه النبى صلى الله عليه وسلم ، ، فالصادقون من المؤمنين لم يفت فى عضدهم ذلك بل قالوا لبعضهم مونوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ظهرت بمره هذا الدرس جلية حين النحى بالرفيف الاعلى بعد ذلك بسنين ، عندئذ نليت الآية الكريمة ((وما مهمد إلا رسول قد خلت من قبله الأنبياء والأنبياء ما خلفه من قبشه الأنبياء ما خلفه من قبشه الأنبياء ما خلفه من قبشه الأنبياء ما خلفه من قبشه)) فتاب المسلمون الى رسلهم وضموا برايبهم الخفاقة فى تيات وشجاعه ويقين . .

وفى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشجاعة الفائقة والحكمة العالية ما يلفت أنظار القواد فى عصرنا بان يضربوا المثل لجنودهم فى الثبات وحسن التخطيط ، وعلى القائد ان يعرف أنه ليس بمنجاة عما يصيب جنوده فى المعركة ، وعليه ان يثير فى نفوسهم الحمية ويعلمهم رباطه الجأش ويرفع روحهم المعنوية ، وهذا الموقف نستشفه بوضوح فى اصرار النبى صلى الله عليه وسلم على الخروج بمن معه فى تعقب جيش قريش ، ورفضه فى أن يأخذ معه أحدا ممن لم يكن معه فى أحد ، ومضى حتى عسكر فى حمراء الأسد على النحو الذى تقدم .

لقد استطاع بذلك أن يكفكف من غلواء قريش وأن يعيد للمسلمين الثقة فى النفس وأن يبدل الشعور من النقيض الى النقيض . وهكذا يمشى التاريخ ليثبت جلال شخصية المصطفى الفريدة وعبقريته الخارقة .

غدر وخيانة :

شهداء الرجيع وبئر معونة :

لم يأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جهدا فى المضى برسالة ربه قسما ولم يقتصر فى ابلاغها بشتى الوسائل ، ولم يترك فرصة مواتية تفلت

منه دون أن يستثمرها لصالح الدعوة ، وقد أعانه على ذلك أصحابه الأبطال رضوان الله عليهم مضحين بأنفسهم وأموالهم حبا لله ورسوله ورغبة في نشر دين الله ..

وفي الوقت الذي كان المسلمون يبذلون أرواحهم رخيصة في ذات الله كان المشركون يلجأون للغدر والخيانة يعرضون بهما ما فاتهم من نصر حقيقي في ساحة الشرف والكرامة .

في سنة ثلاث من الهجرة جاء وفد من « عضل والقارة » لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون له : يا رسول الله ان فينا اسلما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئونا القرآن ، ويعلموننا شرائع الاسلام ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبعث منهم نفرا ستة من أصحابه هم : مرتد بن أبي مرتد الغنوري ، وخالد بن البكير الليثي ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدنة ابن معاوية ، وعبد الله بن طارق .

وأمر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم مرتدا ، حتى اذا وصلوا الى الرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز غدر القوم بهؤلاء المسلمين ، بأن استصرخوا عليهم هذيل ، فأتبلت هذيل بسيوفها من كل جانب فأحاطت المسلمين الستة ، فجرد المسلمون على قتلهم أمام هذا العدد الضخم سيوفهم ، فقالوا لهم : انا والله ما نريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقاتلكم ..

فأما مرتد وخالد وعاصم فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا مقدا أبدا .

وقاتلوا القوم حتى قتلوا . وحين قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعه من سلافة بنت سعد بن شهيد ، وقد نذرت — حين أصاب عاصم ولديها يوم أحد — لئن ظفرت برأسه لتشرين فيها الخمر . ولكن الله أرسل الدبر — الزنابير — نحى عاصم من أعدائه حتى لا يحزوا رأسه ، فقالوا : اذا أمسينا ذهب الدبر ، فلما جاء المساء أرسل الله السيل فحمل عاصمها

أنى حيث يعلم الله ، فقل عنه : حمى الدبر . ان الله يعلمنا كيف يحفظ أوليائه ويبر قسمهم ، وكان عاصم قد أقسم ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركا في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته أيضا .

ونمكن المشركون من الثلاثة الباقين « زيد وخبيب وعبد الله » فأسروهم وحملوهم الى مكة ليبيعوهم بها ، وحين وصلوا « الظهران » استطاع عبد الله بن طارق أن يفلت من القيد ويأخذ سيفه ولكن القوم تأخروا عنه وروه بالحجارة حتى قتلوه ودفن مكانه .

وفي مكة اشترى « حجير بن اهاب التميمي » خبيبا فقتله بأبيه ، واشترى « صفوان بن أمية » زيدا ليقتله بأبيه أمية بن خلف .

ولقد رأت قريش من هذين الشهيدين عجا ما رال اثره بانفا يحدث الناس بما تفعله كرامة الله بال مؤمنين .

حدثت ماوية مولاة حجير — وكان خبيب محبوبا عندها — قالت : اطلعت عليه يوما وان في يده لقطعا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل .

وحين حضره القتل طاب حديدة — موسى — يتطهر بها للقتل ، فبعثوا بها له مع غلام كان في امكانه أن يقتله بنفسه ولكنه رفض الغدر ، وقبل وفاته صلى ركعتين ، ثم التفت الى المشركين يقول لهم : أما والله لولا أن تظنوا أنى انما اطلت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة . فكان أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، وحين رمعوه ليصلبوه قال : انلهم انا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الفداء ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا . ثم أنشد :

ولست أبالي حين أقتل مسلما

على أى جنب كان في الله مصرعى

وذلك في ذات الاله وان يشاء

يسارك على أوصال شسلو مزرع

وعندما أراد المشركون قتل زيد بن الدثنة قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه واني جالس في أهلي . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

هذه موازنة ناطقة بين موقف المسلمين في برهم ووفائهم وبطولتهم واستشهادهم ، وبين موقف الكفار الفادر الذي لا يستطيع مجابهة الحق في لقاء واضح صريح .

هذا ما حدث يوم الرجيع ، وهناك موقف آخر للخيانة في بئر معونة ، وهذه قصته :

استجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة حين طلب منه ارسال وفد ينشر الاسلام بين قبائل نجد ، وقد تحسب النبي صلى الله عليه وسلم أن يصيب أصحابه ما أصابهم في الرجيع ، فقال أبو براء: أنا لهم جار .

وخرج سيمون مجاهدا من خيرة المسلمين يعرفون بالقراء ، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، وكان هذا دأبهم وهم في طريقهم الى أداء رسالتهم . ولكن رأسا من رعوس الكفر اسمه عامر بن الطفيل أنب عليهم قبائل سليم من عصية ورعل وذكوان والقارة ، فخرجوا عليهم غدرا ، يريدون استحضارهم بسيوفهم ، ولكن هؤلاء المجاهدين أبلوا في الدفاع عن أنفسهم بلاء حسنا حتى استشهدوا جميعا عدا اثنين منهم لم يشهدا الواقعة لأنهما كانا في سرح القوم ، هما عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة ، أنبأتهما الطير تحوم فوق جثث القتلى بما حدث ، فانطلقا نحو ما رأيا ، فاذا الخيل التي أصابتهم واقفة ، فقاتل المنذر حتى قتل ، وتمكن الثانى من الإفلات بعد ما أسر ، وفي طريقه لاخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث لقي رجلين ظنهما من القوم الذين قتلوا أصحابه فقتلها ، ولكنه تبين بعد ذلك أنهما ليسا منهم بل من قوم آخرين

كان الرسول قد أجارهم فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤدي دينهما .

وقد تأثر النبي صلى الله عليه وسلم لمقتل أصحابه ، وظل شهرا كاملا يقتت في صلاة الصبح يدعو على هؤلاء المعتدين .

ولئن دلت هذه الحوادث على شيء فإنها تدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ رسالة ربه وانتهاز الفرص الممكنة لذلك ، ولقد نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى ظواهر القوم وترك سرائرهم الى الله ، والدعوة لا بد أن تبليغ على الرغم مما يعترضها من صعوبات وما تحتاج اليه من تضحيات ، ولئن اسرأب النبي صلى الله عليه وسلم بمن جاءه يطلب الهداية فلم يرسل معهم من يعلمهم بناء على ما ظنسه فيهم من سوء النية ليوشكن ذلك أن يصبح تشريعا يعمل به الناس بعده ويترتب على ذلك شر مستطير وقد يفوت به خير كثير ، والنبي صلى الله عليه وسلم هو صاحب هذه الكلمة المستنيرة : أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى انسرائر . ومع ذلك لم يفته أن يستوثق لأصحابه ، ولكن هناك ما هو أعظم من الاستيثاق وهو القضاء والقدر فهما يغلبان كل تدبير واحتياط ، وقد احتاط النبي صلى الله عليه وسلم جهده ، ولكن الله أراد لهؤلاء الشهادة ، وأراد لهم أن يضربوا المثل العليا في التضحية والفداء وأن يكونوا علامات بارزة على الطريق يضيئون للناس طريق الجهاد لمن يجيء بعدهم ، وليبينوا للناس أن كلمة الاسلام يجب على المسلمين أن يحملوها عبر الآفاق مهما كلفهم ذلك من ثمن ، ان على المسلمين أن ينظروا الى تاريخهم المشرق فيدركوا كم بذل الأوائل في سبيل نشر الدعوة حتى وصلت اليينا فأخذناها سهلة ميسورة دون أن نكلف أنفسنا عناء المحافظة عليها . انها ثروة رائعة صيغت بالدماء والتضحيات والعرق والسهر والدموع ، ونحن الآن نبدها دون وازع من ضمير أو دين ، ودون خجل أو حياء .

بنو النضير :

وكان اجلاء بنى النضير في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة ، أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعين ببنى النضير — وهم يهود

يقيمون في المدينة — في أداء ديتى القتيلين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري خطأ وهو في أثناء رجوعه لإبلاغ النبی أمر شهداء بئر معونة .

فحين أتاها في ديارهم رحبوا به وقالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك بها أحببت مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم الى بعض فقالوا ؛ انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله الى جنب جدار من بيوتهم — فليصل رجل منا هذا الببت فيلقى عليه صخرة ونستريح منه ؛ وتطوع لهذا العمل الغادر عمرو بن حجاج بن كعب ، وهم بما أرادوا .

لولا أن الغدر طبيعة في اليهود لقلت ان عدوي الغدر سرت اليهم ممن غدروا بالمسلمين في الرجيع وبئر معونة . ولكن الله شىء أن يبتلى المسلمون بذلك ليتنبهوا له وليعرفوا انه من أسلحة الجبناء في كل زمان ومكان وله صور مختلفة بعدد نفوس أصحابه وان كان معناه واحدا وهدفه كذلك .

ولكن الله في علاه أراد أن ينجى رسوله وصفيه من هذا الفعل الغادر فؤجى اليه بما هم به القوم فقام مسرعا من مكانه وكر راجعا الى المدينة ، ثم قام أصحابه من بعده ، حتى لحقوه ، فأخبرهم بما كان اليهود عازمين عليه من غدر ، وتهيأ الرسول صلى الله عليه وسلم لحربهم ، وسار اليهم ، وحاصرهم ست ليال .

وحين لجأوا الى حصونهم ليمتنعوا عليه فيها أمر عليه الصلاة والسلام بقطع نخيلهم واحراقها ؛ ليغيظهم بذلك ، فنادوه من الحصون : يا محمد قد كنت تنهانا عن الفساد وتعيب على من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ ويبدو أن بعض المسلمين وقع في نفوسهم شيء من ذلك ، فنزل قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » الحشر ه .

وكان المنافقون قد أرسلوا الى بنى النضير أن اثبتوا ونحن معكم ولا نسلحكم بل نقاتل معكم ان قوتلتم ونخرج معكم ان خرجتم ، ولكن الله تذبذ في قلوب هؤلاء وهؤلاء الرعب ، وطلب اليهود من الرسول صلى الله

عليه وسلم أن يتركهم يجلون ويكف عن دماهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة — السلاح — فوائف .

وخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وقد حكى الله قصتهم في سورة الحشر ، التي جاء في مطلعها قوله نصالي يمن على المؤمنين : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأنهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا بأولي الألبار — وأولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار — ذلك بأنهم نكسوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ... » .

وكان جلاء بنى النضير جزاء وفاقا لنذرهم وخيانتهم التي تعودوها وأصبحت جزاء من طبيعتهم حتى أصبحوا لا يستطيعون الحياة إلا بها ، وهذا هو الذي نجده في كل زمان ومكان .

ولقد أبان موقف النبي صلى الله عليه وسلم من بنى النضير عن نفسية المنافقين المظلمة وعقيدتهم الزائفة حيث خالفوا الباطل على الحق ، وظاهروا العدو على أهلهم فكان حقا على الله أن يقضح نواياهم الخبيثة وطواياهم السيئة حيث دمغهم بقوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون ... » الحشر ١١ : ١٤ .

لقد أبانت الآيات الواردة في هذه المناسبة جبن اليهود الذي يبدو في عدم قدرتهم على مجابتههم لعدوهم ، بل يلقونه دائما وأبدا من خلف جدر ، هذا هو المشاهد في اتخاذهم الخطوط والاستحكامات ولا يعتمدون على المشاة غالبا في حروبهم ، ولكن الله حين يريد هزيمتهم لا تغنى عنهم خطوط ولا حصون ولا تفيدهم استحكامات وتدبيرات .

غزوة ذات الرقاع :

كانت في السنة الرابعة للهجرة في أواخر ربيع الثاني .

والهدف منها الأخذ بثأر شهداء بئر معونة ، فبعد الانتهاء من بنى النضير

بشهر ونصف تقريبا ، خرج النبی صلی الله علیه وسلم فی أربعمائة جندي من أصحابه البواسل متجهين الى نجد .

ووصلوا الى مكان به شجرة كبيرة كان یقدسها الاعراب اسمها « ذات الرقاع » فأقام النبی صلی الله علیه وسلم بمن معه فی هذا الموضع ، لذلك سمیت الغزوة بذات الرقاع ، وقیل : انها سمیت بذلك لأن أقدام بعض المسلمين قد نقتبت من كثرة المشی فكانوا یلفونها بالرقاع .

وحین سمع الاعراب الغادرون بمقدم رسول الله صلی الله علیه وسلم تفرقوا فی الأرض فلم یعثر لهم على أثر ، فواصل النبی صلی الله علیه وسلم مسيره حتى بلغ موضعا یقال له « نخل » من أرض نجد ، وهناك وجد نساء من بنی محارب وبنی ثعلبة فأمر بأسرهن ، لیستثیر بذلك الرجال ویجبرهم على لقائه .

ولكن هذا الأسر لم یزد ذویهن الا امعانا فی الهروب نحو الهضاب ورعوس الجبال خوفا وفرقا . ثم حاول هؤلاء الهاربون أن یستنفروا حلفاءهم لیقاتلوا معهم المسلمين ، ولكن الذین تجمعوا من وراء هذه المحاولة لم یستطیعوا الثبات أمام المسلمين .

كان المسلمون فی منتهی الحذر تحسبا للمفاجآت حتى شرع الله لهم صلاة الخوف فی هذه الغزوة .

وهبت ریح باردة فأنحاز النبی صلی الله علیه وسلم حین جاء الغروب الى أحد الشعاب الوعرة للاحتماء به من شدة البرد والریاح ، واختار عباد بن بشر وعمار بن یاسر رضی الله عنهما لیقوموا بحراسة الشعب من مباغطة العدو .

واقتسم الصحابیان الحراسة ، فاختار عباد أول اللیل ، ونام عمار فی انتظار نوبته ، وقام عباد على قم الشعب یصلی ، فجاء أحد الاعراب له زوجة أسيرة فی ید المسلمين مثلثا محاولا أن یصیب من المسلمين غرة ، فلما وجد عبادا قائما یصلی ظن أنه ربیئة المسلمين فمرماه بسهم فتحامل عباد

وانتزع من ظهره ومضى في صلاته ، فثبته ، بسهم آخر فأخرجه أيضا ومضى في صلاته ، ولكنه حين رآه بالمسلمين الدلائل أخذ يبارأ ليلتولى الحراسة مكانه . . .

وحين رأى عمار الدم ينزف بفزارة دمه قال له : لماذا لم توقظني حين أصبت أول مرة ؟ قال : كنت في سورة من القرآن ولم أرد أن أقطعها ، ولولا أنني خشيت أن اضيع ثغرا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه ما انصرفت ولو أتى على نفسي .

وانصرف هذا الرجل المهاجم بدون فائدة ، كما لم يجد العدو محاولته التجمع في اليوم التالي شيئا ، فقد انهزم أمام قوة المسلمين وأصرارهم ، ثم لم يجد هؤلاء الأعداء بدا من قبول الاسلام حتى يستردوا نساءهم وذرياتهم ويظفروا بعفو النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

وعاد النبي صلى الله عليه وسلم منتصرا مع أصحابه . ويقص علينا جابر بن عبد الله رضي الله عنه هذه القصة التي كشف فيها طرفا من أسواقنا عن علاقة النبي بأصحابه وحسن معشره معهم ، وذلك في أثناء العودة الى المدينة .

قال جابر : لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مالك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا . قال : أنخه ، فأنخته وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك ففعلت ، فنخسه بها نخسات ، ثم قال : اركب ، فركبت فخرج والذي بعثه بالحق يواحق - يسابق - ناقته مواهنة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتبيعني جملك هذا يا جابر ؟ قلت : بل أهبه لك يا رسول الله . قال : لا ولكن بعنيه ، فقلت : فسمنيه يا رسول الله . قال : قد أخذته بدرهم . قلت : اذن تغبنني يا رسول الله . قال : فبدرهمين ، قلت : لا ، فلم يزل يرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأوقية ، فقلت : قد رضيت يا رسول الله . ثم قال : يا جابر هل تزوجت بعد ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أثيبا أم بكرا ؟ قلت : لا بل ثيبا . قال :

أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ قالت : يا رسول الله ان أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعة فنكحت امرأة جامدة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن . قال : أصبت ان شاء الله ، أما انا لو قد جئنا صرارا — موضع قرب المدينة — أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها بهونا ذاك وسمعت بنا فتنفست نمارقها — حشاياها — قلت : يا رسول الله ما لنا نمارق ، قال : انها ستكون ، فإذا أتت قدمت فاعمل عملا كيسا .

فلما جئنا صرارا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلنا ، فحدثت المرأة الحديث ، فلما أصبحت أخذت برأس الجمال حتى أنخلته على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلست في المسجد قريبا منه ، فلما خرج رأى الجمال ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر ، قال : فأين جابر ؟ فذعبت له ، فقال : باني أخى خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال : اذهب بجابر فاعطه أوقية ، فاعطاني أوقية وزادني شيئا يسيرا ، فوالله ما زال بنمى عندي وهرى مكانه في بيتنا . .

معان نبيلة :

ولقد رأينا ما تهديه لنا هذه الغزوة والقصة معا من مثل كريمة : — منها تحمل المسلمين المشاق في سبيل الله حتى أن أقدامهم دميت فلفوا عليها الرقاع ، وتلبيتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سراعا ، وهم على ما هم عليه من جهد ومشقة لا يترددون في التلبية ، وهم على ما أصابهم من جهد وما أصابوا من بلاء حسن لا يفاخرون بما صنعوا ، حتى ان أبا موسى الأشعري رضى الله عنه الذى ورد عنه حديث لف الرقاع على قدميه يقول : لقد ندمت على ما أفشيت من عمل أحتسب أجره عند الله ، ومن هنا يستحب اخفاء الأعمال الصالحة .

— ومنها حب المسلمين للعبادة وتفانيهم فيها وصبرهم عليها وتلذذهم بها ، حتى لقد أصيب عباد بن بشر وهو قائم يصلى يقرأ القرآن ولم يقطع صلواته الا بعد أن جهد وخشى أن يغلبه العدو على مكانه فأيقظ رفيقه عمارا . (الم ١١ — هدى السيرة)

— وفي هذه الغزوة أراد أحد المشركين اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله عصمه منه ، ومع ذلك فقد عفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

— وانظر الى اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، فهو في غاية من الرقة والرحمة والتواضع ، فمن عادته أنه كان يتأخر في القتل عن أصحابه حتى يتفقدوهم ، وقد عرف ما بجابر ورق له ، وأكرم الله جابرا برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان سببا في نهوض جملة الضعيف وتقدمه بعد أن كان متأخرا .

ثم أخذ يداعب جابرا ويحادثه ، وكانت مساومته له على جملة طريقا غير مباشر لمساعدة جابر بعد أن أدرك حالته وضيق ذات يده . ان القصة تخبر عن لطف معشر النبي صلى الله عليه وسلم وحسن معاملته لأصحابه الذين بادلوه حبا بحب ووفاء بوفاء وآثروه على أنفسهم وافندوه وقت الشدة بارواحهم وصدق الله العظيم اذ يقول له : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** » آل عمران ١٥٩ .

وهكذا يجب أن يكون القادة في معاملتهم لرعاياهم ، ولا يغض من شأن الشريف أن يكون لين الجانب يأنس اليه أصحابه ، ويجدون في صدره الرحب ملاذا لهم وأمنا ، فهو يدنو منهم ويداعبهم في مزاح لطيف ويهش لهم ويضحك معهم ، وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم على أمي فوجد أخى أبا عمير حزينا ، فقال : يا أم سليم ما بال أبى عمير حزينا ؟ فقالت : يا رسول الله مات نغيره — طير كان يلعب به — فقتل الله عليه وسلم : أبا عمير ما فعل النغير ؟ وكان كلما رآه قال له ذلك .

ويعلق العقاد رحمه الله على هذه القصة قائلا : وهذه قصة صغيرة تميز بالعطف والبرودة من حيثها نظرت إليها ، فالبسيد يزور خادمه في بيته ، ويسأل أمه عن حزن أخيمه ويواسيه في موت طائر ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه ، ومثل هذا عطفه على الضعف البشري في رجل مثل عبيد الله الخُمَاصي

الذى لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحده في الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه ،

غزوة بدر الآخرة :

وكانت في شعبان من العام الرابع ، ولم يحدث فيها لقاء بين المسلمين وأعدائهم ، ذلك أن أبا سفيان عقب أحد قال للمسلمين : موعدنا معكم بدر العام المقبل ، فتجهز النبى صلى الله عليه وسلم وفاء بالوعد ، ولكن تريشا كانت مجدبة في هذا العام ، ولم يكن لديها استعداد للقتال ، فأرسل أبو سفيان نعيم بن مسعود الى المدينة يرجف بها أعد القرشيين للمسلمين في هذا اللقاء من مدة حتى يثبط من عزيمتهم فلا يخرجون وينسب الخلف لهم .

وجاء نعيم الى المدينة يقول : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، ولكن هذا الارجاف لم يزد النبى صلى الله عليه وسلم الا عزما على الخروج ، فخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه الى بدر فلم يجد أحدا ، وأقاموا في هذا المكان وكان سوقا للتجارة يجتمع اليه الناس في شعبان من كل عام .

وعاد المسلمون وقد غنموا سمعتهم الطيبة ومحافظتهم على وعودهم والاعلان بحسن استعدادهم ، وخذل عدوهم . وفي هذه الغزوة نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ — فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤ .

غزوة دومة الجندل :

وفي ربيع الأول من العام الخامس نما الى علم النبى صلى الله عليه وسلم أن الأعراب من دومة الجندل ، وكانوا ظالمين يريدون غزو المدينة ، فسار اليهم في ألف من أصحابه يسير بهم ليلا ويكن نهارا حتى يفاجئهم ، وحين قرب منهم بلغهم الخبر فغروا تاركين وراءهم ماشييتهم ومتاعهم ، فغنم المسلمون ما وجدوه .

غزوة الخندق :

كانت في شوال سنة خمس ، وتسمى غزوة الأحزاب لاجتماع الأحزاب فيها من قريش وغطفان وبنى مره وبنى أشجع وبنى سليم وبنى أسد في عشرة آلاف مقاتل يريدون المدينة على زعم استئصال شأفة المسلمين فيها . وقد حرض هؤلاء على ذلك يهود بنى النضير الذين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة ، وظاهرهم على ذلك من داخل المدينة يهود بنى قريظة الذين ظلوا محافظين على عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى زين لهم بنو النضير الغدر فغدروا :

واستشار النبي صلى الله عليه وسلم — كعادته — أصحابه في هذا الأمر ، فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق ، وهو أمر لم يكن العرب يعرفونه ، فحفروه في الجهة الغربية التي تؤتى المدينة من قبلها ، وعمل فيه النبي صلى الله عليه وسلم بيده ترغيبا للمسلمين في الأجر ، وكان المنافقون يتسللون لوإذا دون أذن حتى لا يعملوا فيه .

وحدث ابن اسحاق أنه إذا اشغبت على المسلمين وهم يحفرون كدية — صخرة — شكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بإناء فيه ماء فقتل فيه ثم دعا الله بما شاء ثم نضح بهذا الماء على تلك الكدية فتنهال كالكتيب لا ترد فأسا ولا مسحاة .

وقال سلمان الفارسي : غلظت على صخرة ورسول الله قريب مني ، فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب ثانية فلمعت برقة أخرى ، ثم ضرب الثالثة فلمعت برقة أخرى ، فقلت : يا رسول الله ما هذا الذي لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق .

قال ابن اسحاق راويا عن أبي هريرة قال — حين فتحت الأمصار في عهد عمر وعثمان بعده — : افتحوا ما بدا لكم فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما اففتحتم من مدينة ولا تفتحونها الى يوم القيامة الا وقد أعطى الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك .

وحين فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش ومن معها بخيلائها ، فأحاطوا بالمدينة ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المشاة كانت ظهورهم الى جبل سلع ، ولواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة ولواء الأنصار بيد سعد بن عباد .

وحين رأى المشركون الخندق هالهم ذلك ، وأخذوا ينحنيون فرصة لاقتحامه ، وسولت لعمر بن ود العامري نفسه فعبّر بفرسه الخندق طالبا المبارزة فخرج له على بن أبى طالب ، وقد لبس درع النبي صلى الله عليه وسلم وتقلد بسيفه ، وحين التقيا قال عمرو لعلى : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب ، فاستصغر شأنه وقال له : انى والله بابن أخى غير حريص على قتلك فارجع الى أهلك ، فقال له على : ولكنى حريص على قتلك ، وما هى الا جولة أو اثنتان حتى نمكن على من قتله بحول الله ، وصرع الفارس المغرور ، وهلل المسلمون وكبروا .

ولم يستطع المشركون أن يفعلوا شيئا ، ولم يحدث بين الطرفين سوى تراشق بالسهم لم يحسم المعركة .

دور نعيم بن مسعود :

وكان نعيم بن مسعود مشركا ، ولكن الله أراد له الهدى فاستنار قلبه بالإيمان ، وعزم على أن يفعل شيئا لصالح المسلمين ، فتمسك فى خفية ، وأتم الله عليه نعمته فمكّنه من أن يصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم على يديه ، وقال : يا رسول الله مرنى بما شئت . فقال له : انما أنت فرد واحد ، فخذل عنا ما استطعت فانما الحرب خدعة .

وكان يهود بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن زين لهم ذلك بنو النضير بزعماء حبي بن أخطب ، كانوا يثقون بنعيم بن مسعود ، فانطلق اليهم ودخل على زعيمهم كعب بن أسد وهو يظن أن نعيما ما زال على شركه ، فأحسن استقباله ، وما زال نعيم به حتى أقنعه بأن قريشا ومن معهم سوف يتخلون عنهم ويتركونهم وشأنهم مع محمد الذى سينفرد بهم بعد جلاء الأحزاب ، وأسقط فى يد كعب واحسان كيف

يصنع ، فاقترح عليه نعيم أن يطلب سبعين شخصا من رعوس الأحزاب لكونوا رهائن في يد بنى قريظة حتى يضمنوا استمرار حصار المدينة . واقتنع كعب بن أسد برأى نعيم فهو عنده غير متهم .

وتركه نعيم في طريقه الى أبى سفيان ، وأسر اليه أن بنى قريظة ندموا على نقضهم العهد الذى كان بينهم وبين محمد ، وليبينوا له توبتهم عن ذلك عزموا على أن يسلموه سبعين رأسا من رعوسكم وسوف يحصلون على ذلك منكم عن طريق محادعتكم .

وعجب أبو سفيان لهذا الخبر ولكنه أراد أن يستوثق منسه ، فوجه هو ومن معه من قادة الأحزاب الى بنى قريظة رسولا يخبرهم بأن الأحزاب قد قرروا بدء القتال صباح اليوم التالى ، فعلى اليهود أن يقوموا بتعهداتهم وبنمذوا وعودهم .

فاعتذر اليهود بأن اليوم التالى هو يوم سبت وهم لا يحاربون فيه ، وهم يريدون أيضا أن يسئوتوا من صدق الأحزاب في موقفهم مع اليهود ، فسلطهم أن يسلموا لهم سبعين رجلا ليكونوا رهينة في أيديهم ، حتى لا يتخلى عنهم الأحزاب ويتركهم فريسة لمحمد .

وكان هذا الرد كافيا لأن يزرع ثقة الأحزاب في اليهود ، كما كان امتناع الأحزاب عن تسليم الرهائن كافيا أن يثير رغبة اليهود في الأحزاب . وبذلك نجح نعيم بن مسعود في تفريق شمل الحليفين بل وفي زرع العداوة بينهما .

وأصبح الأحزاب منذ هذه اللحظة مستريين في نصرهم ، بل اعتقدوا أن اليهود سوف يعينون المسلمين عليهم ، وحين بدأ الشك يدب في صفوفهم أخذت بعض القبائل تتخلى عن مواقعها ، وبدأت من أبى سفيان وهو القائد الأعلى للأحزاب رغبة في العودة ، فقد بات الأمل في كسب المعركة ضد المسلمين بعيدا ان لم يكن مستحيلا .

ولكن الله أراد أن ينزع الثقة من نفوسهم تماما ، وأن يوقع الرعب في نفوسهم ، وأن ينزل بهم هزيمة ساحقة بغير سيوف المسلمين ، فأرسل

عليهم ريحا صرصرا عاتية قلعت خيامهم وكفأت قدورهم واعمت أبصارهم ، فاضطربوا اضطرابا شديدا ، حتى أخذ بعضهم يضرب بعضا استرابة فيه وظنا أنه من المسلمين ، ولم يجدوا بدا من الفرار نجاة بأنفسهم . .

ولقد توقع المسلمون هذه النهاية المثيرة لهم ، فحين بدأ البرد يزحف على جبهة القتال أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستطلع خبر المهاجمين ، فأرسل حذيفة بن اليمان ليقوم بهذه المهمة ، فخرج وهو لا يكاد يتماسسك من شدة البرد ، واستطاع أن يتسلل الى صفوف المشركين وأن يجلس بينهم دون أن يفتنوا له ، وقد تبين من أحاديثهم عزمهم على الرجوع بمد أن أصبحت مواقعهم ليست بدار مقام ، ثم تسلل عائدا ليخبر النبي صلى الله عليه وسلم بمدى الانهيار النفسى الذى أصاب المشركين .

وهكذا انسحب المشركون مخذولين وقد تفلتت من أيديهم الفرصة التى حلموا بها طويلا ، وأعز الله جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، وصدق الله حيث صور هذه المعركة وحالة المؤمنين حين نقض اليهود العهد وحين تخلى المنافقون عن تأييدهم للمسلمين ، فأصبحوا بين عدوين ، ولكن الله هو الذى تولى نصرهم وتأيدهم وقال فى ذلك : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود عارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا — اذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا — هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . . . » الى أن قال : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » الأحزاب ٩ : ٢٥ .

دروس نافعة :

ولقد تعلمنا من هذه الغزوة درسا آخر فى نقض العهد من اليهود وعدم محافظتهم عليها وغدرهم المتواصل ، وهم لا يحافظون على هذه العهود الا خوفا فاذا أمكنتهم الفرصة لم يلبثوا أن يغدروا . وهم لا ينسون العداوة مطلقا ، فهذا حى بن أخطب زعيم بنى النضير الذين أجلوا عن المدينة لم ينس عداوته ، ولم يأخذ عبرة مما أصابه ، فمشى الى المشركين حتى

أذعرهم على النبي صلى الله عليه وسلم أولا فجمعوا ما جمعوا ، ثم مشى الى غيرهم بعد ذلك حتى الب السرب عليهم ، ثم ما زال بينى قريظة حتى جعلهم يتكون بعدهم ويغفرون ، ثم ان هؤلاء ما كان لهم ان يغفروا لولا أنهم يثقوا بأن المسلمين في موقف حرج وان الدائرة ستدور عليهم فهذه فرصة لا بد أن ينتموها . وغدرهم هذا هو الذى جعل ظهر المسلمين ينكشف ويصيبهم بذلك اضطراب شديد . هذا درس للمسلمين يعلمون منه أنه لا ثقة بكافر . .

وتعلمنا أيضا وجوب اتخاذ ما يلزم من أسلحة لمواجهة العدو ، والجهديد في وسائل الحرب والاحتياط لسمى الحظر وكسب النصر ، وبث العيون والارصاد واستطلاع الاحبار واستعمال الخي في الإبلاغ وهو ما يسمى الآن بالشفره ، وقد استعملها النبي صلى الله عليه وسلم ، فحين أراد أن يستوثق من غدر بنى قريظة أرسل سعد بن معاذ لينتق من الخبر . وأوصاه بأن يلحن — يكنى — له بإشارة يفهمها ان كان الخبر صحيحا ، وأن يجهر ان كان كذبا ، حتى لا يفت ذلك عضد المسلمين ، فحين استوثق من صحة الخبر عاد يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله عضل والقاره ، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أبشروا بالنصر . واراد سعد بكلمه عضل والساره أن اليهود غدروا كفدر هاتين الفيلتين : عضل والقارة .

ونتعلم أيضا امكانية استعمال الحيلة والدهاء فالحرب خدعة كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد تمكن نعيم بن مسعود بحيلته ودهائه أن يحبط التحالف بين المنرخين واليهود ، مما أربك خطط العدو وكان سببا من أسباب تراجعهم قبل أن تدهمهم الريح العاصفه والبرد الشديد .

ونتعلم كذلك وجوب تكاف المسلمين وتضامنهم وحبهم الشديد لبعضهم حتى فأنوا في انمام الخندق في مده قياسية ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة لهم في الدأب والجِد والعمل ، يشجعهم ويعمل بيده معهم ، وقد أصابهم في ذلك الجهد الشديد والارهاق البالغ بالاضافة الى الجوع الذى تعرضوا له ، ولم يفت ذلك في عضدهم .

من معجزات الرسول :

ومما يدل على مدى الجهد الذى كانوا يسيه ما يرويه ابن اسحاق فى سيرته عن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان قالت : دعتنى أمى فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى وقالت : اذهبى الى أبىك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما ، فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى : تعالى يا بنية ما معك ؟ فقلت : نمر بعثتنى به أمى الى أبى وخالى ، قال : هاتيه : فصبيته فى كفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأتهما ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا — ألقى — بالتمر عليه فتبدد فوق النوب ، ثم قال لانسائه عنده : اصرخ فى أهل الخندق أن هلم الى الغداء ، فاجتمع الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه وأنه ليسقط من أطراف الثوب .

كما روى عن جابر بن عبد الله قال : عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخندق ، فكانت عندى ثويهة غير جسد سميتها ، فقلت : لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأمرت امرأتى فطحنت لنا شبيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزا وذبحت لنا تلك الشاة .

قال : فلما أمسينا قلت : يا رسول الله ، انى قد صنعت لك ثويهة كانت عندنا وصنعنا معها شبيئا من خبز هذا الشعير ، فأحب أن تنصرف معى الى منزلى — وانما أريد أن ينصرف معى وحده — فلما قلت له ذلك ، قال : انا لله وانا اليه راجعون .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرجناها اليه فبرك وسمى الله ، ثم أكل وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها .

وفى رواية البخارى لهذه القصة : أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره (أى جابرا) ألا ينزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى يأتى ، وذلك بعد أن أخبره جابر بأن ما صنعه من طعام يكفيه ويكفى معه رجلا أو رجلين ، وحين جاء القوم الى الطعام جعل النبى صلى الله عليه وسلم يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرده — أى يغطيها — والتنور اذا أخذ منه ،

حتى فرغ القوم وبقي بقية ، فقال لامرأة جابر : كلى واهدى فان الناس أصابتهم مجاعة .

ما اعظم هذه البركة ، وما أجدر هذه القصة ان ترد على هؤلاء القوم الذين يقولون : ان المعجزات الحسية لا مكان لها في حياة الرسول .

لقد حفلت هذه الغزوة بالمعاني والعبر كما حفل غيرها بذلك ، وان قليلا منها ليكفي ان يضيف الى معيار هذه الشخصية الجليلة كثيرا من مواطن العظمة والاعجاب فما بالك بكل ما تفيض به من المعاني والمثل ؟ .

غزوة بنى قريظة :

وكان من الطبيعي أن يهبط الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم أمرا له بالتوجه الى بنى قريظة ، هؤلاء الذين نقضوا عهدهم وتخلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في وقت الشدة بل وظاهروا عدوه عليه .

فتقد ورد في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم حين رجس من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه فخرج اليهم ، قال : الى أين ؟ فقال : ههنا ، وأشار الى بنى قريظة . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم اليهم .

ونادى منادى النبي صلى الله عليه وسلم في الناس : لا يصلين أحد العصر الا في بنى قريظة ، وحاصروهم النبي صلى الله عليه وسلم خمسين وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار ، وألقى الله الرعب في قلوبهم فبدأوا يفكرون في المفاوضة .

وخطبهم زعيمهم — وقد أدرك دقة الموقف وخطورته — قائلا : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون واني عارض عليكم خلافا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم ، فقالوا : ما هي ؟ قال : اما أن نتابع هذا الرجل ونصدقته فوالله لقد نبين لكم أنه نبي مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتؤمنون على دماءكم وأموالكم ونسائكم ، فان أبيتم فلنقتل نساءنا وأبنائنا ونخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم

الله بيننا وبين محمد ، فان أبيتم هذه أيضا فان الليلة ليلة سبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها فانزلوا لعنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

ولكنهم رفضوا هذه الاقتراحات بشدة وانفقوا على ملازمة حصونهم ، ثم انهم بعد أن خامرهم اليأس لم يجدوا بدا من النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحب النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الحكم فيهم الى سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس التي كانت حليفة لبني قريظة ، فوافقوا على ذلك .

وكان سعد بن معاذ قد أصيب بسهم في الخندق وكان يعالج منه ، وقد دعا الله ألا يموت من جرحه هذا حتى يشفى الله نفسه من بنى قريظة ، فاستدعاه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدم على حمار ، فلما دنا قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : قوهوا لسيدكم ، ثم قال : ان هؤلاء نزلوا على حكمك . فحكم عليهم سعد بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قضيت بحكم الله تعالى . وانفجر جرح سعد عقب هذا الحكم فكان سبب موته .

واستنزل اليهود من حصونهم حيث لقوا المصير الذي استحقوه بغدرهم وخيانتهم ، وضرب معهم عنق حبي بن أخطب زعيم بنى النضير الذي زين لهم السوء وحررضهم على الغدر والخيانة .

وانتهت صفحة من صفحات الختل والمكر والخسة ، ولو قدر لهم أن ينجوا أو أن يلقوا مصيرا مشابها لمصائر السابقين لهم للقى المسلمون منهم الكثير من الكيد والدس والايذاء ، ماذا يصنع النبي صلى الله عليه وسلم مع قوم يتيقنون من نبوته ومع ذلك يلجئون في عداوته ويقفون في طريق دعوته وحررضون عليه أعداءه ؟

انهم لم يؤمنوا مكابرة وعنادا وحسدا من عند أنفسهم ومثل هؤلاء لا علاج لهم الا التخلص منهم انتقاء لشرهم وحفاظا على دار الهجرة من أن تظل مكانا للدسيسة والوقيعه بين المسلمين ، أو أن يظل فيها مكان يطعن

ففيه المسلمون من الخلف ، وقد جرب المسلمون الاجلاء فلم يزد على أن جعل هؤلاء المطرودين يمائون الجزيرة فسادا وكيدا ، فكان لابد من هذا الاجراء الحاسم الجرى .

وفي أمر النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالقيام لسعد بن معاذ دلالة على مشروعية القيام للقادم تكريما له ، وبالقياص عليه وجوب تكريم أولى الفضل من المسلمين ، وانما القيام المنهى عنه هو أن يظل المرء جالسا والناس حوله قياما لا يستطيعون الجلوس ، وقد ورد في ذلك حديث شريف : « من أحب أن يتمثل له الناس قياما فلينبأ مقعده من النار » .

ان الاسلام هو دين التواضع ، وهو كذلك دين التراحم والمروءة ومعرفة أقدار الناس ، فما علينا أن نكرم ذوى الفضل ، ولكن الذى يرى لنفسه موضعا يجب أن يكرمه الناس من أجله فهذا هو المنهى عنه .

واننا لنذكر من حديث النبي صلى الله عليه وسلم بخصوص سعد معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أقدارهم ومنازلهم .

غزوة بنى المصطلق :

كانت في شعبان في العام السادس الهجرى فيما يرويه ابن اسحاق في سيرته ، وان كان بعض كتاب السيرة الأفاضل يرون أنها كانت في العام الخامس قبل غزوة الخندق .

وقد ذكر ابن اسحاق غزوتين قبل غزوة بنى المصطلق ، وهاتان الغزوتان هما غزوة بنى لحيان وغزوة ذى قرد . وبنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وأصحابه .

أما غزوة بنى لحيان فكانت بهدف الثأر لأصحاب الرجيع ، ولكنه ما ان بلغهم خروج النبي صلى الله عليه وسلم لهم حتى تفرقوا في رموس الجبال ، ولم يظفر بهم ، وكان ذلك في جمادى الأولى من العام السادس .

ثم بعد عودته الى المدينة لم يقيم بها الا ليالى قلائل حتى أغار عيينة ابن حصن الغزارى في خيل من غطفان على لقاح لرسول الله صلى الله

عليه وسلم بالغابة ، وقتلوا رجلا وأسروا امراته ، فبلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم فتبعهم واستنقذ السرح منهم وقتل من قتل ، وكان ذلك في مكان اسمه : ذو قرد .

وأما غزوة بنى المصطلق فقصصها أن بنى المصطلق وهم بطن من بخزاعة جمعوا بقيادة الحارث بن أبي ضرار وهو أبو جويرية بنت الحارث التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك . جمعوا جندا غفيرا أعدوه لحاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع الرسول بذلك خرج اليهم حتى لقيهم على ماء اسمه المريسيع وكان لخزاعة ، واقتتل الجيشان ، فهزم الله بنى المصطلق وغنم المسلمون أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

وقد حدث في هذه الغزوة أمور تستدعي الاشارة اليها بل الوقوف عندها .

ذلك أن المنافقين اشتركوا في هذه الغزوة طمعا في الغنائم بعد أن علموا اطراد النصر للمسلمين ، وكان اشراكهم هذه المرة مدعاة لحدوث فتنة كاد يترتب عليها شر كبير بين المهاجرين والأنصار ، فقد تنازع غلام لعمر بن الخطاب اسمه « جهجاه بن سعيد الغفاري » مع « سنان بن وبر الجهني » عند الماء وكادا يقتتلان ، فصاح الجهني : يا معشر الأنصار ، وصاح جهجاه : يا معشر المهاجرين .

واهتبل عبد الله بن أبي بن سلول الفرصة فأراد أن يشعلها نارا ، وقال لمن معه : أوفعلوها ، لقد نأفرونا وكأثرونا في دارنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش — يقصد المهاجرين — الا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ونقل الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار عمر رضي الله عنه بقتل ابن أبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟

وأمر صلى الله عليه وسلم بأن يؤذن في الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم التالي حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبنوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما . ولقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس .

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في أن يقتل أباه بنفسه أن كان لابد من قتله ، حتى لا ينظر إلى قاتل أبيه فيجد عليه في نفسه فيقتله بأبيه ، فيكون قد قتل مسلما بكاثر . هكذا قال للنبي صلى الله عليه وسلم . ولكن النبي ترفق به فقال له : لا تقتله ، ولكن تحسن صحبته ما بقي معنا .

وأخذ أصحاب عبد الله بن أبي بعد ذلك يعنفونه على ما قال . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له أنف لو أمرتها بقتله اليوم لقتلته . فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

هذا أمر ، وهناك أمر آخر هو حديث الإفك ، وهذه قصته : في أثناء انصراف المسلمين في هذه الغزوة كانت السيدة عائشة رضى الله عنها في بعض شأنها فأنفلت عقد من صدرها فراحت تلتسمه ، فحين أذن بالرحيل لم تسمع ، وجاء القوم فاحتلوا اليهودج الخاص بها على اعتبار أنها فيه ، وعادت فلم تجد أحدا فجلست في مكانها ، وجاء صفوان بن المعطل ، الذي تخلف وراء الجيش ليتفقد ما عساهم أن يتركوه ، فوجدها جالسة — وكان قد رآها قبل نزول آيات الحجاب — فقال : أنا الله وأنا إليه راجعون ظمينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأناخ راحلته واستأخر عنها حتى ركبت ، وانطلق يقود الراحلة حتى لحق بالجيش ، فلم تنج رضى الله عنها من لسان عبد الله بن أبي بن سلول وبعضهم ، وحدث أن مرضت عقب عودتها ولزمت الفراش ، والناس يخوضون فيما أشاعه المنافق عنها ، حتى تأذى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلا : يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغ من أذاه في أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلى الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا . .

وحسم القرآن الموقف فنزل مبرئاً ساحرة أم المؤمنين رضى الله عنها وداعياً الى اقامة الحد على من يقذف المحصنات .

لقد تجلت حكمة النبی صلی الله علیه وسلم واضحة في علاج المشكلات ، فان أبسط ما يأمر به أى قائد — وهو معذور في تصرفه — تواجهه هذه المشكلة أن يأمر بقتل مثيرها . الا أن نظر النبی صلی الله علیه وسلم كان أبعد من الوقوف عند العلاج القريب الذي لا يحسم الأمور ، بل في الامكان أن يوغر الصدور ويثير النفوس وبفجر الفتنة ، لقد شغل النبی صلی الله علیه وسلم الناس بالسفر المتواصل الشاق ، حتى اذا بلغ منهم التعب أقصاه نزل بهم فناموا نوما عميقا ، وكان ذلك كافيا لينسي الناس ما حدث من ابن سلول .

ثم ان حديثه لابنه المؤمن بأنه سيقترق بأبيه ويحسن معاملته أثلج صدر هذا الابن المؤمن الصادق الايمان ، وكانت هذه مجاملة طيبة من النبی صلی الله علیه وسلم له ، وفي الوقت نفسه كانت افساحا للمجال أمام رفقاء الأرب المنافق ليكتشفوه على حقيقته فيصدوا عنه ويحتقروه ، حتى قال النبی صلی الله علیه وسلم لعمر : لو قتلناه يومذاك لأرعدت له أنوف لو أمرت بقتله اليوم لقتلته .

وقد كان النبی صلی الله علیه وسلم حريصا على حسن معاملته أصحابه طبعاً لا تكلفاً ، وقد بعث رحمة للعالمين ، وهو لين الجانب الى أبعد حد ، ولا يلجأ الى الشدة الا حين تستحيل نتيجة اللين عبثاً عملاً بقول القائل : آخر الدواء الكى .

كما كان موقف عبد الله الابن موقفا رجولياً يدل على قوة الايمان وثبات العقيدة والبر بصلة الايمان ، ولم يشأ أن يعكر ايمانه بأدنى شيء وفي سبيل ذلك أن يضحى بأقرب الناس اليه محافظة على عقيدته ببيضاء ناصعة .

ولقد جدت بعض الرواة أن عبد الله الابن في أثناء الرجوع الى المدينة بعد غزوة بنى المصطلق سبق حتى وقف على باب المدينة قبل أن يدخلها

المسلمون ، فلما جاء أبوه ليدخل منعه وقال له : والله لن تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعلم من هو الأذل ومن هو الأعز ؟ ولم يدعه يدخل حتى أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فهل هناك دليل على محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا ؟

ولقد أراد الله أن يختبر نبيه صلى الله عليه وسلم بحديث الافك ليظهر قيمة الثم في الصبر ، ومثلا أعلى للمؤمنين في الاحتساب ، فلم يكن هناك لون من الابتلاء يصعب على النفس البشرية تحمله الا والنبي صلى الله عليه وسلم ذاته وصبر عليه واحتساب أجره عند الله .

لقد فقد أحب الناس إليه فصير ، وأودى في جسده فصير ، وأودى في عرضه فصير واحتساب ، كان الافك محنة فصار منحة ، كان بلاء فصار وساما ، ونزلت تبرئة الزوجة العفيفة في قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته أبد الدهر . فهل هناك تكريم لعائشة أكثر من هذا ؟ ولقد صدق الله العظيم إذ يقول « **ان الذين جاءوا بالافك عصابة منكم لا تهسيبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** » النور ١١ .

كان هذا الحادث فرصة يتعلم منها المؤمنون دروسا في التهذيب وحسن الخلق والتمسك بالفضائل ، ولقد أراد أبو بكر أن يقطع معونته عن قريب له اسمه « مسطح » كان يعوله ، ولكنه ضلح في الافك ، فنزل القرآن الكريم يأمره بالاحسان الى من أساء اليه ويقول له « **ولا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولُو الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** » النور ٢٢ . قال أبو بكر حين نزلت هذه الآية : بلى يا رب نحب أن تغفر لنا ووصل مسطحا كما كان يصله .

وفي حديث الافك نزلت الآيات الخاصة بها في سورة النور ، وفي فتنة المنافقين الأولى نزلت سورة « **المنافقون** » .

ومن نواذر الحكمة العالية في غزوة بنى المصطلق أن النبي صلى الله عليه وسلم أعتق جارية من السبي هي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس القوم وتزوجها ، فحين فعل ذلك أطلق كل مسلم كل أسيرة في يده من بنى المصطلق قائلين : لا يجوز لنا أن نبقى أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم سبائا في أيدينا ، وكان هذا التصرف سببا في اعتناق بنى المصطلق جميعا الاسلام ، حتى قالوا : ما من امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها .

بين يدي الحديبية :

وقبل أن ينتقل جهاد النبي صلى الله عليه وسلم انتقلته الكبرى نحو فتح مكة حدثت عدة سرايا أعقبها غزوة الحديبية أو صلح الحديبية .

ولا بأس من ذكر هذه السرايا على حسب ما أورده صاحب كتاب "تور اليقين" — رحمه الله —

— فقد كانت هناك سرية عكاشة بن محض في أربعين راكبا للاغارة على بنى أسد الذين كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، وقد قاد الركب يعد أن استاق مائة من الإبل ، ولم يلق كيدا .

— وسرية محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين لتأديب الأعراب بذي القصة الذين يريدون الاغارة على نعم المسلمين ، ولم يعد من هذه السرية سوى قائدها ، فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأرسل اليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فهرب الأعراب أمامه فاستاق نعمهم ورجع . وكانت هذه السرية في ربيع الأول وربيع الآخر .

— وسرية زيد بن حارثة الى بنى سليم الذين اشتبكوا مع الأحزاب يوم الخندق ، وعادت السرية ببعض الأسرى والفنائم ، وكانت في ربيع الآخر أيضا .

— وسرية زيد بن حارثة أيضا لاقتراض مير قريش في طريقهم لمكة ، فغنمها زيد ، وأسر جميع من فيها ومنهم أبو العاص بن الربيع زوج (م ١٢) — هدي السيرة)

زَيْنَب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أسنجر العاص بزَيْنَب فأجارته واحترم النبي صلى الله عليه وسلم جوارها ، فرد عليه ماله ، وحين وصل الى مكة أعلن إسلامه ورجع الى المدينة مسلما ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم عليه وزوجه .

ولم يشأ أن يعلن العاص إسلامه في المدينة حتى لا يظن أنه أسلم طمعا في مال القوم الذي كان معه ، ولكنه بعد أن أوفى بما عنده لأهل مكة قال لهم : هل بقي لأحد في ذمتي شيء ؟ قالوا : لا . قال : فاني أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، والله ما منعني من الإسلام عنده الا تخوفي أن يظنوا أنني أردت أن أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

— وسريه زيد بن حارثة أيضا في جمادى الآخرة للاغارة على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة ، فهربوا أمامه ، فاستاق نعمهم وثناءهم .

— وسريه زياد بن حارثة في رجب للاغارة على بنى فزارة الذين كانوا قد تعرضوا لزيد وهو راجع من الشام وسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه ، وقد دهمهم زيد ورجاله في معقلهم ، وأحاطوا بهم ، وقتلوا منهم جمعا كبيرا ، وأسرُوا بعضهم وفيهم امرأة افتدى بها النبي صلى الله عليه وسلم أحد الأسرى من المسلمين في مكة .

— وسريه عبد الرحمن بن عوف في شعبان مع سبعمائة من أصحابه لغزو بني كلب في دومة الجندل وكانت وصية النبي صلى الله عليه وسلم لهم : أغزوا جميعا فقاتلن من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم .

و حين وصلوا إليهم دعاهم عبد الرحمن الى الإسلام فأسلم رئيس القوم الأصمغ بن عمرو وكان نصرانيا ، وأسلم معه جمع من قومه ، ورضى الباقون باعطاء الجزية .

— وفي شعبان أيضا كانت سريه على بن أبي طالب في مائة لغزو بني

مسعد بن بكر بفدك ، لأنهم كانوا يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين ، وقد عاد على ومعه خمسمائة بعير ألفا شاة أما الرجال فكانوا قد تفرقوا بددا خوفا ورعبا .

— وخرج خمسة من الخزرج بقيادة عبد الله بن عتيك الى خيبر ، وتمكنوا من قتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز ، وكان ذا ثروة طائلة يسيطر بها على قلوب اليهود ، ويؤلبهم على عداوة المسلمين وحربهم ، وبقتله تخلص المسلمون من عدو لدود ، وقام الخزرج بعمل عظيم يضارع عمل الأوس الذى سبق فى تخلصهم من كعب بن الأشرف ، وقد كسرت رجل ابن عتيك فى أثناء عودته من هذه المهمة ، فمسح عليها النبى صلى الله عليه وسلم فكانه لم يشتكها قط .

— وسرية عبد الله بن رواحة فى ثلاثين من الأنصار الى خيبر أيضا لاستمالة أسير بن رزام الذى تولى زعامة اليهود بعد كعب ، وكان قد بلغ المسلمين أنه يحرض غطفان عليهم ، وقبل أسير أن يسير مع المسلمين فى ثلاثين يهوديا الى النبى صلى الله عليه وسلم تائباً مما حدث حتى يأمن على أهله ودياره ، ولكنه فى الطريق غدر وأراد أن يقتل ابن رواحة فقتله عبدا لله وقتل من معه .

— وفى شوال وفد جماعة من عكل وعرينة فأظهروا الاسلام ، وكانوا سقاما فعالجهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يحفظوا النعمة فأغاروا على راع للمسلمين فقتلوه واستاقوا الابل ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم كرز بن جابر الفهري بأن يلحق بهم فى عشرين فارسا ، فلهقوهم وأعادوهم الى المدينة فقتلوا جزاء خيانتهم وغدرهم ، وطبقت عليهم الآية الكريمة « **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويقتلون الأنبياء فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف »** المائدة ٣٣ .

— وحاول أبو سفيان أن يكلف رجلا يغتال النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن النبى عرف ما فى ذهن الرجل حين رآه فى المسجد ، فقال له : ما شأنك ؟ فاضطرب الرجل وسقط الخنجر الذى كان يخفيه ، ثم تاب وأسلم . لقد عصه الله كما وعده بذلك .

وأراد عمرو بن أمية الضمري ومعه رفيق له النوجه الى مكة للاقتصاص من أبى سفيان جزاء عمله ، ولكن الله أراد بأبى سفيان خيرا فنجا من الرجلين ليكون أول من يسلم ببده مفاتيح مكة للنبي صلى الله عليه وسلم وذلك بعد أن أسلم في الطريق الى فتح النبي لها . .

هذه سرايا واحداث كانت مقدمة لغزوة الحديبية ، فقد كانت هذه السرايا بمثابة الاعلان الجريء لقوة المسلمين حتى لا يعترض طريقهم أحد مسلمين أو محاربين .

غزوة الحديبية :

ثم جاءت غزوة الحديبية بعد تلك الأحداث ، وكانت في ذى القعدة سنة ست من الهجرة ، ويطلق عليها صالح الحديبية نظرا للنتيجة التي انتهت اليها .

وقصة هذه الغزوة ملخصة من كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن أنه يريد أداء العمرة ، فنبهه عدد كبير من المهاجرين والأنصار يقدر عددهم بألف وأربعمائة ، وأحرم بالعمرة في الطريق ، وساق أمامه الهدى دلالة على أنه لم يخرج محاربا ، بل خرج معظما لله وبيته .

وفي أثناء الطريق بلغه أن قريشا جمعت له جموعا غفيرة لتمنعه من دخول مكة ، فغير طريقه المعتاد وسار بين الشعاب الصعبة الشاقة حتى وصل الى مكان يسمى الحديبية وهناك بركت راحلته ، فقاتل المسلمون : لقد خلأت القصواء — أى حرنت ناقته المسماة بالقصواء وبركت بغير علة — فقال عليه الصلاة والسلام : ما خلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ، والذي نفسى بيده ما تدعونى قريش لخصلة فيها تعظيم حرمت الله الا أجبتهم اليها .

وكان بالمكان الذى نزلوا فيه عين تسمى عين الحديبية وهى قليلة الماء لم يلبث المسلمون أن نزحوه فنزع النبي صلى الله عليه وسلم بهما من كئنته وأمر بأن يوضع في العين ففاض الماء وما زال يفيض حتى صدروا ،
هنا

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر معه يقول : اتى شركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل — يقصد خرجوا ومعهم ما يحتاجون اليه — وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انا لم نجىء لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين ، وان قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس فان أظهر فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ففعلوا والا فقد جموا — استراحوا — وان هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفنى ، ولينفذن الله أمره .

فعاد بديل بذلك الى قريش . فجاء عروة بن مسعود ليفاوض النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأى ما هاله من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ومكانته بين أصحابه ، رأى قوماً يتسابقون في أفندائه بكل ما يملكون ، وبننافسون في التقرب اليه بكل ما يقدرون ، ولم يملك الا أن يقول لقريش حين عاد اليهم : أى قوم لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر كسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، وأنه قد عرض عليكم خطة رشدة فاتبلوها ..

وعادت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو ممثلاً لها في كتابة عهد الصلح بين المسلمين وقريش ، وكانت خلاصة هذا الصلح أن يعود المسلمون في عامهم هذا فلا يدخلوا مكة ، ولهم أن يدخلوها في العام القادم وليس معهم الا السيوف في قرابها . وأنه لا يأتى رجل من المشركين الى النبي وان كان على دين الاسلام الا رده عليهم وأنهم لا يردون من يأتيهم من المسلمين ، وأن الحرب توضع بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين عشر سنين ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد المسلمين دخل فيه .

فانضمت خزاعة الى عهد المسلمين وانضمت بكر الى عهد قريش .

المسلمون والصلح :

ولم يرض هذا الصلح كثيراً من المسلمين ، فانهم كانوا قد تهيئوا لدخول مكة التى يشتاقون اليها ، خاصة وأنهم سمعوا أن النبي صلى الله

عليه وسلم رأى في منامه أنه دخل مكة فتيفقوا من ذلك لأن رؤياه حق . كما أن نصوص الصلح فيها مساس — من وجهة نظرهم — بعزة هذا الدين الذي يعتنقونه حتى قال عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : **الست نبي الله حقا ؟** قال : **بلى** . قال : **الست على حق وعدونا على باطل ؟** قال : **بلى** . قال : **البس قتلانا في الجنة وقتلناهم في النار ؟** قال : **بلى** . قال : **فغيم نعطي الدنية في ديننا اذن ؟** قال النبي صلى الله عليه وسلم : **اى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى** . قال عمر : **أولست كنت تحدثنا أننا سنأبى البيت نطوف به ؟** قال : **بلى** ، فأخبرتك أنك تأتيه في عامك هذا ؟ قال عمر : **لا** ، قال : **فانك آتيه ومطوف به** .

وطلب النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه أن ينحروا ويحلقوا فوجموا ، فأذكر ذلك منهم ، وخشى عليهم من غضب الله . فأشارت عليه أم سلمة رضى الله عنها قائلة : **اخرج اليهم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك ويدعو حالقك فيحلقك** ، ففعل ذلك ، فما بقى أحد من المسلمين لا بفعل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بيعة الرضوان :

وحدث في أثناء هذه الغزوة ما يطلق عليه المسلمون بيعة الرضوان التى نزلت في شأنها قوله تعالى في سورة الفتح **«لقد رضى الله عن المؤمنين الذين يبايعونك تحت الشجرة»** .

وسبب هذه البيعة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أرسل عثمان بن عفان الى قريش قبل كتابة الصلح مفاوضا ، فاحتبسته قريش حتى أشيع أنه قتل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك : **لا نبرح حتى نناجز القوم** ، ودعا الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان ، يأخذ بيد أصحابه الواحد تلو الآخر يبايعونه على الموت ، ثم أخذ في النهاية بيد نفسه وقال هذه عن عثمان ، ثم عرف القوم بعد ذلك أن شائعة قتل عثمان غير صحيحة .

وفي هذه الغزوة نزلت سورة الفتح التى تبشر بالنصر ، وتثنى على موقف المؤمنين الصادقين كما تنعى على المنافقين والمخلفين موقفهم وتخادلهم ،

وتشير الى الحكمة الجلية التي تجلت في موقف النبي صلى الله عليه وسلم وموافقته على هذا الصلح دون دخول مكة ، وتصدق النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا — هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » الفتح ٢٧ ، ٢٨ .

حكمة عالية :

لقد كان هذا الفتح مقدمة كبرى لفتح مكة ، وهو وان كان المسلمون لم ينتهبوا لحكمته الا مؤخرا الا أن حكمته بدأت تظهر شيئا فشيئا ، حتى ادرك المسلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم يدرك ما لا يدركون ويتوقع ما لا يتوقعون .

لقد أمن الناس منذ هذا الصلح بعضهم بعضا ، فبدأت غشاوة الكفر تزول عن قلوب الكفار فينتفهمون الاسلام على حقيقته ، لقد انهار طغيان قريش الذي كانت تتسلط به على الرقاب وتحول به بين الناس وبين مجرد التفكير ، ويكفى أن يسلم قائد عظيم كخالد بن الوليد وكهمرو بن العاص ، نتيجة لزوال الحائل البغيض الذي كان يحول بين المشركين والتدبر في عظمة هذا الدين ، لقد كان القتال وحييته وأنفة الكفر تستولى على عقولهم ، اما الآن فقد وضعت الحرب أوزارها ، فعلى ذوى العقول أن يعيدوا النظر في موقفهم ويناقشوا أنفسهم ويصححوا خطواتهم .

ولقد تخلى عن قريش بهذا الصلح حلفاؤها فلم يعودوا يظاهرونها على حرب المسلمين كما كانوا يفعلون .

ان النصوص التي ظننها المسلمون اجحافا بهم لم تكن في حقيقة الأمر الا في مصلحتهم ومسايرة لأهدافهم ، فما عليهم أن يرجعوا هذا العام الى المدينة على أن يعودوا في العام القادم ليدخلوا مكة آمنين غير متوجسين من عدوهم أو محتسبين لغدره وحربه ، فيكمل بذلك تقربهم الى الله وتفرغهم لعبادته دون أن يشغل بالهم شيء غير ذلك .

أما موافقة النبي صلى الله عليه وسلم على البند الخاص بأن من جاء من المشركين الى المسلمين يردونه ولو كان قد أسلم ، وأما من ذهب من المسلمين الى المشركين لا يردونه ، فقد أثار النبي صلى الله عليه وسلم الى حكمة موافقته قائلا : انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

أجل ، فما حاجة المسلمين برجل لم يتعمق الايمان في داخله ، بل هو أقرب الى الكفر منه الى الايمان ؟ أما الذي يأتى مسلما ويرد فذلك الذى تركت أثرها في نفوس المسلمين ، وظهر هذا الأثر قويا حين أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو - وسهيل اذ ذاك سفير قريش في كتابة الصلح - جاء أبو جندل يرسف في أغلاله يريد أن يلحق بالمسلمين ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يسمح لأبيه سهيل أن يسترده ، فقال أبو جندل : أرد الى المشركين يفتنونى في دينى ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا أعطينا القوم عهدا وانا لا نغدر بهم .

وابتلع المسلمون المرارة وسكنوا ، وجاء بعد ذلك الى المدينة رجل آخر من قريش اسمه أبو بصير ، فأرسلت قريش في طلبه رجلين يستردانه ، فسلمه النبي صلى الله عليه وسلم اليهما ، ولكن المرارة في هذه المرة أصبحت غصة .

الا أن الله أراد أن يجلى للمسلمين الحكمة العالية في تصرف رسوله الحكيم ، فقد غافل أبو بصير أحد حارسيه في الطريق الى مكة وأخذ منه سيفه وقتله ، وفر الآخر ، وكان ذلك في مكان اسمه « ذو الحليفة » .

وعاد أبو بصير الى النبي صلى الله عليه وسلم ليقول له : يا نبي الله ، قد والله أوفى ذمتك ، قد رددتني اليهم فأنجاني الله منهم ، ولحق أبو بصير بسناحل البحر ولم يلبث أن لحق به أبو جندل أيضا ، وأصبح المكان الذى لجأ اليه مثابة للمسلمين من أهل مكة ، ثم أخذوا يتربصون بصير قريش يقطعون عليها الطريق ، ويقتلون من فيها ويغنمون فيها ، فاشتد الأمر بقريش حتى أرسلت الى النبي صلى الله عليه وسلم من يناشده الله والرحم

أن يقبل هؤلاء الفارين عنده حتى يسلم لها تجارتها وأهلها ، وبذلك أعطت قريش بيدها وتنازلت مرغمة عن ذلك الشرط الذي نفص المسلمين .

وبذلك تنبه المسلمون الى أن نظر النبي صلى الله عليه وسلم أسبق من نظرهم وأبعد ، وأن تصرفه انما هو محروس بالعناية الالهية التي تسدده وتوجهه .

دور كريم للمرأة :

ولقد برز دور المرأة واضحا حين أشارت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينحر هديه ويحلق رأسه ليفعل المسلمون فعله ويجذوا حذوه ، وكان رأيها خيرا وبركة فأذهب عن المسلمين الضراء المتوقعة لهم لاغضابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن اشارتها رضوان الله عليها افتياتا على رأى الرسول ، ولكنه انفساح منه للفرصة أمام المرأة لتقول كلمتها في ظل دولة مسماح كريمة تعترف بجناحيها معا ، وقد عرف الاسلام للمرأة حقها وأنصفها وكان أول من يعترف بمشورتها في عظام الأمور ، تلك هى سماحة الدين وعظمته [١٠].

أفسح الاسلام صدره للمرأة وأشركها في الغزو ، الى درجة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرع بين نسائه حين يغزو ، فأيتهن أصابتها القرعة خرجت معه ، ولم يكن خروج المرأة في الغزو سلبيا ولكن كانت تقوم بعمل ايجابي ، يدل عليه موقف نسيبة بنت كعب في غزوة أحد ، وما يرويه الأستاذ محمود شلبى في كتابه حياة رسول الله : من أن امرأة من بنى قنقار قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من غفار ، فقتلنا : يا رسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك الى وجهك هذا — وهو يسير الى خيبر — فتداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقتلنا ، فقتلنا على بركة الله . قالت : فخرجنا معه .

حب كريم :

وفي حديث عروة بن مسعود لقريش ما يدل على الحب الشديد من جانب المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبرهم بأن المسلمين

يشتاقون في محبته ويتسابقون الى التبرك بآثاره ، فهم يبتدرون ما تبقى من وضوئه للانتفاع ببركته . والتوسل بآثار النبي صلى الله عليه وسلم وجاهه امر مشروع لا ينكره الا كل من سدت في وجهه نوافذ محبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أورد الترمذى والنسائى والبيهقى وغيرهم عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلا أعمى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم جلوس معه ، فشكا اليه ذهاب بصره ، فأبره بالصبر ، فقال : ليس لى قائد وقد شسق على فقسد بصرى ، فقال : أنت الميضاة فتوضأ ، ثم صل ركعتين ، ثم قل : اللهم انى أتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد انى توجهت بك الى ربى فى حاجتى لتقضى لى ، اللهم شفعه فى . وفى بعض الروايات بزيادة : فان كان لك فمثل ذلك — أى ان كان لك حاجة — قال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا — أى الرجل — فكان بصيرا (١) .

غزوة خيبر :

وهذه الغزوة التى أشار اليها القرآن الكريم بقوله فى غزوة الحديبية : « فجعل من ذلك فتحا قريبا » .

كانت فى المحرم من السنة السابعة للهجرة ، وهذا حديثها مختصرا : كان يهود خيبر من أكثر المثيرين للأحزاب ضد المسلمين فى غزوة الخندق ، وظلوا يؤلبون الأعراب على حربهم ، فكان لابد من التخلص منهم . وكانوا يتحصنون فى حصون قوية متعددة تبعد عن المدينة بمائة ميل .

وقد أقبل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فى ألف وأربعمائة مقاتل ما بين فارس وراجل ، أخذوا يهاجمون الحصون التى راحت تتداعى الواحد تلو الآخر . وما بقى منها حاصره المسلمون حصارا شديدا محكما .

وطال أمد الحصار لهذه الحصون المتبقية حتى ابتنى النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا اشسعارا للمسلمين بالاستقرار وارهبا للعدو

(١) راجع فقه السيرة للبوطى ص ٢٥٤ هامش .

بأن المسلمين ليس في عزمهم العودة دون فتح . وقد أبلى المسلمون في فتح حصون خيبر بلاء حسنا على الرغم من تشانى اليهود في الدفاع عنها .

وحين طال بالمسلمين الانتظار قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله لا يولى الدبر يفتح الله على يديه . قال عمر - في بعض الروايات - ما تمنيت الإمارة الا في هذه المرة ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم استدعى على بن أبى طالب ، فوجد بعينه رمدا ، فثقل صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن بهما وجع ، وأعطاه الراية وألبسه درعه ودفع اليه سيفه ، ثم قال : اللهم اكفه الحر والبرد ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من حمر النعم ، وقاتل على رضى الله عنه حتى كان الفتح على يديه ، وغنم المسلمون كل ما في الحصون من أموال .

روى ابن اسحاق عن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده ، فتناول على عليه السلام بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتنى في نفر سبعة معى أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

وليس هذا بغريب فقد قلب الله الأعيان في يد على استجابة لدموة النبي صلى الله عليه وسلم له ، فأصبح ما يثقل حبله في يده خفيفا ، وتلك كرامة الله لأوليائه المخلصين .

وقال الرواة : ان حصنين هما « الوطح والصلالم » استسلما مصالحة على أن يترك أهلها الأموال ويجلوا ، ويحقن النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم ، فوافقهم على ذلك ، ثم سألوه أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ويزرعون أرضها ولهم شطر ما يخرج منها . فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، على أنه اذا شاء أن يخرجهم منها خرجوا .

وقد سببت في هذه الغزوة صفة بنت حبي بن أخطب زعيم بني النضير ، واعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها .

ونجى الله نبيه صلى الله عليه وسلم في خير من مكيدة امرأة يهودية ، طبخت له شاة مسمومة ، وأعلمه الله بذلك ، فلم يأكل منها ، وكان صاحبه بشر بن البراء قد أكل منها فمات لوقته ، وحين أحضرت المرأة سألها النبي صلى الله عليه وسلم : لم فعلت ذلك ؟ فأجابت : قلت : ان كان نبيا فلن يضره وأن كان كاذبا أراحنا الله منه ، فعفا عنها صلى الله عليه وسلم ، وقيل : انها قتلت قصاصا في بشر بن البراء ، والأرجح أنها أسلمت فعفا عنها لأن الاسلام يجب ما قبله .

قدوم مهاجري الحبشة :

وجاء بعد انتهاء الفتح المسلمون الباقون الذين كانوا قد هاجروا الى الحبشة ، وكانوا ستة عشر رجلا ، على رأسهم جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم بمقدمهم وبمقدم جعفر خاصة ، حتى قال : ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ وقد سر جعفر بترحيب النبي صلى الله عليه وسلم بمقدمه حتى قام يرقص طربا .

تأملات في الغزوة :

لقد كانت غزوة خيبر ايذانا بالمد الاسلامي الذي بدأ يأخذ طريقه في الآفاق ، وانه وجب التبشير بهذا الدين حتى يظهره الله على الدين كله ، ولقد كانت هذه الغزوة من قبيل الحرب الوقائية الضرورية التي يلجأ اليها القواد تأمينا لدولهم قبل أن يفاجئهم العدو . فالمسلمون كانوا لن يهدأ لهم بال طالما اليهود شوكة في جوانب الجزيرة العربية يؤلبون أهلها على الدعوة الاسلامية .

وفي هذه الغزوة معجزة صريحة للنبي صلى الله عليه وسلم حين ثقل في عين على رضى الله عنه فبرأت باذن الله ، وفي نجاته من الشاة المسمومة ، وليس من شك في أن هذين دليلا على نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى

أن الله مؤيده وناصره وعاصمه ، كما أن فيهما شهادة لعلى كرم الله وجهه بالكرامة ورفع المنزلة حين قال النبي صلى الله عليه وسلم : لاسلمن الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، حتى لقد استشرف الصحابة جميعا لهذا التكليف الذى بنى على تقرير غاية فى الشرف والرفعة ، فكان على هو الجدير بذلك . وهذا الميدان هو الذى يجب أن يتنافس فيه الناس .

وفى فرح جعفر الذى جعله يراقص طربا استدلال على جواز الاهتزاز عند غلبة الوجد بدافع الحب لله ولرسوله والتشوق اليهما ، بشرط الصدق فى ذلك وعدم الرياء ، وصدق الله تعالى اذ يقول : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » يونس ٥٨ ، فان فرح المؤمن بالله وطربه برضاه عنه ، ولقد تنبه الى هذا الاستنتاج الامام السهيلي فى الروض الأنف ، حيث قرر ان تحجال جعفر فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون انكار النبى صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يصلح أن يكون مسيندا للذين يتواجدون حتى يحملهم ذلك الوجد على أن يرتصوا ، ومداد الأمر كما قلت هو الصدق والاخلاص وحسن النية .

وكان فتح خيبر ايدانا بفتح فذك ، وهو حصن قريب من خيبر كان يقيم به بعض اليهود ، جاء أهله الى النبى صلى الله عليه وسلم فصالحوه على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال ، وظلت فذك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعول منها صغار بنى هاشم ويزوج أيامهم ، كما كانت أيضا ايدانا برضوخ اليهود فى تيماء لأداء الجزية على أن يظلوا فى بلادهم آمنين ، وحين رفض يهود وادى القرى الاستسلام كما استسلم غيرهم حاربهم النبى صلى الله عليه وسلم حتى استسلموا .

وبذلك أصبحت الجزيرة العربية وقد انقاد يهودها جميعا للمسلمين وقد أمنت من غدرهم وتربصهم ، حتى خلا الجو أمام المسلمين للانطلاق بدعوتهم مبشرين بدين الله .

اسلام خالد بن الوليد :

لقد أصبحت نفس خالد بن الوليد بعد الحديبية مهية تماما للاسلام ،
فقد رأى من النبي صلى الله عليه وسلم ما ملأ نفسه اعجابا واقترابا
من الدين الجديد .

واشرق صباح يوم واذا بخالد ينطلق في طريقه الى المدينة ليعلم
اسلامه ، ويشاء الله أن يلتقى برفيقين لهما هذا الاتجاه ، هما عمرو
ابن العاص وعثمان بن أبي طلحة ، وكلاهما لا يقل عن خالد رأيا وعقلا
وفروسية ومنزلة في قومه .

وتستقبل المدينة الفرسان الثلاثة ، فيفرح النبي صلى الله عليه وسلم
بلقائهم ، ويقول للمسلمين : رمتكم مكة بأفلاك أكبادها ، وقال لخالد
ابن الوليد : الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك
إلا إلى خير ، فقال خالد : يا رسول الله ادع الله أن يغفر تلك المواطن
التي كنت أشهدا عليك ، فقال عليه الصلاة والسلام : الاسلام يقطع
ما قبله ✽

رحلة الاسلام الى الخارج :

كانت أول رحلة للاسلام خارج الجزيرة العربية مصاحبة للمهاجرين
إلى الحبشة . وقد عاد هؤلاء المهاجرون — كما علمنا بعد فتح خيبر —
وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يعد العدة إلى تبليغ رسالة ربه إلى أقطار
الأرض ، فاختار من أصحابه سفراء من ذوى الحكمة واللياقة ليحملوا كتبه
إلى الملوك والأمراء .

ومع قيام هؤلاء السفراء بمهامهم كان الجهاد ما زال قائما في داخل
الجزيرة العربية عن طريق سرايا التي يبعثها النبي صلى الله عليه وسلم
لإخضاع المتمردين ، فقد قاد عمر بن الخطاب ثلاثين مقاتلا إلى مكان اسمه
« تربة » يقيم به جمع من هوازن يظهرون العداء للمسلمين ، وقد هرب
هذا الجمع قبل أن يصل إليهم عمر .

وقاد بشير بن سعد الأنصاري سرية لقتال بني مرة ، ثم سار بعده

أسامة بن زيد لحاربتهم أيضا بعد أن ظهروا على المسلمين في المرة الأولى ، وقتل منهم من قتل وأسر من أسر ، وفي هذه السرية قتل أسامة مشركا نطق بالشهادة ، فظن أنه نطق بها تعوذا من القتل ، وقد آخذه النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الفعل ، ونزل فيها قوله تعالى : **« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة »** النساء ٩٤ .

وقاد بشير بن سعد أيضا سرية أخرى لمقاتلة جماعة من غطفان حرضهم عيينة بن حصن ولم يظفر الا برجلين أسلما ولكنه عاد بغنائم كثيرة . هذه السرايا كانت تأديبية في الجهات القريبة من المدينة حتى يضمن المسلمون الهدوء والأمن .

أما السفارة الى الملوك والرؤساء فقد قام بها جلة من الصحابة اتسموا بالحكمة ورباطة الجأش والفصاحة وحسن التصرف مصداقا لقول الشاعر الحكيم :

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسل حكيمًا ولا توصه

الى قيصر :

واختير دحية الكلبي رسولا الى قيصر ملك الروم ، فحمل كتاب النبي صلى الله عليه وسلم اليه فقرأه في جموع من قومه ، وكان في نهايته : **« يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا باننا مسلمون »** وهذه آية من سورة آل عمران ختم بها النبي صلى الله عليه وسلم كتابه .

ونصادف أن كان أبو سفيان مع رهط من قريش في تجارة الى الشام ، فاستدعاه قيصر ليعالنه من النبي صلى الله عليه وسلم ، ووجه اليه عدة أسئلة منها :

ما نسب الرجل فيكم ؟ قال أبو سفيان : هو فينا ذير نسب .

قال قيصر : هل تكلم بهذا الثول احد منكم قبله ؟ قال : لا .
قال قيصر : هل كنتم تنهمونه بالكذب قبل ان تقول ما قال ؟ قال
أبو سفيان : لا . قال قيصر : هل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا .
قال قيصر : هل يتبعه اشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال : ضعفاؤهم .
قال قيصر : هل يزيدون أم ينقصون ؟ أجاب أبو سفيان : بل يزيدون .
قال قيصر : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال أبو سفيان : لا .
قال قيصر : هل يغدر اذا عاهد ؟ قال أبو سفيان : لا ، ونحن الآن
في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها .
قال قيصر : هل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال قيصر : فكيف حرككم
معه ؟ قال : الحرب بيننا سجال .
قال قيصر : فبم يأمركم ؟ قال أبو سفيان : يقول اعبدوا الله وحده
ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبداؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق
والعفاف والوفاء بالعهد واداء الأمانة . .
وكانت اجابات أبى سفيان كافية لاقتناع قيصر بأن مرسل الكتاب
نبي مرسل . قال ابن سعد في طبقاته : فجمع هرقل عطاءه وحاشيته
وقال لهم : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم
وتتبعون ما قال عيسى ابن مريم ؟ قالوا : وماذاك أيها الملك ؟ قال : تتبعون
هذا النبي العربي . فحاصوا حيصة حمر الوحش وتناجزوا ورفعوا
الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من اسلامهم وخاف على نفسه
وملكه فسكتهم ، ثم قال : انما قلت لكم ما قلت لأخبركم وأنظر كيف صلابتكم
في دينكم ، فقد رأيت منكم الذي أحب ، فسجدوا له .

الى كسرى :

واختار النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي
الى كسرى ، يدعوه في كتاب أرسله معه الى الاسلام ، ولكن كسرى
لم يحسن استقبال الرسول ومزق الكتاب ، وحين بلغ ذلك رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : مزق الله ملكه ، ولم يكتب كسرى بذلك ،

بل أرسله الى عامله على اليمن « باذان » يأمره ان يبعث رجلين الى النسي صلى الله عليه وسلم ليأتياه به ، وحين تقدم هذان الرجلان الى النبي صلى الله عليه وسلم وبلغاه ما أمرا به تبسم وقال : أبلغا صاحبكما ان ربي قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها ، وكانت ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع ، ورجع الرسولان الى « باذان » فآخبراه بذلك ، وحين تحقق منه أسلم هو ومن معه .

الى أمير بصرى :

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدي الى أمير بصرى ، وفي الطريق اليه قابله شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله بعد أن عرف وجهته ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره .

الى أمير دمشق :

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الى أمير دمشق الحارث بن أبي شمر ، وحين قرأ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم رمى به الى الأرض ، وقال : من ينزع ملكي مني ؟ وهم بارسال جيش لمحاربة المسلمين ، ولكن قيصر ثناه عن ذلك ، فرد أمير دمشق « شجاعا » بالحسنى .

الى ملك البحرين :

وحمل العلاء بن الحضرمي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وكان المنذر رشيدا موفقا ، رحب بالاسلام حين بلغه . قال له العلاء : يا منذر انك عظيم العقل في الدنيا فلا تصفرن عن الآخرة ، ان هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما ينتزه عن أكله ، ويعبدون في الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة ، وليست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا الا نصدقه ؟ ولمن لا يخون الا نأتمنه ؟ ولمن لا يخلف الا نثق به ؟ هذا هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل ان يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو (م ١٣ - هدى السيرة)

ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه ؛ اذ كل ذلك منه أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر .

واسلم المنذر وعرض الاسلام على قومه فمنهم من آمن ومنهم من رفض .

الى المقوقس :

وكان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس حاكم مصر هو حاطب بن أبى بلتعة ، وقد قرأ المقوقس الكتاب الذى حمله اليه ورد ردا حسنا ، وأرسل الى النبى صلى الله عليه وسلم هدية كريمة .

وحين سأل المقوقس حاطبا : ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ أجاب حاطب بقوله : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟

فقال المقوقس : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم .

ثم قال حاطب للمقوقس : ان هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشاراة موسى بعبسى الا كبشاراة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبى ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به .

الى ملكى عمان :

وكان عمان يحكمها أخوان هما جيفر وعبد ابنا الجلندى ، وحمل اليهما عمرو بن العاص رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وحين وصل عمرو لقتى عبدا أولا ، فسأله عما يأمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : انه يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة

الحجر والوثن والصليب ، فقال عبد : ما أحسن هذا الدين : ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به .

وما زال عمرو بن العاص بهما حتى ألان الله قلوبيهما للإسلام وأقرهما النبي صلى الله عليه وسلم على حكم قومهما .

الى ملك اليمامة :

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم سليلط بن عمرو العامري الى هوزة بن على ملك اليمامة ، فلما قرأ الكتاب قال : ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك .

وحين بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : لو سألتنى قطعة من الأمر ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه ، فلم يلبث أن مات .

ولو لم يشترط ذلك لولاه النبي صلى الله عليه وسلم على قومه فقد كان يولى على كل قوم قبلوا الاسلام كبيرهم .

الى ملك الحبشة :

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى النجاشي ملك الحبشة عمرو ابن أمية الضمري ، فاحترم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذى حملة اليه ، ورد عليه ردا جميلا .

ومن خلال ما مر بنا من هذه البعوث التى تبعتها بعوث أخرى كثيرة ندرك أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ رسالة ربه كما أمره ، فقد بعثه الله الى الناس كافة بشبرا ونذيرا ، وقد أوفى ذمته وأدى أمانته ، وكما رأينا فان بعض الملوك رد ردا حسنا ، وبعضهم أساء التصرف ورد ردا قبيحا ، كما حدث من كسرى ومن الحارث بن أبى شمر ، وبعضهم كان فى نهاية الحمق فقتل الرسول .

اننا جميعا نفهم من ابلاغ الدعوة الى الملوك والرؤساء فى خارج الجزيرة العربية أن دعوة الاسلام ليست قاصرة على الجزيرة وحدها

ولا على العرب وحدهم ، ولكنها دعوة عامة شاملة للناس جميعا على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وبلادهم ، والاسلام دعوة عالمية يفهم ذلك من تعاليمها ومبادئها الصالحة لكل زمان ومكان ، ومن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في ابلاغ الدعوة الى العالم يتخذ المسلمون في كل زمان ومكان واجبه في التبشير بهذه الرسالة السامية لإنقاذ الناس من الظلمات الى النور .

عمرة القضاء :

وكانت في ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن البيت الحرام في العام السابق ، وخرج عليه الصلاة والسلام في الفين ، ولم يتخلف عنه ممن كانوا معه في الحديبية الا من مات أو استشهد في خيبر ، وأرجف المشركون أن المسلمين في عسرة وجهد ، فوقفوا عند دار الندوة لينظروا اليهم شامتين ، فقال صلى الله عليه وسلم : رحم الله امرءا اراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن وهو مضطجع بردائه ، وقد أخرج عضده اليمنى وأخذ يهرول ويهرول أصحابه معه ثلاثة أشواط .

وكان ابن رواحة آخذا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء دخوله مكة وهو ينشد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب انى مؤمن بقييله
أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على مأوبله
كما قتلناكم على منزله
ضربا يزيل الهام عن مثيله
ويذهل الخليل عن خليله

وقد أراد عمر رضى الله عنه أن يكفه عن متابعة القول فقال له :
يا ابن رواحة ، أبين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله
تقول الشعر ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : خل عنه يا عمر

فأنها أسرع في نكابتهم من نضح النبل ، ثم التفت النبي صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن رواحة وقال له : قل : لا اله الا الله وحده نسر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . فقالها ابن رواحة وقالها الناس من بعده ، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبي حتى استلم الركن بمحجته .

وبعد الفراغ من الطواف والسعي نحر النبي صلى الله عليه وسلم هديه عند المروة ، ثم حلق تقيما لأعمال العمرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خلف مائتين من أصحابه بالسلاح عند بطن ياجج ، وأمرهم أن يكونوا متفطنين لأي غدر من جانب قريش ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم عمرته أمر مائتين ممن معه أن يذهبوا الى بطن ياجج ليحطوا محل أخوانهم حتى يؤدوا المناسك كما أدوا ، ففعلوا .

وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاثة أيام ، وقد بهر كثيرا من المشركين نور الاسلام ، ومالت قلوبهم اليه ، حتى خشي عتاة الكفر من بقاء المسلمين أكثر من ذلك ، فطلبوا اليه الخروج فقد مضت المدة المضروبة في الصلح .

وكانت ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل زوجة العباس ابن عبد المطلب ممن شاهد المسلمين ، فدخل قلبها نور الايمان ، وأعلنت رغبتها في اعتناق الاسلام ، بل تمنّت أن تكون زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأسرت بذلك الى أختها ، فكلم العباس النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فقبل ، وأصدقها أربعمئة درهم ، ولكنه لم يبن بها الا « بسرف » وهو مكان قرب التنعيم ، وقال بعض المفسرين : أنها هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم في الآية من سورة الأحزاب : « وأمرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبي » .

لقد أقر الله عين النبي والمسلمين بهذه العمرة ، وقد دخلوا مكة بعد طول اغتراب آمنين محلقين رعوسهم ، وتحقق وعد الله بما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رعوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » .

سرايا :

وفي السنة الثامنة للهجرة بعث النبي صلى الله عليه وسلم عدة سرايا :
منها سرية غالب بن عبد الله الليثي الى بنى الملوح الذين يقيمون
بالكديد ، وتمكن غالب ومن معه أن يستاقوا نعم القوم وثاءهم ، وحين
جاء الصريخ الى بنى الملوح خرجوا للمسلمين بما لا قبل لهم به ، ولكن الله
أرسل سيلا عنيفا حال بين الأعداء والمسلمين ، حتى ان القوم كانوا يرون
نعمهم تساق ولا يستطيعون ردها .

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم غالبا بعد عودته في مائتي رجل
ليقتنص من بنى مرة بفدك الذين سبق وأصابوا سرية بشير بن سعد ،
واستطاع غالب أن يطلب عدوه باذن الله ، فلم يفلت منهم أحد .

وفي ربيع الأول قتاد كعب بن عمير الغفاري سرية الى ذات أطلاح
من أرض الشام ، وكان عدد السرية خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جها غفيرا
دعوههم الى الاسلام فلم يستجيبوا ، واستشهد أفراد السرية جميعا ما عدا
كعبا الذي عاد وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يقتنص منهم
فبلغه أنهم نحولوا من منازلهم . .

وهكذا نجد أن الجهاد لم يفتقر ، وأن تبليغ الدعوة قائم وممتد وتتسع
حركته لتشمل أماكن نائية ايدانا بانطلاقه كبرى قادمة لهذه الدعوة
الاسلامية العالمية .

غزوة مؤتة :

وهي في الواقع سرية ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشترك
فيها ، وقد سميت غزوة من قبيل المجاز ولكثرة المشتركين فيها ولأهميتها .
وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان .

ومؤتة قريه على مشارف الشام وتسمى اليوم « الكرك » .

وكان الهدف منها الثأر ممن قتلوا رسول النبي صلى الله عليه وسلم
الى ملك بصرى ، وقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس لهذه المهمة ،

فاستجاب له ثلاثة آلاف رجل ، أمر عليهم زيد بن حارثة ، وقال لهم :
ان أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فعبد الله بن رواحة ،
فان أصيب فليرتض المسلمون رجلا منهم .

وكان النبی صلی الله علیه وسلم یقرأ من کتاب مفتوح ، فقد كان
ما قال .

خرج الجمع لغایته وهم یذكرون وصیة رسول الله صلی الله علیه
وسلم التی قال فیها : اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ،
وستجدون فیها رجالا فی الصوامع معتزلین ، فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا
امراة ولا صغیرا ولا بصیرا فانیما ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء .

وحین وصلوا مؤتة وجدوا جمعا غفیرا من الروم قدره الرواة بمائتی
ألف مقاتل نصفهم من الروم ونصفهم من العرب المنتصرة .

وتفاوض المسلمون فیما یفعلون ، أیقناتلون هذا العدد الضخم
أم یخبرون رسول الله صلی الله علیه وسلم بهذا التفاوت الهائل بینهم
وبین عدوهم فی العدد ؟ فما عسی أن یصنع ثلاثة آلاف أمام مائتی ألف ؟ ..

ثم قال عبد الله بن رواحة : یا قوم والله ان الذی تکرهون هو ماخرجتم
له ، خرجتم تطالبون الشهادة ، ونحن ما نقاتل الناس بعسدد ولا قوة
ولا كثرة ، ولكننا نقاتلهم بهذا الدین الذی أکرمننا الله به ، فانطلقوا فانیما هی
احدى الحسنین . فقال الناس : صدق ابن رواحة ، واستقر رأیهم
على اللقاء .

وأخذ اللواء زید بن حارثة فقاتل حتى قتل رضی الله عنه حمیدا
شهیدا ، فحمل الراية جعفر فمضى بعده حمیدا شهیدا وقد أبلى مثل صاحبه
بلاء حسنا ، ثم تلقف الراية عبد الله بن رواحة ، وما زال یقاتل حتى قتل
رضی الله عنه ، واتفق رأى المسلمین على اختیار خالد بن الولید ، فحمل
اللواء وتمکن من تثبتیت شمل العدو وادخال الرعب فی قلوبهم حتى ألزمهم
حصونهم ، انتهز هذه الفرصة فانحاز بجیشہ عائدا الى المدينة .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة يتابع سير المعركة يراها رأى العين ، فنعى زيدا حين استشهد ، ونعى كذلك جعفرًا وابن رواحة حين استشهد كل منهما في وقته ، ثم قال : أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ، وكانت عيناه تذرفان ..

لقد استعمل خالد في هذه المعركة مهارته الحربية ، فأوقع في روع الروم وأتباعهم أن الأمداد تتوالى على المسلمين ، وذلك بما فعله من مخالفة في ترتيب العسكر ، حيث جعل اليمينه ميسرة والميسرة يمينه والمقدمة ساقه والساقة مقدمة ، وأمر قوما على بعد يثيرون الغبار ، ومكث يناوش الأعداء سبعة أيام ، وهو يجرحهم إلى الأمام لينحاز إلى مؤتة ، فظنوا أنه يجرحهم إلى الصحراء لينفرد بهم بعيدا عن حصونهم ، فكفوا عن القتال وولوا الأدبار ، فلم يتبعهم مكتفيا بما حدث .

ولقد كان هذا نصرا عظيما وحكمة بالغة من خالد ، فقد وقر في نفس الأعداء أنهم لن يستطيعوا مجابهة المسلمين ، وماذا يكون النصر أكثر من هذا ؟ .

وقد فهم بعض المسلمين في المدينة خطأ أن الجيش عاد منهزما فقابلوهم قائلين : يا فرار فررتم في سبيل الله ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم صحح هذا الفهم الخاطيء قائلا : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار .

جوانب العبرة :

وان جانب العبرة في هذه الغزوة يتجلى في استهانة المسلمين بعدوهم ، وفي أن العدد والعدة لا تغنيان شيئا بدون الإيمان ، ولقد نصر الله جنوده بإيمانهم ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله .

ولم يكن الحافز للمسلمين في معاركهم والدافع لهم الا طلب الشهادة في سبيل الله أو النصر الذي يكفل رفع كلمة الله عالية في الآفاق . لم تكن الغنائم تهم المسلمين بعد أن أخذوا في ذلك دروسا قاسية في أحد . فان جاءت مع النصر فهذا رزق ساقه الله اليهم وهو حق أفاءه الله عليهم . وفي هذه الغزوة دليل على فضائل خالد بن الوليد الذي لقبه النبي

صلى الله عليه وسلم بسيف الله ، ولقد ظل خالد سيفاً سله الله على الكفر حتى حقق للإسلام انتصاراته الرائعة المشهودة .

وحين نعى النبی صلى الله عليه وسلم الشهداء الثلاثة كانت عيناه تذرفان دليلاً على حبه الشديد لأصحابه واشفاقه عليهم وضنه بهم ، ولولا أن الشهادة مغنم عظيم كان يتمناه لنفسه ، ما رغب في أن يفارقوه ، ولكنه الدين والجهاد في سبيله وكلمة الله التي يجب أن تتجاوب بها الآفاق مهما بذل في سبيل ذلك من دماء .

وحين نعى النبی صلى الله عليه وسلم أصحابه كان ينعاهم وهو يراهم في مكانه بالمدينة ، بينما هم على حدود الشام ، ذلك أن الله قد زوى له الأرض في زمان لا يعرف ما تعرفه العصور الحديثة من أجهزة تنقل الأخبار والمرئيات ، ولئن نقلتها الآن فهي لا تنقلها بالدقة التي أخبر بها النبی صلى الله عليه وسلم ، وهذا من معجزاته الخارقة ، ولقد كشف الله بصيرة أصحابه من بعده فأكرمهم ببعض ما أكرمه الله به ، كما حدث من عمر ابن الخطاب حين رأى وهو يخطب على المنبر بالمدينة قائده سارية بن زعيم يوشك أن يحيط به عدوه ، فصاح به عمر قائلاً : يا سارية ، الجبل الجبل . وسمع سارية النداء فتنبه فانتصر ، وكان ذلك في أثناء فتح المسلمين لدمشقي : فسا ودراجرد في بلاد فارس .

ان النبی صلى الله عليه وسلم عرف فضل أصحابه وعرف صدق بلائهم في هذه الفزوة فرد عليهم اعتبارهم حين عيرهم البعض بالهزيمة فقال : ليسوا بالفرار ، بل هم الكرار ان شاء الله تعالى .

كانت هذه الفزوة أول مواجهة حاسمة بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى ، فهي تجربة عملية لما ينتظر المسلمين في مستقبلهم من تبليغ دعوة ربهم عبر الآفاق ، ولما سيبتلون به من جهاد صادق في ذلك له جزاؤه العظيم في الدنيا والآخرة ، هي خبرة اكتسبها المسلمون تفيدهم في قتالهم وتوقفهم على طريقة غيرهم في الحروب ومدى استعداداتهم ، واكتساب الخبرة ليس شيئاً هيناً بل هو إضافة قوية يعمل حسابها عند احصاء ثمار النصر .

الفتح الأعظم

وأخيرا ألقت مكة مقاليدها وفتحت أبوابها ، لتستقبل بقلب مفتوح
وصدر مشوق نبي الله الذي طرده أهلها ذات يوم ، ورصدوا أمامه الطرق ،
وحاولوا أن يقتلوه ..

ولم يكن فتح مكة سهلا ، فقد أعد النبي صلى الله عليه وسلم له عدته ،
وهيأ الله له أسباب ذلك ، حتى تم الفتح دون اراقة دماء تذكر ..

استعداد النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ، وسبق الفتح سريتان
بعثهما النبي صلى الله عليه وسلم ، احداهما في جمادى الآخرة الى قضاة
في وادي القرى ، وقد رجس غانما . ويسميا ابن هشام : غزوة ذات
السلاسل .

والثانية في رجب بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لغزو قبيلة جهينة
التي تسكن ساحل البحر ، وعاد أبو عبيدة ولم يلق كيدا ..

وكان الهدف من هاتين السريتين تأمين المدينة حتى لا يفاجئها عدوان
غادر في أثناء الفتح ..

كان فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وقد تهيأت
الأسباب لذلك ، فقد نقضت قريش عهدها الذي أبرمته مع النبي صلى الله
عليه وسلم في الحديبية ، وبذلك أصبح المسلمون في حل من فتح مكة .

وقصة هذا النقض أن بتى بكر الذين دخلوا في عهد قريش في صلح
الحديبية ، استعانوا بأشراف قريش ليعينوهم على حرب خزاعة التي حالفها
النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية أيضا ، فأجابت قريش بكرا ،
وبيتوا خزاعة بليل وهم مطمئنون آمنون فقتلوا منهم عشرين رجلا .

عند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبا من خزاعة
الى النبي صلى الله عليه وسلم يخبرونه بما حدث ويستنصرونه على
عدوهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا نصرت ان لم أنصر بني كعب
مما أنصر منه نفسي ، وقال : ان هذا السحاب ليستهل بنصر بني كعب ..

وأحسست قريش بتورطها وخطئها الشديد . فأرسلت أبا سفيان الى المدينة ليعتذر ويجدد العهد ، ولكنه لم يجد أحدا يستجيب له ، وعاد خائبا الى مكة .

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح سرا ، وأراد حاطب ابن أبى بلتعنة أن يخبر قريشا بما يعده رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، فكتب كتابا وبعثه مع امرأة متجهة الى مكة ، وأخفته في شعرها ، وكشف الله لنبيه هذا الأمر ، فندب على بن أبى طالب والزيبر بن العوام والمقداد بن الأسود ، وأمرهم باللاحق بالمرأة ، فلقوها بالروضة وهددوها فأخرجت الكتاب من عقاص شعرها . واستجوب النبي صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال : يا رسول الله لا نعجل على ، فاني كنت امرأ ملصقا في قريش ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحون قرابتي ، وعلمت أن الله ناصر نبيه وأن خطابي لن يغنيهم شيئا ، ولم أفعل ذلك ارتدادا عن الاسلام ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم عذره ، وقد هم عمر بن الخطاب بقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وقد أنزل الله تعالى في ذلك : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّ وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ أَنْتُمْ بِالْأَوَدَةِ وَقَدْ خَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَيَكْهِنُونَ بِآلِهِ » المتحنة ١ .

الى مكة :

وانطلق النبي صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف رجل من خيبر أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وقد خلف على المدينة كلثوم بن حسين لعشر خلون من رمضان في العام الثامن من الهجرة .

وفي الطريق قابله عمه العباس بعياله مهاجرا ، فأمر بالعيسال أن يوجهوا الى المدينة وأن يعود معه العباس الى مكة ، حتى اذا كان الجيش بمر الظهران حط رحاله .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم كل رجل أن يشعل نارا ، فأوقدت عشرة آلاف نار أضاعت الآفاق ، وكانت قريش حتى هذه اللحظة لا تعلم شيئا عن قدوم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعمى عليهم ، إلا أنهم كانوا يحسسون بشيء مرتقب بعد فشل أبي سفيان في سفارته الآتفة الى المدينة . فعادوا وأرسلوا أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء لالتماس الأخبار عما يضره المسلمون .

وفي مر الظهران فوجيء هؤلاء الثلاثة بتلك النيران المشتعلة فنعجبوا من كثرتها ، ورآهم المسلمون فقبضوا عليهم وساقوهم الى النبي صلى الله عليه وسلم .

اسلام أبي سفيان :

قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان حين مثل بين يديه : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى شيئا بعد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئا . فقال العباس : ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك ، فشهد أبو سفيان شهادة الحق فأسلم .

وقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم : ان أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .

ووقف أبو سفيان ينظر الى الجيش الاسلامي وهو يمر كتيبة كتيبة فيملؤه العجب ، حتى اذا مرت كتيبة الأنصار والمهاجرين بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد الذي يلبسونه . . قال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ، فقال له العباس : مه أنها النبوة .

وعاد أبو سفيان الى مكة يقول لقومه : لقد جاءكم محمد فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابيه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ؛ ففتقرى الناس الى دورهم والى المسجد الحرام .

الرسول فى مكة :

وأمر النبى صلى الله عليه وسلم جنوده الا يقاتلوا الا اذا قوتلوا .
ودخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا من أعلاها من كداء ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخلها من أسفلها من كدى ، ولم يجد المسلمون مقاومة فلم يحدث قتال ، ما خلا خالد بن الوليد الذى لقي جمعا من المشركين تجمعوا له واجمعوا على قتال المسلمين ، فيهم عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية ، فقاتلهم خالد وقتل منهم عددا يقارب ثلاثين رجلا من قريش وهزيل ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم بارقة السيف فأنكر ذلك ، فقالوا له : يا رسول الله ، انه خالد قوتل مقاتل ، فقال : قضاء الله خير .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء دخوله مكة منتصرا ، مثالا كريما للتواضع ، لم يأخذه الزهو كما يأخذ القادة المنتصرين ، كان — فوق راحلته — يضع رأسه تواضعا حتى ان عثونه يكاد يمس وسط الرجل ، وهو يتلو فى صوت خاشع سورة الفتح .

واتجه الى البيت الحرام طائفا ، ثم حطم الأصنام حولها وعدتها ثلاثمائة وستون صنما ، يشير اليها بقضيب فى يده فتتكفى وانها لشدودة بالرصاص ، وهو يتلو قوله تعالى : « **جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** » ثم أمر بإخراج الصور والتماثيل من جوف الكعبة . ودخلها بعد ذلك مكبرا وبصحبته بلال فصلى بداخلها .

ثم أمر بلالا أن يصعد فوق ظهر الكعبة ليؤذن للصلاة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قام على باب الكعبة فقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، الا كل مائرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة

البيت وسقاية الحاج . . يا معشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وادم من نراب : ((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم)) ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ابن عثمان ابن طلحة ؟ فدعى له — وكان النبی صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه مفتاح الكعبة حين أراد دخولها — فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

وتوافد الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، يبايعون النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، بايعه أولا الرجال ثم النساء .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل دخوله مكة قد نهى عن القتال الا بضعة نفر أحل دمهم ودعا الى قتلهم أينما كانوا لشدة ما كانوا يفعلونه بالمسلمين ، من بينهم عكرمة بن أبي جهل ، وهبار بن الأسود ، وعبد الله ابن هلال ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، وسارة مولاة عمرو بن هشام ، وفرتنى وفرتية وهما جاريتان كانتا تتغنيان بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد عصم بعض هؤلاء نفوسهم بالاسلام وبعضهم قتل . فقد أسلم عكرمة وحسن اسلامه وأصبح فيما بعد من كبار قواد المسلمين ، وأسلم هبار ، وأسلمت هند بنت عتبة واحدى الجاريتين المغنيتين وأسلم كذلك سعد بن أبي السرح .

وكان قد أسلم في الطريق بين مكة والمدينة رجالان كانا من أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، هما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وصهره عبد الله بن أمية شقيق أم سلمة ، لقياه مهاجرين الى المدينة ليعلننا اسلامهما وهو في طريقه الى مكة ، ففرح باسلامهما فرحا شديدا ، وقال لهما ما قاله يوسف عليه السلام لاختوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم . .

وبذلك دانت مكة كلها بالاسلام ، وامثالاً لطلب النبي صلى الله عليه وسلم سرورا بما أفاء الله عليه من نعمته وأقر عينه بالسلام أهله الذين ناصبوه العداء طويلا .

وقد خشى الأنصار — وقد فتحت مكة وأسلم أهلها — أن يبقى النبي صلى الله عليه وسلم بها ، فطمأن خاطرهم وهدأ بالهم وقال لهم : المحيا محياكم والممات مماتكم . فسرى عنهم وملأت الغبطة نفوسهم .

آثار الفتح :

لقد كان فتح مكة يوما مشهودا في التاريخ ، يظل يفيض بالعبرة والعظة ويشهد الدنيا على أن الباطل مهما طال أمده وكثر عدده وطغى قوته فانه في النهاية مهزوم أمام الحق ، وشتان بين خروج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة من مكة طريدا وبين دخوله اليوم اليها منتصرا يحيط به ألوف المسلمين من كل جانب يحيطونه بأرواحهم ويفتدونه بأنفسهم من كل سوء ، يلبون دعوته ويجيبون اشارته .

لقد أعلن فتح مكة مبادئ الاسلام قوية صارخة ، تلك المبادئ التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم بعث ، ولكنه أودى في سبيلها وطورد من أجلها ، وكذب من آمن بها ، ولقى هو وأصحابه الأهوال والمشقات وهم يريدون أن يرفعوا الحق وينشروا العدل ويقضوا على الباطل .

فالآن استعلنت كلمة لا اله الا الله من فوق الكعبة ، ونكست الأصنام وطهر بيت الله الحرام وأصبح الناس أخوانا لا فرق بين سيد وممسود ولا أبيض وأسود ، وهذا بلال يدخل جوف الكعبة بصحبة سيد الخلق ، ولم يكن يجرؤ عبد من قبل ذلك على ذلك ، ولكنه الاسلام الذي رفع قيمة الانسان وأوضح مفهوم الانسانية في الأذهان .

اليوم حطت قريش من كبريائها ، وعرفت في النهاية أن سعيها الحثيث كان في باطل وأن الحق أحق أن يتبع .

انظر ، لقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في العفو عند المقدرة وفي الصنح والتسامح وفي التواضع والرحمة وفي الوفاء والبر ، وكل تصرفاته التي حدثت تدل على تلك المثل الشماء التي تطالب المسلمين بالاعتدائ بها والتزود منها ، وهل هناك مثال في العفو والتسامح أروع من أن يتبادل رجل أودى وطورد وحورب وكذب ، يتبادل من فعل به ذلك بقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، ثم يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ؟

لقد ظهر واضحا تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم للبيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا ، فنهى الناس عن القتال فيه الا عند الاضطرار ، وحين سمع سعد بن عبادة يقول في أثناء دخول مكة : اليوم يوم الملاحمة ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : بل اليوم يوم الرحمة .

وهل هناك بر ووفاء أعظم من اعطاء المفتاح — مفتاح الكعبة — لعثمان بن طلحة وهو يقول له : اليوم يوم وفاء وبر ، ويتلو قوله تعالى من سورة النساء : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

ولقد رأينا ما فعل حاطب بن أبى بلتعة ، وقد هبدا النبي صلى الله عليه وسلم من روعه على الرغم من جسامته ما فعل ، وكف عنه بطش عمر ، وقال في رفق : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلو ما شئتم فقد عفرت لكم — لقد وكله الى تأديب القرآن وهو أبلغ وأوعظ ، فقد كانت الآية التي نزلت كافية في الزجر والتأنيب والكف عن موالاة الكفار : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » وإلخاطب موجه الى المؤمنين ، فلا ينبغي للمؤمن أن يفعل ما يناقض إيمانه ، فتولى الكافر كفر يقضى بذلك قوله تعالى : « ومن يتولى الكافرين فهو من الكافرين » المائدة ٥١ .

ونذكر لمسة البر والوفاء أيضا في ادخال الاطمئنان الى نفوس الانصار الذين آووا المسلمين ونصروهم وآثروهم على أنفسهم ، وقد توجسوا خيفة من أن يبقى النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بين أظهر أهليه فقال لهم في حب وتقدير : المحيا محياكم والممات مماتكم . .

ثم ان علينا أن نتدبر خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة لنرى فيه معالم الاسلام الكريمة ، من دعوة الى نبذ العصبية الجاهلية والتباهى بالباطل والتفاخر بالآباء والأجداد ، وعلى المسلمين الآن أن يتدبروا هذه المعاني فيخلعوا ما رث من ثياب بالية من تفاخر بالعصبيات والجاه والنفوذ والثروة ، ويتركوا التباهى بما خلفته الاقليات من مآثر يدعو التباهى بها الى تفكك عرى الوحدة بين المسلمين واثارة العداوات بينهم .. والاسلام دين الوحدة والاخوة الصادقة والتراحم والتواضع وتناسى الأحقاد والخلافات ...

غزوة حنين :

لم تسترح ثقيف وهوازن للنصر الذى آتاه الله المؤمنين ، فقد تنزت قلوبهم حقدا فجمعوا جموعهم ، وولوا أمرهم عوف بن مالك سيد هوازن ، وكان شابا فتيا مفتونا بنفسه مزهوا بقوته ، فأمر بحشد النساء والأطفال والأموال خلف الجيش ، ليثير بذلك النخوة في نفوس المقاتلين حتى يقاتل كل واحد منهم عن عرضه وماله ، ونسى كلمة مجرب قديم من قومه قالها له وهى : وهل يرد المهزوم شئ اذا هزم ؟

ونزل هذا الجيش الكثيف في « أوطاس » — مكان بين مكة والطائف ، فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في السادس من شوال ، وقد أضيف الى جنود الفتح الفان آخرا من أسلموا يوم الفتح .

وتجهز عوف بن مالك للقاء المسلمين في وادى حنين ، وقد انتشرت جنوده في أنحاء الوادى يكمنون للمسلمين ، وتقدم المسلمون نحو الوادى في غيبش الصباح لا يتبينون ، فاذا بكتائب المشركين تلقاهم من المنحنيات وتفاجئهم في حملة واحدة ، فاضطربت صفوف المسلمين ، وولى الطلقاء الأديار ، فولى معهم جمع غفير من المسلمين .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم انحاز الى اليمين ، وتادى في الناس قائلا : انا النبي لا كذب ، الى يا عباد الله ، ولزمه جمع من الصادقين من أصحابه ، وأبلى يومئذ ابن عمه الحديث العهد بالاسلام أبو سفيان (م . ١٤ — هدى البصرة)

أبن الحارث بن عبد المطلب بلاء حسنا ، فلم يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ممسكا بزمام بغلته البيضاء ، ولزمه أيضا عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينادى في الناس والعباس يردد وراءه وكان جهوري الصوت .

كان العباس يردد وراء النبي صلى الله عليه وسلم: يا أصحاب السرة، يا أصحاب سورة البقرة ، فتعاطفوا حين سمعوا الصوت تعاطف الأبل على أولادها قائلين : لبيك لبيك ، وأقبلوا في شوق الى الشهادة ، وكان النداء الذي سمعوه قد نبه منهم غافلا ، فتسابقوا الى أعدائهم في حماس شديد ، والتقط النبي صلى الله عليه وسلم حصيات من الأرض وقذفها في وجوه الكفار وقال : انهزموا ورب محمد . .

والقى الله الرعب في قلوبهم قولوا هاربين ، ووراءهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون ، ونادى النبي صلى الله عليه وسلم في الناس قائلا : من قتل قتيلًا فله سلبه ، حتى لقد أسسلب أبو طلحة يوم حنين عشرين رجلا قتلهم وحده .

وثر قائد الجموع الى الطائف يمتنع بحصونها ، فحاصرها النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الله سبحانه وتعالى قد نفث في روعه أنها ستأنيه مسلمة ، فأقلع عن حصارها بعد بضعة عشر يوما ، وهو يهتف من أعماقه داعيا : اللهم اهد ثقيفا وأت بهم ، وقد استجاب الله دعوته فأنت هذه القبيلة التي كانت قد استقبلته ذات يوم أسوأ استقبال — جاءت اليه مسلمة مذعنة . .

عطف كريم :

وفي « الجعرانة » — وهى مكان بين مكة والطائف جمعت فيه غنائم هوازن — جلس النبي صلى الله عليه وسلم يوزع هذه الغنائم الوفيرة ، وكان قد أخر تقسيمها حتى يعود من الطائف أملا في اسلام هوازن ، وبعد أن انتهى من تقسيم الغنائم والسبى جاءه وفد من هوازن وقد أسلموا وسألوه أن يرد عليهم مالهم وسبيهم وأنشدوا بين يديه :

أمن علينا رسول الله في كرم
هاتك المرء نرجسوه وننتظمر
أمن على نسوة قد كنت ترضعها
اذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

وهم يشيرون بذلك الى ان رضاعته كانت في قبيلة سعد بن بكر وهي
بطن من هوازن .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان أحب الحديث الى أصدقائه ،
فاختاروا إحدى الطائفتين السبى أو المال ، قد كنت انتظرتكم حتى ظننت
أنكم لا تقدمون ، فقالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً .

فقال صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ،
وإذا ما أتت صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا : أنا نستشفع برسول
الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيك
ذلك وإسأل لكم .

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر ، قاموا
فتكلموا بما أمرهم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ما كان
لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت الأنصار كذلك ، ومن أبى وعده رسول
الله صلى الله عليه وسلم بست فرائض من أول سبى يصبىه ، فرد الناس
ما بأيديهم من سبى هوازن .

وسأل النبي صلى الله عليه وسلم وفد هوازن عن زعيمهم مالك بن
عوف ، فقالوا له : هو فى ثقيف بالطائف ، فقال : أخبروه ان أتانى مسلماً
رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل ، فلما بلغ مالكا ذلك أتى
النبي صلى الله عليه وسلم خفية حتى لا تشعر بذلك ثقيف فتمنعه ، فأسلم
ووفى له النبي صلى الله عليه وسلم بما وعد فقال مالك فى ذلك :

ما ان رأيت ولا سمعت بهلله
فى الناس كلهم بمثل محمديه

أوفى وأعطى للجـزـيل إذا اجتدى
ومتى تشاء يخبرك عما فى غد
وقد استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على قومه .

حسن تصرفا :

وقسم النبى صلى الله عليه وسلم المال بين الناس شأعطاهم وأفاض
فى العطاء ، وخص حديثى العهد بالاسلام بالكثير منه ليتألف قلوبهم ، فكان
ذلك سببا فى اقبالهم على الدين وتعمقهم فيه .

وقال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فغضب
النبى صلى الله عليه وسلم حتى احمر وجهه وقال : ويحك من يعدل إذا
لم أعدل ؟

وقد هم عمر وخالد كلاهما بقتله ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم
الذى يغلب حلمه غضبه دائما حال بينهما وبين ذلك ، وقال لهما : لعله أن
يكون يصلى ، فقال خالد : كم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه .
فقال صلى الله عليه وسلم : انى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس .

وحين أكثر النبى صلى الله عليه وسلم العطاء فى قريش وقبائل
العرب وترك الانتصار غضب بعض هؤلاء قائلين : لقي رسول الله صلى الله
عليه وسلم قومه .

فجمعهم النبى صلى الله عليه وسلم وحدهم وقال : يا معشر الأنصار،
مأقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا
فهذاكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك
يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم

ولصدقتم : اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالثأفة والبيع وترجعوا برسول الله الى رجالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله قسما وحظا .

لقد كان لهذه الكلمات الرائعة فعل السحر في نفوس الأنصار ، مسح بها ما علق في أذهانهم من وساوس راودتهم كما تراود غيرهم في مثل هذه الظروف حيث يشعرون بأنهم هم الكادحون وغيرهم هم الغانمون .

قل انها الحكمة وحسن التصرف ، أو قل انها السياسة ومعرفة أغوارها ، سياسة النفوس والقلوب والممالك ، أو قل انها البلاغة الوافية التي تصيب المحز بأقل لفظ وأقوى حجة ، أو قل غير ذلك فقد جمع المصطفى صلى الله عليه وسلم من سوابق الفضل ما عز ذراه ومن جوامع الحكمة ما صعب مرتقاها ، حتى تربع على عرش القلوب وتمكن من نواصي الأرواح والنفوس .

ومن الجعرانة عاد النبي صلى الله عليه وسلم الى مكة معتمرا ، ثم انطلق عائدا الى المدينة المنورة ..

حكمة حنين

لقد فصلت هذه المعركة في حنين بين الاسلام والشرك ، وأدالت دولة الكفر في الجزيرة العربية نهائيا والى الأبد ، ولم تبق بعدها الا فلول سرعان ما جاءت وافدة مذعنة بعد قليل ، فقد بدأت الوفود تتوافد على النبي صلى الله عليه وسلم معلنة اسلامها .

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ييث سراياه لتحطيم الأصنام في ربوع الجزيرة أو في اخضاع ما تبقى من جيوب الشرك والوثنية .

وأول ما يطالعنا من دروس العبرة والعظة في غزوة حنين هو وجوب عدم الاغترار بالكثرة والعدة فما النصر الا من عند الله يؤتیه من يشاء بفض النظر عن العدد والقوة . وقد انتصر المسلمون في بدر على الرغم من قلتهم ، ولكنهم انهزموا في الجولة الاولى في حنين على الرغم من كثرتهم .

لقد احسنوا التوكل في بدر واستمسكوا بقوة الايمان والثقة في الله حتى قال الله لهم : « ولقد نصرکم الله ببدر وأنتم اذلة » آل عمران ١٢٣ .

ولكنهم اغتروا في حنين حتى قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة .

ولولا نجات النبی صلی الله علیه وسلم في المعركة وانعطاف الصادقين نحوه حين سمعوا دعاءه لهم لكانت العاقبة وخيمة ، وقد انزل الله في ذلك قوله تعالى « لقد نصرکم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبکم کثرتکم فلم تفن عنکم ثبوتنا وضائق علیکم الأرض بما رحبت ثم وليقم مدبرین » ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الأدين كفروا وذلك جزاء الکافرين » التوبة ٢٥ و ٢٦ .

ونتعلم من هذه الغزوة أن العقيدة هي التي تمكن من النصر ، ولذلك تحرص الجندية الناجحة على بث العقيدة الصحيحة في نفوس جنودها حتى يثبتوا في مواقعهم ، ولقد انضم الى صفوف المجاهدين الفان من الطلقاء الذين لم يسلّموا الا يوم الفتح ، فلم تكن لديهم تلك العقيدة الايمانية التي يقابل بها المؤمنون أعداءهم ، وكان هؤلاء أول المنهزمين الذين أربكوا الصفوف ، ولذلك ينبغي تربية هذه العقيدة في النفوس قبل التقدم لای معركة مع الأعداء .

واننا لنرى في موقف النبی صلی الله علیه وسلم موقف القائد البصير الثابت الذي لا تزلزله الأحداث ، فلا يفقد رباطة جأشہ في ادارة المعركة ، وقد كان لتصرفه صلی الله علیه وسلم الأثر الكبير في كسب النصر بعد أن كاد يضيع بسبب التثنت والارتباك ، وفي انعطاف المسلمين نحوه دليل على الحب العميق الذي يربط بين الصحابة وبين رسولهم الكريم ، فما أن سمعوا نداه حتى لبوه سراعا دون تردد واجتمعوا بعد تفرق وثبتوا بعد اضطراب .

وفي غزوة احنين دليل على أن قتال المسلمين لم يكن بهدف جمع الغنائم ، وإنما كان اعلانا لكلمة الله وقضاء على الباطل ، فقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الأعراب لتأليف قلوبهم ، ولكنه لم يعط الأتصار الذين رسخت عقيدتهم وأطمأنت قلوبهم بنور الإيمان ، كما أنه استرد السبى وأعطاه لأصحابه بعد أن أسلموا ، ولقد علم النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين دروسا في الحب وعدم الحقد حين طلبوا اليه أن يدعو بهلاك ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفا وات بهم مسلمين .

كما أننا نتعلم من هذه الغزوة كيف أحب النبي صلى الله عليه وسلم الأتصار حبا شديدا وآثرهم على أهله ، وقال : لو سلك الأتصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلكت شعب الأتصار ، ثم دعا لهم ولأولادهم وأولادهم بالرحمة . وقد ظهر أثر هذه الدعوة المباركة فيهم وفي سلالاتهم الطيبة .

غزوة تبوك :

تمثل هذه الغزوة لونا جديدا من الصراع بين الحق والباطل ، فهي على غرار غزوة مؤتة ليست صراعا بين عرب وعرب ، ولكنها صراع بين العرب المسلمين والروم ، الذين بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أنهم جمعوا جموعهم يريدون الاغارة على المسلمين ، منتهزين فرصة الجذب الذي أصاب الجزيرة العربية ، فالعرب — أذن — منهكون لا يستطيعون الرد ولا يتمكنوا من المقاومة ، ومن هنا جاء اسم الجيش الذي أطلق عليه جيش العسرة .

وأذن مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد ، وعلى غير المعتاد صرح عليه الصلاة والسلام بالجهة التي يقصدها في جهاده ، وكان من عادته التورية والكتمان حتى يأخذ عدوه على غرة .

صرح لبعد الشقة وليذكرى روح المنافسة والجهاد وليبعد كل من المسلمين نفسه لرحلة طويلة شاقة متجهزا لها بكل ما يملكه من ظهر ومنازع وسلاح .

وبدأت الأموال تنثال على النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء . وأتى أبو بكر رضى الله عنه بكل ما يملك ، وأتى عمر بنصف ما يملك ، وأتى عثمان بعشرة آلاف دينار فصبتها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ، غفر الله لك يا عثمان ما أسرت وما أعلنت وما هو كائن الى يوم القيامة ، وجاء عبد الرحمن ابن عوف بمائتي أوقية من الفضة ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقاً من الزهر ، وزاد عثمان على ما أعطى فقدم أربعمائة بعير بأحلاسها وأقنابها، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن .

وتشوق الناس الى مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ، فأقبلوا عليه من كل مكان على الرغم من حرج الظروف ، ولكن بعضهم رجعوا الى مواطنهم وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون وألا يجدوا ما يحملهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

موقف المنافقين :

أما المنافقون فهم كعادتهم تنزت قلوبهم حقداً وتمنوا أن لو عاد المسلمون من غزوتهم هذه مهزومين ، بل لقد صرح بعضهم بذلك قائلاً : اتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله لكأنا بهم - أى المسلمين - غداً مقرنين في الحبال .

وحين أرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى هؤلاء المرجفين ليسألهم عما يشيعونه بين المسلمين أنكروا قائلين : انما كنا نخوض ونلعب ، ثم لم ينفثوا عن تشبيطهم للمسلمين بعد أن علم النبي صلى الله عليه وسلم بدخائل نفوسهم ، ولكنهم حاولوا ارجاع بعض المسلمين عن الاشتراك في الغزوة قائلين لهم : لا تنفروا في الحر ، وتعللوا هم بذلك العذر فلم يشتركوا ، كما نعلل بعضهم بطل واهية أخرى ، وقد فضحهم القرآن الكريم بما أنزل في حقهم من بيان دامغ .

متخلفون صادقون :

ولكن ثلاثة من المسلمين الصادقين تخلفوا من غير عذر ، وهم كعب

أبن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وقد اعترفوا بخطئهم حين عاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر بمقاطعتهم حتى يقضى الله في شأنهم ، فنزل قوله تعالى بعد خمسين يوما من مقاطعة قاسية يستشعر مرارتها من ذاق لذة الاخلاص ، ويعرف ضراوتها من أكرمه الله بحبه وحبه رسوله ونور قلبه بالايمان والمعرفة ((لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم - وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)) التوبة ١١٧ - ١١٩ .

خروج الجيش :

وانطلقت كتائب المسلمين وعددها ثلاثون ألفا في جو قاتظ شديد الحرارة في صحراء قاحلة لا نبات فيها ولا ماء الى هدف يبعد عن المدينة زهاء سبعمائة كيلومترا ، الى تبوك ، في رجب من العام التاسع للهجرة . . . بعد أن ترك بالمدينة على بن أبي طالب يتولى الشؤون ، وحين أرجف به المنافقون فقالوا انما خلفه عنه استئثالا له ، رغب على في الخروج مع الجيش ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى في أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ الا أنه لا نبي بعدى . .

وجد المسلمون في السير ، واللواء في يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، حتى مروا بديار ثمود ، فعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ، وأمر بالاسراع وقال لأصحابه : لا تدخلوا ديار الذين ظلموا الا وأنتم ياكون .

وحين وصل الجيش الى تبوك لم يجدوا جموع الروم التى أخبر عنها المسلمون ، ، والتى قد أبلغوا بأنها وعدتها أربعون ألفا من الروم ونصارى العرب وصلت طلائعها الى البلقاء .

لم يجد المسلمون أحدا ، وربما بلغ الروم قدوم المسلمين في تجهزهم الكثيف ففرقوا قبل وصولهم . وأقام المسلمون هناك أياما ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد أن يصحب معه أربعمئة فارس الى دومة الجندل ، التي يحكمها أكيدر بن عبد الملك من قبل هرقل ، واستطاع خالد أن يفتح الحصن الذي يقيم فيه أكيدر ويحمله أسيرا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فصالحه على الجزية وخلي سبيله .

وقدم اليه صلى الله عليه وسلم يوحنا صاحب ايلة وبصحبه أهل جرياء ، وأهل أذرح ، وأهل ميناء ، وقد صالح هؤلاء على الجزية وكتب لهم عهدا .

عودة مظفرة :

ثم استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الرجوع الى المدينة أو مجاوزة الحدود بعد تبوك ، فأشاروا عليه بالرجوع ، فأخذ برأيهم ، وعاد منتصرا في رمضان ، وقد أخزى الله المنافقين فجاءوا يعتذرون ، ولكن ما يغنى اعتذارهم أمام ما أنزل الله في شأنهم ؟ حتى أصبحت هذه الغزوة تسمى الفاضحة لأنها فضحت موقفهم .

لقد أظهرت هذه الغزوة كوامن النفوس وخفايا القلوب ، فبقدر ما كشفت عن الايمان العميق للمسلمين الصادقين كشفت كذلك عن الحقد الدفين في نفوس المنافقين . فهم لم يألوا جهدا في تثبيط المسلمين واعاقبتهم عن الغزوة سالكين في ذلك كافة السبل ومختلف الحيل ، ويقدر تنافس المسلمين في تقديم العون المادي والمعنوي في انجاح الغزوة كان المنافقون يتنافسون أيضا في التخذيل والتعويق ، ولكن الله كان لهم بالمرصاد فخذلهم ونصر دينه وأيد جنوده ، ومضى التاريخ يرفع من قدر المؤمنين ويحط من شأن الكافرين والمنافقين .

لقد أوجبت هذه الغزوة على المسلمين جميعا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، فلا حجة لتقاعد بعد الآن ، حتى ولو كان تعودده بسبب جنى الثمار وحصد المحصول الذي آن أوانه ، والا دخل في نطاق

الاستفهام التوبيخي الذي تتضمنه هذه الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قُبل لكم أنفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » التوبة ٣٨ .

وإذا كان من الواجب على المؤمنين الا يتخلفوا عن الجهاد فان من واجب الامام والقائد أن يظهر صفوف جنوده من المنافقين حتى لا يكونوا وسيلة خذلان وأداة هزيمة ، وهذا هو ما يفهم من قوله تعالى « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبفونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين — لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » التوبة ٤٧ ، ٤٨ .

أجل فقد ظهر مصداق ذلك واضحا في غزوة بنى المصطلق الأنفة الذكر .

رأينا عقب هذه الغزوة كيف عامل النبي صلى الله عليه وسلم الخلفين ، فقد تشدد مع الصادقين ولكنه تساهل مع الكاذبين ، ولم يتشدد مع الصادقين الا تكريما لهم من جهة ، والا ليبين للمسلمين جميعا أن الاسلام لا يقبل من المسلم انصاف الحلول ، انه لا يريد منه الا صدق العزيمة ويكره منه التردد ، ولقد كان اعراض النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الصادقين درسا قاسيا وعوه تماما وانتقموا به ، وجاء القرآن بعد ذلك يلسما شافيا يثنى عليهم فيما سبق من آيات .

وكان تساهله مع المنافقين عقابا رادعا لأنهم لا يستحقون عناء العقاب وقبول الاعتذار ، ونزل القرآن فاضحا نواياهم وليست فضيحة القرآن لهم أمرا سهلا هينا ، انها فضيحة دامغة لهم ما بقى القرآن يتلى على ظهر الأرض .

وان الاعراض وسيلة من وسائل التربية العالية التي تتربى بها النفوس ، كما رأينا في اعراض النبي عن هؤلاء الثلاثة ، ولقد ظهر صدقهم في الصمود لهذه التجربة الصادقة ، وقد كان فرحهم بتوبة الله عليهم شديدا ، جعلت كعب بن مالك يخرج عن كل ما يملك الله ، فما أصدقها من توبة وما أجله من وفاء .

لقد كانت نتيجة هذه الغزوة ايجابية ، أرهبت العدو فتفرق قبل وصول النبي صلى الله عليه وسلم اليهم مقاتلا ، وصالح من صالح من أهل الديار المقيمين على الحدود على الجزية ليضمن عدم موالاتهم للعدو ، وكانت الغزوة تدريبا عمليا للمسلمين على تحمل المخاطر واتحام الصعاب وتحدي العقبات . ورأى المسلمون مصائر الأمم السابقة رأى العين ، مروا على ديار ثمود ، فحذروا عاقبتهم .

مسجد الضرار:

ومن الأمور المضحكة من تصرفات المنافقين أن يعود النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ليجد المنافقين أقاموا مسجدا في قباء يتظاهرون فيه بالصلاة ، ولكنه في حقيقة الأمر أقيم ليعقدوا فيه المؤامرات للاضرار بالمسلمين . وقد طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلى فيه ، ولكن الله كشف له زيفهم ، وأبان له أنه مسجد لم يقصد به وجه الله ورسوله وأنزل في ذلك قوله تعالى « **والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ويحلفن أن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون** » لا تقم فيه أبدا بالمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحتبون أن يتظاهروا والله يحب المطهرين — أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين — لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » التوبة ١٠٧ — ١١٠ .

وقد أمر عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه بأن يهدموا المسجد الذي أقيم للتضليل ففعلوا . وفي ذلك تعليم لنا نقص وجه الله ورسوله بأعمالنا ولو كانت صالحة في ظاهر الأمر . فهناك أعمال يظنها الكثيرون منا طيبة ولكنها في الواقع مبعثها الرياء والسمعة .

الوفود :

يعد العام التاسع الهجرى عام الوفود ، وان كانت هناك بعض الوفود وقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، مثل وفد صداء

اليمنى ، وكان عدده خمسة عشر رجلا نزل ضيفا على سعد بن عباد ؑ ، وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الاسلام ، وقالوا : نحن لك على من وراعتنا ، وحين رجعوا الى قومهم دعوهم الى الاسلام ناسلما ، وعاد منهم وفد آخر ادى مع النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع .

وجاء بعد هذا الوفد وفد تميم ، بقيادة عطار بن حاجب والزبرقان ابن بدر وعمرو بن الأهم وهذا الوفد هو الذى نزل في حقه قوله تعالى في سورة الحجرات « **ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم** » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل سرية لهم أسرت بعضا منهم ، فحين أسلم بنو تميم رد النبي صلى الله عليه وسلم عنهم أسراهم وأحسن جائزتهم ، وأقاموا عنده مدة يتعلمون القرآن ويتفقهون في الدين .

وفي العام التاسع قبل غزوة تبوك وفد عدى بن حاتم الطائي على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن من على أخته بإطلاق سراحها ، وكانت قد أسرت في سرية بقيادة على بن أبى طالب لهدم صنم طيء ، وقد رأى عدى من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وتواضعه وحلمه وإكرامه ضيفه ما حبه في الاسلام حيثما عرضسه عليه . وكان مما قاله له النبي صلى الله عليه وسلم : والله ليتن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ، وأسلم عدى وحسن اسلامه وعاش حتى رأى ذلك كله .

ولكن ما ان عاد النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وسمعت العرب برجوعه حتى أقبلت وفودهم تترى من كل مكان سامعة مطيعة مجيبة دعوة الاسلام .

وكان في مقدمة هذه الوفود وفد ثقيف وكان عروة بن مسعود الثقفي سيدهم بعد انتهاء الحصار الذى ضربه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قد دعاهم الى الاسلام ، ولكنهم قتلوه ، ثم انهم تابوا الى رشدهم وأرسلوا

وفدهم وأسلموا ، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم معهم من يهد صئهم
« اللات » فهدم .

وبإسلام ثقيف ترامت الوفود من كل صوب تحقيقا لقوله تعالى
« **إذا جاء نصر الله والفتح** » ورايت الناس يدخلون في دين الله أفواجا
فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وجاء وفد أهل الكتاب ، من نصارى نجران ، وجادلوا النبي صلى
الله عليه وسلم قائلين له : أتريد منا أن نعبدك كما يعبد عيسى ابن مريم ؟
قال : معاذ الله أن أعبد غير الله ، أو أمر أحدا بعبادة غيره ، وما بذلك
بعثنى ولا أمرنى .

وحين دعاهم الى الاسلام قالوا : أسلمنا قبلك ، فقال لهم : كذبتهم ،
يمنعكم من الاسلام دعاؤكم لله ولدا ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير .

فجادلوه في عيسى قائلين : من أبوه ؟ قال : الستم تعلمون أن الله
حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : الستم
تعلمون أن ربنا قيم على كل شئ يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى .
قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا . قال : الستم تعلمون
أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا : بلى . قال :
وهل يعلم عيسى من ذلك شيئا الا ما علم ؟ قالوا : بلى . قال : الستم
تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام
ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : الستم تعلمون
أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ،
ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث
الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم .

واصر القوم على الجدل واعتبارهم عيسى الها أو ندا للاله ، فأنظرهم
النبي صلى الله عليه وسلم الى الفد حيث نزل قوله تعالى « **ان مثل عيسى**
عند الله كمثلى آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون — الحق بهن ربك
فلا تكن من الممترين — فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا

تدع أبناءنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» آل عمران ٥٩ — ٦١ ، فدعاهم الى المباهلة كما أشارت الآيات .

وخشى النصارى نتيجة هذه الملاعنة فكفوا عن الجدل ، وارتضوا الجزية يؤدونها للنبي صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده على أن يظلوا على دينهم .

وتوالت الوفود غير هذه من مختلف القبائل تعلن ولاءها للإسلام . .

أبو بكر أمير للحج :

وفي آخر ذى القعدة من العام التاسع أرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أميرا على بعثة الحج ، فخرج رضى الله عنه من المدينة ومعه ثلاثمائة رجل ، وأمامه من الهدى عشرون بدنة ، وقد نزلت في أثناء سفره أوائل سورة التوبة ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم خلفه على بن أبي طالب كرم الله وجهه ليقرأها على الناس ، وقد تضمنت الآيات التى نزلت نذ عهود المشركين الذين لم يفوا بها وتطهير البيت من المشركين ولا يقربون المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

حجة الوداع :

وفي العام التالى حج النبي صلى الله عليه وسلم بالناس حجة الوداع ، ولم يحج غيرها ، وقد صحبه في حجته هذه عدد عفير من المسلمين يقدر بتسعين ألفا .

وأحرم النبي صلى الله عليه وسلم للحج ملبيا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك « وحين رأى البيت قال : اللهم زده تشريفا وتعظيما ومهابة وبراً .

وطاف بالبيت سبعا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا راكباً على راحلته .

وفي اليوم التاسع من ذى الحجة توجه الى عرفة وألقى خطبته الجامعة التى تضمنت خلاصة وافية لتعاليم الاسلام المشرفة وجب عليها

أنباتها لتتعلم منها صفاء المبادئ ، ووجوب العودة الى منابعنا النقية
الخالصة ، فنستعيد بذلك عزنا ومجدنا وكرامتنا .

خطبة الوداع :

قال النبي صلى الله عليه وسلم — بعد أن حمد الله وأثنى عليه — :
أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فاني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا
بهذا الموقف أبدا .

أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم
كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن
أعمالكم . وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها،
وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ،
تضي الله لا ربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وان كل دم
في الجاهلية موضوع ، وان أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن
عبد المطلب :

أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ،
ولكنه ان يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ،
فاحذروه على دينكم :

أما بعد ، أيها الناس ، ان النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين
كفروا يحلونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم
الله ويحرّموا ما أحل الله ، وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله
السموات والأرض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها
أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ،
لكم عليهن الا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن الا يأتين بفاحشة
مبينّة ، فان فعلن ذلك فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن وتضربوهن ضربا
غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا
بالنساء خيرا فانهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انما أخذتموهن

بأمة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وإن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال صلى الله عليه وسلم : اللهم فاشهد ...

لقد جفلت هذه الخطبة بالكثير الطيب الذي يفيد المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم كما استفاد الأولون السابقون منها .

ولقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتحديد العلاقة بين المسلمين على أساس عدم الاعتداء على الأموال والحرمانات ، فلو التزمت هذه الحدود ساد الأمن والود ، ثم أرسى قواعد الحب والرحمة بالقضاء على الاستغلال والتعدي ، وفي تحريم الربا قضاء على أدواء الجشع والطمع واشاعة للمروءة والأخذ بيد المحتاج ، وفي تحريم الاعتداء على الدماء قضاء على ما يسمى بعادة الأخذ بالثأر التي تقاسى منها المجتمعات الاسلامية والعربية أمر المقاساة .

لقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء حقا ، وبين لهن حقوقهن وواجباتهن ، وفي مراعاة ذلك ارساء لدعائم المجتمع السليم الذي لا استقلال له الا بجناحيه معا .

وأوضح للمسلمين أن مسعاداتهم كلها وعزهم كله وتقدمهم كله انما أساسه التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ..

ان هذه الخطبة الجامعة تتضمن المبادئ العليا لشريعة الاسلام ، عسى المسلمون يتدبرونها الآن لينهضوا بأنفسهم وأمتهم ..

وكانت حجة الوداع درسا عمليا للمسلمين كيف يؤدون مناسكهم كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامهم ، وكما قال عليه الصلاة (م ١٥ - هدي السيرة)

والسلام عن الصلاة : صلوا كما رأيتموني أصلى ، فقد قال عن الحج :
خذوا عني مناسككم .

وقد سميت هذه الحجة حجة البلاغ أيضا ، فقد شهد المسلمون
جميعا على نبيي النبي صلى الله عليه وسلم رسالة ربه وأشهد ربه على
شهادتهم .

وفي هذه الحجة الكريمة نزل قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » المائدة ٣ .

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة عشرة أيام ، ثم قفل راجعا
الى المدينة ، وحين رآها كبرنالتا ، وقال : لا اله الا الله وحده لا شريك
له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آييون ، تأثيرون ،
عابدون ، ساجدون لرئيسا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم
الأحزاب وحده .

ولا يجهل أحد قيمة هذه الحجة بالنسبة لتثبيت دعائم الدعوة
الإسلامية ، والحج هو الركن الخامس للإسلام ، وقد فرض في السنة
الخامسة للهجرة ، وقد شاء الله أن يؤديه نبيه صلى الله عليه وسلم في
العام العاشر الهجري ، لحيلولة الكفار بينه وبين ذلك ، فلم تكن الاستطاعة
وهي شرط الحج مكتولة قبل ذلك ، وقد قال تعالى « والله على الناس حج
البيت من استطاع اليه سبيلا » آل عمران ٩٧ .

والدليل على أنه فرض في العام الخامس ما يرويه السيوطي
في أسباب النزول عن سعيد بن منصور عن عكرمة قال : لما نزل « ومن يبتغ
غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، قالت
اليهود : فنحن مسلمون ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله فرض
على المسلمين حج البيت ، فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا ، فأنزل
الله : « ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » .

وقد عرفنا من تنابع الأحداث أن اليهود قد دالت دولتهم بفتح خير ،
وأن المجاورين للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة من اليهود قد أجلوا عنها
قبل ذلك بسنين .

لقد كانت هذه الحجة فرصة كبرى للمسلمين يودعون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتعلمون منه مناسكهم ، وقد أخذ يلقي نظراته القريرة على هذه الحشود الهائلة التي أصبحت تدين بالاسلام وتشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، بعد أن كان الذي ينطق بهذه الكلمة يؤذى ويطارد ويحارب .

لقد آمنت الأرض وطهر البيت من الأصنام ، ولن يطوف به بعد اليوم الا المؤمنون الموحدون ، وقد كان المشركون يطوفون به قبل اليوم عرايا يصفقون ويصفرون .

وما زالت هذه الشعيرة تجتمع عليها القلوب ويحتشد اليها الملايين من كافة الأقطار في المشرق والمغرب ، يجمعهم هذا المؤتمر الاسلامي الواسع ، فتتألف القلوب وتتصافح الأرواح وتنصاف النفوس ، ويضمهم صعيد عرفات على التلبية الخالصة المخلصة ، هاتفين من الأعماق بما هنف به نبيهم الكريم في حجة الوداع : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما . .

ان ألف مليون مسلم اليوم تهفو قلوبهم الى هذا البيت فمنهم من يكتب الله لهم زيارته ، ومنهم من يضمهم الشوق والأمل لهذه الزيارة المأمولة المرتقبة .

وليت المسلمين في هذا اللقاء الكبير والمؤتمر الضخم يلتمسونه فرصة يتدارسون فيه قضاياهم ويتدبرون أمورهم ويبحثون الوسائل التي تكفل لهم عزهم ومجدهم وأمنهم وفي مقدمة ذلك كله ما ألحت عليه خطبة الوداع من ضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله . . فكلاهما يهيب بهم أن يقيماها روحا ونصا وعقيدة وحبا لا مظهرا أو شكلا فقط ففيهما كل الحياة والعز والنصر والتأييد . .

وفود وبعوث :

ولم تكف الوفود بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة عن الاقبال عليه ، وأصبحت المدينة المنورة به قبلة المسلمين جميعا ، يفدون اليها من كل صوب ، فهي الآن عاصمة الدولة الاسلامية التي أقامها

النبي صلى الله عليه وسلم على أساس متين هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وشعار هو الحب والابتناء والأخلاق الفاضلة والتآخي بين الناس ، ومبادئ هي ما يستوحى من القرآن الكريم والسنة المطهرة ..

لقد أصبحت الأخوة بين المسلمين جميعا متهاجا في تلك المدرسة المحمدية التي نخرج منها أبطال وأبطال ، وكان المسجد هو الجامعة الكبرى التي يتلقن فيها المسلمون معالم الحق والفضيلة والسياسة وفنون التدبير وأصول الحكم ، ومن القدوة النبوية المشرفة استفاد المسلمون محاسن الأخلاق التي كان لها أثر كبير في فتح القلوب والأمصار بعد ذلك ..

ومن هذه المدرسة الجامعة التي أنشأها الرسول صلى الله عليه وسلم في مسجده انطلقت البعوث الى مختلف الجهات لتعلم الناس الدين وتتلو عليهم القرآن ، وكمثال لهذه البعوث أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري الى اليمن ، وقد ظل معاذ بن جبل باليمن حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبا موسى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع .

بعث أسامة ، ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يلحق الروم درسا قاسيا ، ويبدو أنهم كانت تساورهم رغبة ملحة في القضاء على الدعوة الإسلامية في دارها قبل أن يفكر أهلها في الخروج بها الى مختلف الديار .

وقد كان اختيار أسامة على الرغم من صغر سنه قائدا لجيش فيه صفوة الصحابة وكبارهم لفتنة بارعة من النبي صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يعلم بها المسلمين بأن الأمر ليس بالسن ولكن بالكفاءة والمقدرة ، وبأن المسلمين يجب عليهم طاعة أميرهم وأن صغر سنه ، مادام يأمرهم بما فيه صلاحهم وصلاح الإسلام .

ولكن هذا الجيش لم يقدر له أن يمضي الى وجهته الا في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، فقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يشتكى من مرضه الذي لزمه حتى لحق بالرثيق الأعلى ..

وحين مرض النبي صلى الله عليه وسلم أدرك أنه لاحق بربه في مرضه هذا ، فصعد المنبر وقال : ان عبدا من عباد الله قد خيره الله بين أن يؤتیه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده .

وفهم أبو بكر بفطنته هذه الإشارة فقال وهو يبكي : يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فأثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن اخاء وصحبة .

وكان لهذه الكلمة الطيبة التي أدلرت أبا بكر وأثنت عليه ، بالاضافة الى ما كان يختص به من صدق وإينار وجهاد كريم ، وتكليفه من قبل النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة بالناس في أثناء مرضه . كل ذلك قد رشحه للخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قال على بن أبي طالب رضى الله عنه مترجما عن لسان حال الناس : ارنضينا لدنيانا من رضىه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا .

وما زال المرض يشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لحق بربه راضيا مرضيا وقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، وهدى الأمة وكشف الغمة ، وترك الناس على محجة بيضاء لا عوج فيها ، لقد بلغهم مأمنهم ، وأوصاهم بكتاب الله وسنة رسوله خيرا ، وأبان لهم أن النجاة في اتباعهما والشقاء في تركهما ، فهو قد أوفى ذممه ، ولم يترك ثغرة يمكن أن يدخل بها الشيطان بينهم الا سدها عليه ، اللهم الا اذا فتحوها بأنفسهم .

الى الرفيق الأعلى :

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحا يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الاول من السنة الحادية عشره للهجرة ، في يوم بدأت فيه العافية تدب في جسمه صلى الله عليه وسلم ، حتى استتبشر الناس بشفائه ، فقد طلع عليهم في صبيحة هذا اليوم ، وهم يصلون صلاة الصبح بإمامة أبى بكر ، فانفرج الناس له ، وتأخر أبو بكر ليتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه دفعه الى الأمام بيده ، وصلى وراءه جالسا ، ولما فرغت الصلاة توجه الى أصحابه يحدثهم رافعا صوته ، وكان حديثه يدور حول

تحذيرهم من الفتن ، ويشهدهم على أنه ما أحل الا ما أحل القرآن وما حرم الا ما حرم القرآن .

وقد استأذنه أبو بكر في المضي الى السنح — ضاحية قريبة من المدينة — حين استبشر بعافيه فأذن له . فما بلغها حتى اشتد في أثره من ينمى اليه حبيبه صلى الله عليه وسلم ، فعاد مسرعا وجلا .

ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى في بيت عائشة أم المؤمنين ، فكشف عن وجهه الشريف وقبله ، وقال له : طبت حيا وميتا يا رسول الله . .

ثم خرج أبو بكر الى الناس وقد أصابهم الجزع واستولى عليهم الاضطراب ، ولم ينبج من ذلك أشد الناس قوة وأثبتهم قلبا ، وحق لهم أن يجزعوا ويضطربوا ؛ فقد غاب عنهم رسولهم وطبيبيهم وقائدهم وولى أمرهم وحبيبيهم وواصلهم بالوحي وشفييعهم في الملأ ، حتى قال عمر ابن الخطاب : من زعم أن محمدا مات علوته بسيفي هذا .

خرج أبو بكر الى الناس وحالهم تلك بين شارد اللب ووجل القلب ودامع العين ، والتفت الى عمر فقال له : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فأبى عمر أن ينصت ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت تركه وأقبل على الناس ، فالتفتوا اليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأنتى عليه ثم قال : أيها الناس ، انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » ال عمران ١٤٤ .

لقد قütz الله للناس أبا بكر في هذه اللحظة الحاسمة ليرد اليهم صوابهم ، ويفرغ الرضا بقضاء الله في قلوبهم ، فقد كانت تلاوة هذه الآية التي تلاها أبو بكر بردا وسلاما على قلوبهم وكان الناس لم يسمعوها قبل هذه الآونة ، وصدق الله اذ يقول : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » الاسراء ٨٢ .

ووفق الله المؤمنين اذ ذاك ليختاروا خليفتهم ، فكان هو الذى اختاره
النبي صلى الله عليه وسلم رفيقا فى هجرته ، واميرا لأول بعثة حج ،
وحامل اللواء فى آخر غزوة غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه ،
واماما ي صلى بالناس فى أثناء مرضه . .

وكان هو الذى ظهر فى الموقف العصيب يهذى الناس من روعهم
ويثيب اليهم رشدهم . .

وحمل أبو بكر الراية ليقود المسلمين الى بر الأمان ، وينفذ جيش
أسامة الذى عقد النبي صلى الله عليه وسلم لواءه بيده ، ويقضى على
ما اشتعل من فتنة الارتداد ، ويسير البعوث تفتح الشام والعراق وتبشر
بدين الله الذى بعث النبي صلى الله عليه وسلم به رحمة للعالمين ، وينادى
منادى الايمان فى تلك الربوع التى طامسا دقت فيها نواقيس الشرك
واشتعلت فيها نيران المجوسية والضلال ، وظهرت كلمة الله مصداقا لقوله
الحق : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين
كله ولو كره المشركون » التوبة ٣٣ .

الإنسانية العالما

الصورة المثالية للأخلاق :

رأينا فى هذه الرحلة المباركة ، التى اصطحبنا فيها سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت تلك الشخصية الفريدة ، التى رباهها الله تعالى على عينه واصطنعها لنفسه ، واجتباها منذ القدم ، فاختار لها المعدن الطيب الذى انتقلت فيه عبر الأجيال ، حتى أراد الله ان تظهر الى الوجود فى يومها الموعود ، فتقدم للإنسانية أملا المنشود .

ولقد استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يستولى على مجامع القلوب بما رزقه الله من أخلاق فاضلة وقيم شماء ، امتدحها فيه أصدق كلام حيث قال : « **وَأَنَّكَ لَمصلى خَلق عظيم** » القلم ٤ ، فما رآه انسان الا أحبه ، وما عاداه شخص الا أنحى فيما بينه وبين نفسه على نفسه باللائمة ، لأنه عادى أصدق مخلوق وأصلح صالح وأشرف شريف ، ولقد كان غاية ما يتمناه الانسان أن يظفر برضاه ، وكم جهر بعدائه قوم ، ولكن ما ان يطالعوا وجهه الا تبددت تلك القسوة التى غلفت قلوبهم وذهبت تلك الغلظة التى بينوا عليها أمرهم . رأيت أبا جهل على الرغم من شدته وسراسه لم يجرؤ أن يرمى النبى صلى الله عليه وسلم بالكذب ، فقد قال له ذات يوم — فيما أخرجه الترمذى — انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله قوله تعالى : « **فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** » الأنعام ٣٣ .

وهذا النضر بن الحارث يقول لقريش — وهو مشرك — : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاعكم بما جاعكم به قلتم : ساحرا ؟ لا والله ما هو بساحر .

وهذا أبو جهل أيضا ، ابتاع أجالا من رجل من أراش ومطله الثمن ، فأتقبل الأراشى على نواذى قريش يستعين بهم على أبى جهل ، فدلوه على النبى صلى الله عليه وسلم استهزاء به قائلين له : اذهب الى هذا الرجل

الجالس فانه يؤدبك حَقَّكَ ، فأقبل الاراشى على الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعينه على أبى جهل ، فانطلق معه النبى صلى الله عليه وسلم الى أبى جهل — وواحد من المشركين يتبعهما ليرى ماذا يحدث — وما أن طرق النبى صلى الله عليه وسلم باب أبى جهل ، حتى خرج أبو جهل وقد انتقع لونه ، فقال له : أد هذا الرجل حقه ، فقال أبو جهل : نعم ، لا تبرح يا أبا القاسم حتى أعطيه حقه ، ووفاه حقه . .

وهذا أبو سفيان — وقد كان العدو للألد للنبى صلى الله عليه وسلم — لا يملك الا أن يقول عنه : ذلك الجذع الذى لا يقذع أنفه . تلك شهادة الخصوم فما بالك بشهادة الأصحاب ؟

عظمة أصحابه :

ولقد أحاط بالنبى صلى الله عليه وسلم من أصحابه من يغبطه ذوو الفضل من السادة والأمراء والقادة عليهم ؛ ذلك أن أصحابه أوفوا على الغاية فى الحكمة وحسن التصرف والوفاء والمروءة والصدق والاخلاص والقيادة وسائر الصفات الحميدة التى يطمح اليها الطامحون ، وأجدنى عالية على المرحوم العقاد فى هذا المعنى حيث يقول فى كتابه عبقرية محمد : « أحدثت به نخبة من ذوى الأقدار ، تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الراى وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن فى عظمتة تقوم عليه دولة وتنهض به أمة ، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها ، حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع اليها البأس والحلم والحيلة والصراحة والألمعية والاجتهاد وحكمة السن وحمية الشباب ، تلك هى بلا ريب عظمة العظمت ومعجزة الاعجاز فى باب الصداقات ، وما استحقها محمد الا بنفس غنيت بالحب وخلصت له ، حتى أعطت كل محب كفاء ما يعطيها مودة بمودة وصفاء بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت والأقدار » .

يضع القواعد للصدقة الحقة :

وجدير بمن يضع القواعد العامة للصدقة الحقة وحسن العلاقة بين الناس أن يكون قدوة طيبة لذلك ، حتى يقدم الصورة المثلى للتشريع ، وتصديق عند ذلك كلمة الله : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

وما أروع ما قدمه النبي صلى الله عليه وسلم للصدقة من مثل وللوفاء من صور ، استمع اليه يقول : ان الله يسأل عن صحبة ساعة .

ويدعو الى الرفق فيقول : ان الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه . وكأنه بهذا يعنى مع ما يعنى الى الرفق بالأصحاب وعدم التعنيف عليهم .

ويقول فى مراعاة الصحبة مع الأهل : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى .

ويوصى بحسن اختيار الصديق فيقول : المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل .

ويكره الغيبة ، ويحترم أصحابه فيقول : لا تبلغونى عن أصحابى شيئاً فأنى أحب أن أخرج اليكم منشرح الصدر .

وما أجمل قبول العذر بين الأصحاب وتناسى الأحقاد بينهم ومراعاة جانب الله فى الصدقة ، فخير الصديقين المنجافيين من يبدأ صديقه بالسلام ، وشر الناس من لا يقبل عثرة ولا يقبل عذرا ، وفى ظل الله يوم القيامة المتحابان فى الله ، والمؤمن مرآة المؤمن .

تخبر بهذه المعانى أحاديث كثيرة وردت عن المثل الأعلى صلى الله عليه وسلم ، ويمكن الرجوع اليها فى مختلف المراجع التى تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

(١) من أمثلة ذلك اقرأ خالد محمد خالد : كما تحدث الرسول .

لقد كان عليه الصلاة والسلام الصورة المثالية للأخلاق لا في الصدقة فحسب ، بل في كل شيء يتعلق بدنيا الناس وحاجاتهم ومعيشتهم وسلوكهم وأخذهم وعطائهم وبيعهم وشرائهم .

وكيف لا يكون كذلك وهو مصدر التشريع فيما يوحى اليه وفيما يصدر عنه من قول وفعل وتقرير ؟ .

لقد كانت آخر كلمة قالها النبي صلى الله عليه وسلم للناس حين خرج اليهم في صبيحة اليوم الذي لقي فيه ربه ، بعد أن صلى الصبح : أيها الناس ، سعرت الفتن ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإنى والله ما تمسكون على شيء ، إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن . .

ولعل هذه الكلمات هي تفسير ما قالته السيدة عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم . قالت : كان خلقه القرآن . .

والقرآن لم يترك شيئاً للناس إلا وضع لهم فيه تشريعاً وما أبهم فصلته السنة . فبحق كان النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والنموذج الحق للكمال البشرى . .

مربي الرجال :

وتربية الرجال ليست أمراً سهلاً ، ولكنها مرتقى صعب ، وغنى عن الكلام ما استطاعه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المرتقى ، وما أداه من جهد في تخريج جماعات تخرج على أيديها جماعات وجماعات ، وكل من هؤلاء وأولئك كانوا مبرزين في مختلف فنون الزعامة والقيادة والتأسيس والبناء .

لقد نجح إلى أقصى حدود النجاح حين حول أمة من الرعاء إلى أمة من الرعاية ، وصنع من شعب حائر ضائع القصد تعود أن يسوسه غيره في كثير من أطرافه ، تسيطر عليه عنجهية كاذبة وتتوده جاهلية عمياء ، صنع منه أرقى شعب يبشر بأعظم رسالة لا يدين إلا الله ولا يفكر إلا في الله .

وتحل في سياسته الأخلاق محل القانون ، واليك بعض الأمثلة من تصرفاته السديدة وتربيته الحكيمة المسددة التي نجحت في إقامة هذا الجيل الرائد وتلك الأمة المختارة .

— سأل سائل ذات يوم — وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه من زهره الدنيا — فقال له : يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر ؟ .

فقال عليه الصلاة والسلام : انه لا يأتي الخير بالشر ، وان ما ينبت الربيع ما يقتل حبطا ، الا آكلة الخضراء أكلت حتى اذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فتلظت وبالت ورنعت ، وان هذا المال خضرة حلوة ، فتعمر صاحب المسلم هو ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وان من يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة .

لقد سأل السائل وهو يعجب كيف يكون المال الذى يفئنه الله على عباده سببا في الشر ، فأبان له النبي الحكيم في أسلوب تربيته على محسوس أن النعمة ليست ثرا في حد ذاتها ولكن سوء استغلالها هو الذى يجلب الشر على صاحبها . وهكذا يجب أن يحذر الناس فتنة الدنيا حين تقبل عليهم ، فان من نهم فيها هلك كالبعير الذى يأكل من غير وعى فينتفخ ويموت ، ومن أخذها بقصد سلم كالشاة التى تقتنع فتسلم .

ثم رسم الطريق للسلامة من زهرة الدنيا بأن يأخذ الانسان المال بحقه ، وبأن يعطى منه الفقير والمسكين وابن السبيل .

ولقد استجاب أصحابه لهذا التوجيه الحكيم ، فكانوا على الرغم مما أفاء الله عليهم من نعيم أمثلة صادقة في الزهد والمواظاة والايثار ، ولقد رأينا فيما مر بنا كيف أن حكيم بن حزام مرض عليه أبو بكر ثم همر حقه في الفء فأبى أن يأخذه حتى أشهد عليه عمر المسلمين في ذلك .

هذا مثل نحتاج اليه في حياتنا الراهنة ، وقد فتحت الدنيا خزائنها على كثير من المسلمين ، حتى فاضت بالمال خزائنها فأقبلوا على اللذات بنهم شديد ، وغفلوا في ذلك عن واهب هذه النعمة ولم يكتفوا في النعم

بضرورات العيش بل تجاوزوها الى الكماليات الالهية العائنه ، فأصبح شأنهم كالبعير الذى قتله البعير حبطا .

— وهذا مثل آخر : كان صلى الله عليه وسلم يحب من أصحابه أن يعملوا وأن يعمروا وأن يكونوا أمثلة حية للجهاد فى سبيل الحياة الى جانب الجهاد فى سبيل الآخرة . ومن أقواله الرائدة فى ذلك : « ما من مسلم يغرس أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة الا كان له به صدقة » « اذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها » .

ففى هذين الاثرين الكريمين وغيرهما من أقوال المربى الحكيم صلى الله عليه وسلم دعوة الى تعمير الأرض لتصبح فياضة بالعطاء للانسان .

وقد استجاب أصحابه رضوان الله عليهم لهذه الدعوة الخيرة ، فقد روى الثقات أن رجلاً من أبى الدرداء رضى الله عنه — وهو يغرس جوزة — فقال له : أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير ، وهى لا تعطى ثمرها الا بعد أمد طويل ؟ فأجابه أبو الدرداء : ما على أن يكون لى أجرها ويأكل منها غري ؟.

ما أروع هذا المنطق وأجمله ! وما أحوجنا اليه فى هذا العصر الذى نادى فيه الدول بتحديد النسل خوفاً من الفقر ، وهم فى حساباتهم الخاطيء يستكثرون الخلق على الله مع أن رزقه مكفول للجميع ، وخير لهم أن يستبدلوا بهذه الدعوة الجاحدة دعوة أخرى الى تعمير الأرض الجرداء ، واستنبات الصحراء التى يمكن استنباتها بوسائل وأسباب أصبحت مهياة بمعطيات العلم الحديث .

— وهذا مثل يدلنا على أدب التفاضى :

أخرج ابن ماجه عن أبى سعيد قال : جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم يتقاضاه ديناً كان عليه ، فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك الا قضيتنى . فانتهره أصحابه ، فقالوا : ويحك تدرى من تكلم ؟ فقال : انى أطلب حتى . فقال النبى الحليم : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟.

ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : ان كان عندك ثمر فأقرضينى

حتى يأتينا تمر فنقضيك . فقالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، فاقترضه ، فنقضى الأعرابى وأطعمه . فقال : أوفيت أوفى الله لك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أولئك خيار الناس ، انه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير منتهع .

فانظر كيف كان حلم النبى صلى الله عليه وسلم على متقاضيه على رغم فظاظته ، وأداؤه حقه له ، وتوجيهه النصيح لأصحابه أن يكونوا مع صاحب الحق لا معه هو .

ان فى ذلك تعليما لنا ألا نكون مع صاحب الجاه والنفوذ ضد الضعيف ، والا يسلك احدنا السبل المتعرجة للتضليل وتضييع الحقوق على أصحابها . ما أحوجنا الآن الى هذا المثل الطيب ليستريح الناس من تعتعة المحاكم والتواء المتقاضين وميل أصحاب الهوى من القضاة .

— وهذا مثل يهدينا الى التواضع الكريم والزهد الجميل . . .

قال عدى بن حاتم : دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم ، فقام وانطلق بى الى بيته ، فوالله انه لعامد بى اليه اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها .

قال : فقلت والله ما هذا بملك . ثم مضى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا دخل بى بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفسا ، فنقذها الى فقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض . قال : فقلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك .

قال : ثم عرض على الاسلام ، فقلت : انى على دين ، فقال : أنا أعلم بدينك منك ، ثم قال : أنا أعلم الذى يمنعك من الاسلام ، تقول انها اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب . أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالذى نفسى بيده لينمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالببيت فى غير جوار أحد ،

وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز . قال : كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد .

ويعيش عدى بن حاتم حتى يرى تحقق الأولى والثانية ، ويقسم قائلًا : والذي نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها .

ولقد تمت فعلا ، ففى عهد عمر بن عبد العزيز لم يجد أحدا يقبل أن يأخذ الصدقة ، فجعل يشتري بها أعبدا ويحررها .

أفرايت الى هذا التواضع الجم والزهد الجميل ؟ ولكنه من مقومات هذه الشخصية الجليلة الكريمة ، والتي كان فى امكانها أن تستمتع بكل شيء ولكنها تأباه . انها لا تهتم بكبرياء المظهر ولا بأبهة السلطان ولا بالرياش والأثاث . لقد كان يههما فى المقام الأول رضا الله وارضاء الناس برضا الله .

ما أحوجنا نحن الى هذا الخلق العظيم حتى يتحطم التعالى بالباطل والتفاخر الكاذب ، والغرور الذى يسس منافذ التنبيه للعيوب ، فيتمادى صاحبه فى بهتانه وضلاله .

ما أحوجنا الى الزهد الجميل ولا سيما من طوائف المتصدين للناس المتولين شئونهم ليكونوا قدوة لهم ومثلا طيبة أمامهم . فنقضى بذلك على أدواء كثيرة وأمراض خطيرة .

توجيهات تنير القلوب :

هذه أمثلة قليلة جدا ، وسيرنه الزكية حافلة بمختلف المنل والتوجيهات الكريمة التى استنار بها أصحابه ، فعزوا ، وسار على نهجها من جاء بعدهم فسادوا وما أحوجنا الآن الى متابعتها لنعز كما عزوا ونسود كما سادوا .

لقد كان أصحابه رضوان الله عليهم يتصرفون بوحى من اشعاعاته التى استنارت بها قلوبهم بعد أن امتلأت حبا له وتوجهها اليه ، حتى ملك

أقطار نفوسهم وشغاف أمتدنتهم ، فمسهم من الوحي الذى يوحى اليه جانب جعلهم ينطقون بما يوافقه قبل أن يوحى ويتصرفون بواقعه دون أن ينتزل به جبريل ، وكم رأينا القرآن يوافق آراء عمر رضى الله عنه ، وقد رأينا سعد ابن معاذ رضى الله عنه يحكم فى يهود بنى قريظة فيحكم بما يريد الله ورسوله ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت ، ا حكم الله به من فوق سبع سموات .

وما هذه الفتوحات الرائعة لأمم الشرق والغرب فى تلك الآونة الوجيزة من الزمن الا من فيض هذا الالهام الذى ألهمه الله لهؤلاء الاصحاب الاجلاء فى حسن القيادة وتعلمها فى مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبدافع هذا الايمان العميق الذى تغلغل فى أعماق الجنود الذين وثقوا بوعد الله وتبشير الرسول لهم بالنصر والفتح . وقد رأينا فى قصة عدى ابن حاتم بماذا وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تحقق هذا الوعد .

وان نظرة الى تاريخ رجال من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وسعد وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تملأ النفوس اكبارا واجلالا لهؤلاء الرجال ، الذين صنعوا أكبر معجزة فى التاريخ وشادوا دولة الاسلام الكبرى ، التى ما زالت العظمة الانسانية تحلم بعودتها لتتخذ العالم مما يتردى فيه من صراع وضياع .

مقارنة مفجعة :

ان الزمن ليأسى لحال المسلمين اليوم ، وحين يثارن بين ماضيهم وحاضرهم يشعر بغصة تتبعها حسرة . ولكن ماذا يجدى ذلك ؟ والحسرة لا تخلق دولة الا اذا تحولت الى عبرة تبعث الندم فتوقظ الهمم .

اتنا فى حاجة الى الانتشاع بكل ما فى السيرة العطرة من دروس ففيها الحياة والفناء ، فلم يترك النبى صلى الله عليه وسلم سببا من أسباب الخير لأمتة فى دينهم ودنياهم الا دلهم عليه وأرعى أنظارهم اليه ، ولم يكن جهاده فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال الا اقامة لبنيانهم الشامخ الذى حثهم

على المحافظة عليه بواسطة التمسك بكتاب الله وسنته صلى الله عليه وسلم .

النبي لم يفصل بين الدنيا والدين :

ولم يفصل النبي صلى الله عليه وسلم في اقامة المجتمع الاسلامي بين الدنيا والدين ، بل راعى أن يكون البنیان معقودا بهما ، حتى لا يأخذ المسلم شئون دنياه بغير دين يزعه وتقوى تعصمه وضمير يقظ حتى يرشده ، وحتى لا يغالى في شئون دينه حتى يعطل من جراء ذلك المجتمع الذى يحتاج الى جهد كل فرد ؛ ذلك أن المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ولقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه يرغبون في التهرب والاعتزال ومداومة العبادة فقال : من يرغب عن سنتى فليس منى .

ولقد حرص الاسلام منذ أن بدأ يقيم مجتمعه في المدينة على أن تكون التقوى هى شعار هذا البناء الجديد ، نجدها تحرس الأسرة وهى اللبنة الأولى في المجتمع وتحرس الفرد في علاقته بربه وغيره من الأفراد ، وتحرسه وهو منطلق في عمله ولو ذهبنا نعدد كلمة التقوى والحث عليها في أول سورة نزلت في المدينة وهى سورة البقرة لوجدناها كثيرة جدا ، فالمجتمع الناشئ لم يعتن بالمظهر الدنيوى فقط بل راعى أن يكون الدين من وراء ذلك وإمامه ومن حوله حتى يضمن بقاءه واستمراره .

الأسرة الصالحة أساس المجتمع الصالح :

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو القدوة العليا في الأخلاق يحرص على أن يكون المجتمع الناشئ مشيدا على قواعد الأخلاق الفاضلة ، ولضمان ذلك دعا أن يحسن الرجل اختيار زوجته ، وأن تحسن الأسرة اختيار الزوج لابنتها ، حتى يضمن للزواج استقراره وثقاؤه . ولقد جاء في القرآن الكريم ما يوضح أثر الانتقاء فقال تعالى : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا وللعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون الى النار » (م ١٦ س هدى التسيرة)

والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون»
البقرة ٢٢١ .

ويوضح النبی صلی الله عليه وسلم مرغبات المرء في الزهجة فيقول :
تنكح المرأة لأربع : لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فاعظروا بذات الدين
تربت يدك .

ويحذر من سوء الاختيار قائلا : اياكم وخضراء الدمن ، فسئل عنها
فقال : المرأة الحسنة في المنبت السوء .

كل ذلك لحرصه على دوام العشرة وتأكيد اقامة المجتمع على أسس
سليمة متينة ، وقد جرت العادة على أن النفوس تتألف مع ما يشاكلها
والأرواح تنجذب الى ما يوافقها مصداقا للأثر القائل : الأرواح جنود مجندة
ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وصدق الله العظيم اذ يقول :
« **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ**
لِلطَّيِّبَاتِ » . النور ٢٦ .

فاذا ذهبنا الى ما وراء ذلك نجده يضع ضوابط لهذا المجتمع السليم
تتناول الأفراد والجماعات والأحكام والقوانين بما لا يدع ثغرة لنقض
هذا المجتمع .

فالفرد محكوم بحسن الأخلاق مع أهله وجاره ومن يتعامل معهم ،
ومفروض عليه طاعة الوالدين والبر بهما ، كما أوجب الاسلام عليه انكار
المنكر ودعاه الى تغييره بيده أو بلسانه أو بقلبه ، كما أوجب على المسلمين
جميعا التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر « **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى**
الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » آل عمران ١٠٤ ، وفي ذلك
يقول صاحب الأسوة الحسنة صلى الله عليه وسلم فيما يرويه صاحب
رياض الصالحين : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله
أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يسجاب لكم » .

وأوجب عليهم التواصي بالحق والصبر والتعاون على البر والتقوى ،
وليس أدل على ذلك من سنة التأخي بينهم حين انتقل بهم النبي صلى الله

عليه وسلم الى دار الهجرة ، ضمنا لداومة التناصر بينهم واستمرار البر والوفاء والايتار .

وحذر المجتمع — والمسلمون أفراد — من الفساد الذى ينخر فى جسمه فيؤدى الى انهياره ، وربما بدأ الفساد بأشياء يظنها الانسان يسيرة ولكن عواقبها وخيمة كالسخرية واللمز والتنازع باللقاب والظن السيئ والتجسس والاغتياب والنميمة بالباطل ، وغير ذلك من الادواء التى تراها الآن قد تفتشت بين الناس ، ففرقت شملهم وجعلتهم شسيعا وأحزابا ووزعتهم نهبا مقسما بين أعدائهم ذات اليمين وذات الشمال .
وامحت شخصيتهم الفريدة التى ميزهم الله بها بين سائر الأمم حيث قال لهم : **« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس »** الآية ١٤٣ ،
وحيث قال لهم : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »** آل عمران ١١٠ .

السنة مفصلة للقرآن :

لقد حفلت سيرة النبی صلى الله عليه وسلم بالكثير الطيب الذى يضمن بناء الأمة الاسلامية بناء سليما قوية ، مصونة بالحدود والتشريعات والشعائر ، ومحصنة بالجهاد فى سبيل اعزازها وترقيتها .

وكانت سنته صلى الله عليه وسلم الممثلة فى أقواله وأفعاله وتقريراته مفصلة لكتاب الله تعالى وموضحة له ، ولذلك فانه من الخطر الشديد على الأمة الاسلامية أن تفصل بينهما ، أو تأخذ بالكتاب تاركة السنة بحجة واهية ، هى أن بعض الأحاديث تناولها الوضع ؛ فان أئمة الحديث وعلماء المسلمين — رضوان الله عليهم — قد آتاهم الله القدرة على بيان الصحيح والموضوع ونقدوا ذلك فى كتبهم الوافية بما لا يدع مجالا للشك أمام المثبت من معرفة الحق من الباطل .

ولقد حذر النبی صلى الله عليه وسلم من زمان يدعو فيه قوم الى كتاب الله فقط ، غير ملتفتين الى السنة ، وفى ذلك المعنى أخرج أبو داود عن العرباض بن سارية السلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أحسب أهدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يهرم »**

شيئا الا ما فى القرآن ، الا انى والله لقد وعظت وأمرت ونهييت عن أشياء
انها لمثل القرآن أو أكثر ..

ويكفى فى هذا قوله تعالى « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى
يوحى » النجم ٣ ، ٤ وقوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم
عنه فانتهوا » الحشر ٧ .

جوانب القدوة فى حياة الرسول :

ولو ذهبنا نعدد مواطن القدوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم
لطال علينا الأمر ، فانا واجدون بغير شك فى كل منعطف من الحياة التى
نحياها مثلا كريما يحتذى به من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . ولعلنا
نستطيع — بصفة خاصة — أن نلفت الى هذه السيرة الطيبة نظر المربي
والطبيب والقائد والزوج والأب والصديق والتاجر والواعظ والصانع
والحاكم وكل متطلع الى الصورة المثالية فى دنيا الناس .

النبى المعلم :

فالمعلم هو الذى يستطيع أن يغير حالة تلاميذه من السيئ الى
الاحسن ويخرج منهم علماء أجلاء بالأسلوب التربوى السليم ، ولسنا
نتعثر فى الحصول على الدليل الذى يثبت نجاح النبى صلى الله عليه وسلم
نجاحا منقطع النظير ، فانه لم يغير حالة فرد أو أفراد ، بل غير حالة شعب
من النقيض الى النقيض ، وليس أدل على مقدرته من أن رجلا ينطلق
نحوه وقد امتأ قلبه حقدا ونقمة عليه فاذا به يرتد عنه بعد مناقشة وجيزة
إلى صديق حميم ، ان رجلا يحول حالة عدوه بهذه السرعة والقدرة لهو
أنجح انسان فى البلوغ الى قلوب الناس واستيلائه عليها وتحويلها من
اتجاهات الشر الى اتجاهات الخير والحب والسلام .. وكذلك كان النبى
صلى الله عليه وسلم . لقد قال عن نفسه بأسلوب القصر . انها بعثت
معلما . وتعنى هذه الكلمة بهذا الأسلوب الكثير .

وليس هناك معلم ناجح بدون منهج ، وكان منهج النبى صلى الله
عليه وسلم فى تعليمه أصحابه حافلا بكل احتياجات الفرد والجماعة فى

دنياهم وأخراهم وبكل ما يكفل لهم الأمن والسعادة في معاشهم ومعادهم .
هذا المنهج يجده المسلمون لو أرادوا السعادة في القرآن الكريم وفي سنة
النبي الكريم .

النبي الطيب :

وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم معلما كان كذلك طبيبا ، طبيب
أرواح وقلوب وطبيب أجساد أيضا . يرفع من معنوياته ، ويقوى من شخصيته ، كما يدعو إلى مراعاة صحته
العمامة ويضمن له سلامتها بما يضعه لها من ارشادات وتوجيهات ، قال
عنه الطبيب الذي أرسله له المقوقس : لقد جمع الحكمة في كلمين : نحن
قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع .

وما أروع هذه الكلمة القصيرة التي تعد من جوامع كلمه صلى الله
عليه وسلم : ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه .

ويضع القواعد في الصحة العامة في الطعام فيقول : ثلث للطعام
وثلث للشراب وثلث للنفس ، وكان دأبه الاقلال من الطعام والشراب
ما أمكن ، ويتجافى عن الجمع بين ألوان متعددة ، ومن أدبه أنه لم يحب
طعاما قط وكان يأكل مما يليه .

وكان يتهى عن تلويث الماء والتخلي في طرقات الناس ، ويحذر من
التعرض للعدوى ويحث على النظافة ويعتبرها من الإيمان ، إلى غير ذلك
مما يجده المستزيد مفصلا في السنة الشريفة .

النبي القائد :

وكان مثالا أعلى للقائد الناجح ، فعلى الرغم من الجانب الإلهامي
الذي أمده الله به لم يكن يغفل عن استشارة أصحابه فيما يعن له من أمور ،
أو عن وضع الخطط الناجحة الموفقة ، وخلاصة ما يمكن أن يقال في ذلك
ما قاله العقاد رحمه الله « .. كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب
ودعته إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره
بالدرس والمرانة ، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خطته

إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة ، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة ، تقتزن بآية الابتكار والانشاد ؛ لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجساد .

وامامك حروبه النى خاضها تشهد بذلك ، غزوة بدر النى انتصرت فيها القلة على الكثرة ، وغزوة أحد التى كانت الهزيمة فيها لأن الرماة خالفوا عن أمره ، وغزوة حنين التى ثبتت فيها ثبات الشجاع المعجز بثباته حتى حول الهزيمة الأكيدة الى نصر مؤزر .

فى كل غزوة من غزواته تجد جانباً معجزاً يظل يمد القادة العسكريين أيدى الدهر بدروس التصرف الحسن والتخطيط السليم .

الزوج المثالى :

ولا ينكر منكر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان الزوج المثالى ، سواء فى أثناء اقتصاره على زوجة واحدة أو فى أثناء تعدد زوجاته ، ويستطيع المضطر الى جمع أكثر من واحدة بشروط الجمع التى حددتها الاسلام أن يجد فى النبى صلى الله عليه وسلم القدوة المثلى فى العدل وحسن العشرة ، ولعل الله جلت حكمته اختار له التعدد فى الزوجات ليلزم أمته الحجة فى أن التعدد ليس باباً ميسوراً يستطيع أن يلج منه يشاء ، ولكنه محدود بقيم وآداب لا يقدر عليها الا المثاليون .

ولا مناص من الإشارة الى عدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، وهن فى جملتهن احدى عشرة زوجة ، توفى منهن اثنتان قبله ، وهما السيدة خديجة بنت خويلد أولى زوجاته رضى الله عنها ولم يتزوج عليها فى حياتها وكانت نعمة الصاحبة له . والسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها وكانت تلقب بأم المساكين لحبها عليهم وعطفها على البائسين والفقراء .

وبقيت بعده صلى الله عليه وسلم تسع نساء هن : عائشة بنت أبى بكر ولم يتزوج بكراً غيرها ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى

أمية بن المغيرة المخزومية ، وزينب بنت جحش بن رثاب الأسدية ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة رمة بنت أبي سفيان بن حرب ، وجويرية بنت الحارث الخزاعية ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث — رضى الله عنهن جميعا — .

وقد خاض الكثيرون وبخاصة المستشرقون ومن لف لف لفهم وسار على نهجهم في الحديث حول كثرة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يليق بجلال النبوة والعصمة التي كفلها الله لها ، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم شهوانيا في زواجه ولا طالب منعة ، فإنه ليس لديه الوقت الكافي — لو أراد المتعة — لذلك ، فقد شغلته أحداث الدعوة والجهاد في سبيلها عن كل تفكير في متعة أو شهوة ، فضلا عن أن استعدادة الشخصي لم يكن كذلك ، فقد تعهد الله منذ نعومة أظفاره ورباه على عينه واصطنعه لنفسه وشغل به ، ولم يجعل في قلبه أدنى التفاتة الى غير ما هيىء له من جلائل الأعمال ، وليس معنى ذلك — حاشاه — أن هناك نقصا في التكوين ، وليس معناه أيضا أن الزواج يتنافى مع المثل العليا . كلا ، فقد فطره الله فطرة سوية وأفاض عليه كل كمال خلقى وخلقى . وإنما الذى يتنافى مع المثل العليا الاستغراق في المراه والنظر الى الزواج منها على أنه نهمة يفرغ المرء لها حتى تستولى على حسه وشعوره وتفكيره . وعلى الرغم من كثرة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينشغل عما تهيأ له من عظام الأمور ونشر الدعوة والجهاد في سبيلها .

لقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة بنت خويلد وهى تكبره بخمسة عشر عاما ولم يتزوج عليها وهو في أتم مرحلة الشباب — سن الخامسة والعشرين — ولو كان المتعة يطلب لتزوج غيرها وبخاصة حين تجاوزت مرحلة الشباب .

لقد كان في زواجه صلى الله عليه وسلم يسير وفق حكمة عليا يتأبى فهمها على هؤلاء المكابرين فما من زواج الا وفيه مصلحة من مصالح المسلمين ، ألمح الى ذلك افاضل الباحثين المخلصين ، ويكفى اتماما للفائدة أن نذكر بإيجاز ما كتبه الأستاذ سعيد حوا في كتابه « الرسول » : — لقد

تزوج النبی صلی الله علیه وسلم الكبيرة والصغيرة والنوسط ، والمرأة في كل طور من أطوارها لها مشاكلها ، وسيرة الرسول صلی الله علیه وسلم العملية وأجوبته الدائرة بما يتفق مع كل طور ونقل هذا كل إلى الأمة الإسلامية من مقتضيات الرسالة .

— ينبغي أن لا نغفل عن أن المرأة في الإسلام مكلفة كالرجل ، ولها وضعها الخاص الذي تختلف فيه عن الرجل ، ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل ما له علاقة بالمرأة إلى الأمة الإسلامية ، بحيث تكون أمهات المؤمنين أسوة النساء في العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن .

— تزوج الرسول صلی الله علیه وسلم القرشية وغير القرشية ، وتزوج ذات الأصل اليهودي ، ومن كان أبواها مهاجرين ، ومن كان أبواها كافرين ، ومنهن الصغيرة جدا والكبيرة جدا ، وفي ذلك قدوة للمسلمين حتى لا يرى أحدهم حرجا في الزواج من أي امرأة أحلها الله له ، ما دامت متوفرة فيها شروط الحل .

— وقد استل النبي صلی الله علیه وسلم بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لولا هذه الصلات من القرابة .

— كانت الزوجات همزة الوصل فيما يتعلق بالنساء من أحكام ، فكثرتن جعلت دائرة اتصال المسلمات به أكثر وإيصال الأحكام إليهن أيسر ، ولا تستطيع امرأة واحدة استيعاب كل شأن النساء ، وقد رويت آلاف الأحاديث عن النبي صلی الله علیه وسلم في مختلف الأمور عن طريق زوجاته ، ولولا هن لبقيت هذه الأمور غامضة .

— وقد أتى الإسلام بمفاهيم جديدة ومثل كاملة بالنسبة للمرأة ، ولابد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان بقائها واستمرارها وتأكيدا .

— كان هذا الزواج حلا لآب من في بعض الحالات ، فقد تزوج

أم سلمة المخزومية المهاجرة وهى بنت سيد مخزوم ، بعد أن استشهد زوجها ولا عائل لها بعده فتزوجها ليجبر كسرهما ويبرها .

وتزوج رملة بنت أبى سفيان بعد أن تنصر زوجها فى أثناء هجرتها معها الى الحبشة ومات هناك فأصبحت بدون راع ، وأبوها سيد قريش ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ليخطبها له ، فخطبها له وأدى صداقها عنه .

وتزوج زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتبناه ، وكان العرب لا يتزوجون امرأة المتبنى بعد وفاته أو بعد طلاقها ، فأراد الله أن يهدم بالاسلام هذه القاعدة وأن يحلها حلا جذريا . فكان هذا الزواج .

وتزوج جويرية بنت الحارث وأبوها سيد قومه ، بعد أن هزم بنو المصطلق وأسرت نساءهم وغنمت أموالهم ، فكان زواجه منها بركة على قومه ، فقد أطلق المسلمون الأسرى أكراما لمصاهرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتزوج من صفية بنت حى بن أخطب ملك اليهود ، بعد أن هلك أبوها وأخوها وزوجها ، وقد استل بهذا الزواج ما بقلبها من حقد كان يعذبها عملا بالحكمة : ارحموا عزيز قوم ذل .

وتزوج من عائشة وخفصة ليوثق صلته بصديقين عزيزين وصاحبين جليلين هما أبو بكر وعمر ، كما زوج ابنته فاطمة من على ، وابنته رقية وأم كلثوم لعثمان الواحدة تلو الأخرى لنفس السبب .

— فتح بهذا الزواج لزعماء أمته أمقا جديدا لا ينبغى أن يغيب عنهم فى أثناء العمل المتواصل وهو تقوية الصلات مع الآخرين عن طريق الزواج وتوهمين حقد المفلوبين .

وقد لجأ الى ذلك عبد الرحمن بن عوف حين نادى سرية لغزو بنى كلب فى دومة الجندل ، وقد انتصر عبد الرحمن عليهم ، وأسلم بعضهم ورضى

بعضهم بدفع الجزية ، كما أسلم رئيسهم الأصغر بن عمرو التصرائى وتزوج عبد الرحمن ابنته لتهكين صلات الود بين المسلمين وبين هذه القبيلة . كما لجأ اليه خالد بن الوليد في حرب اليمامة حين تزوج من ابنة « مجاعة » ساعد مسيلمة الأيمن فاستل بذلك حقه على الاسلام والمسلمين ، ونصح لخالد .

— وبهذا الزواج المتعدد الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم فيه مثلاً أعلى في العدل بين زوجاته على الرغم من اختلافهن في السن والمشرّب بين الطريق الصحيح للسلوك الذى ينبغى أن يسلكه من تعددت زوجاته ، بحيث لا تختل قيم الحياة ، ولا تشعّر المرأة بعذاب الظلم ، كما عرفت النساء حقوقهن وحدود هذه الحقوق .

لا ريب اذن في أن تعدد الزوجات للرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة من ضرورات الرسالة وتشريعاتها السامية ، وكان هذا العدد خصيصاً للنبى صلى الله عليه وسلم فحسب ، أما بالنسبة لبقية المسلمين فليس التعدد مباحاً الا في حالات راعاها الاسلام بشرط العدالة ، وهو مقصور على أربع لا غير « وأوجز ما يقال في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها ، أو مباحاً يختاره وله مندوحة ، وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة في بعض الأحوال لأنها خير الضرورات ، ولن ينكر هذا الا متعنت يصدّم الحقائق ويتجاهل المحسوس المائل للعيان » (١) .

الأب التالى :

فاذا ما رأينا أبوة محمد صلى الله عليه وسلم وجدناها خير أبوة ، تمثل الرحمة الحانية مع التوجيه السديد ، ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أباً لجميع المسلمين رعوفاً بهم ، يصفه بذلك ربه جل وعلا فيقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رعوفاً رحيم » التوبة ١٢٨ .

(١) العقاد — عبقرية محمد .

ولم تشغله أعباء النبوة عن أن يعطى النبوة حقها من الحفاوة والترحيب والحب والحنو ، ولقد رآه مرة الأقرع بن حابس يقبل سبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فقال : لقد ولد لي عشر ما قبلت واحدا منهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من لا يرحم لا يرحم — أو قال : لا يرحم ابنه من لا يرحم الناس . وأخرج الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعينا إلى طعام ، فاذا الحسين رضي الله عنه يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم أمام القوم ، ثم بسط يده فجعل الحسين يفر هاهنا وهاهنا ، فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذه ، فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ، ثم اعتنقه وقبله ، ثم قال : حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه . الحسن والحسين سيطان من الأسباط .

ولم يكن حنوه قاصرا على أولاده فقط ، بل شمل كل الأولاد ، فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضاحك أخاه الصغير عمرا قائلا له : يا عمير ما فعل النغير ؟ وكان يداعب أبناء العباس وأبناء جعفر بن أبي طالب وغيرهم من أطفال المسلمين وهو يمتلىء رحمة بهم وحدا عليهم ، حتى أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يقدح هذا في جلال النبوة ، ولا ينافي التفرد لجلال الأعمال ، بل هو في حد ذاته هدف من أهداف التشريع ، يعطى للآباء دروسا في رعاية الأبناء وحسن توجيههم ، حتى لا يضلوا الطريق ويفقدوا المثل الأعلى في الأبوين حين يرونها أو أحدهما فقد عاطفة الأبوة واستبدل بها الفلظة والقسوة والجفاء .

وعلى الرغم من حبه الشديد لابنته فاطمة إلا أنه رفض أن يهيئ لها من العيش ما ليس لغيرها من النساء ، فكانت تخدم في بيتها بنفسها ، تدبر الرحى حتى أثرت في يدها وتحمل القربة على ظهرها حتى أثرت في نحرها ، وحين شكت إليه ذلك قال لها : انتقي الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملی عمل أهلك .

الأنبي الصديق :

أما صداقته فهي خير صداقة عرفها التاريخ ، وهي المثل الأعلى في الود والوفاء والمروءة والايثار والاخلاص ، كان يبادل المسلمين جميعا الحب والوفاء ، وبخاصة الأنصار الذين آووه ونصروه ، فكان يوصى بهم خيرا ، وفي آخر وصاياه في مرضه الذي لحق فيه بربه قال عليه الصلاة والسلام : يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا ، فان الناس يزيدون وان الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وأنهم كانوا عيبتي — مكن سرى — التي أويت إليها ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم .

لم ينس أحدا قدم اليه معروفا أو صنع معه جميلا ، وكان المعروف يأسره — في الوقت الذي كان فضله على الجميع واضحا ، ولم لا وقد أنقذهم من الظلمات الى النور ومن الكفر الى الايمان ؟ وما من أحد من أصحابه الا وله مزية عنده تظل ترفعه أبد الدهر ، حتى حاطب بن أبي بلتعة الذي أخطأ ذات يوم فأرسل الى مشركي مكة خطابا يعرفهم فيه بعزم النبي صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ، تجاوز عن هفوته ولم يوافق على ايدائه ، بل قال كلمته المأثورة : لعن الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وكان حاطب بدريا . لقد تذكر في حال اساعته حسناته المتقدمة وتلك عبقرية النبوة التي ترتفع على مستوى البشر فلا تففل عن الحسنة في وقت الاساءة . .

ولقد تعدت محافظة النبي صلى الله عليه وسلم أصدقائه المخلصين الى كافة المنتسبين الى الاسلام فلم يشأ أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، حين هم عمر أن يبطش بعبد الله بن أبي بن سلول لما أحدث من فتنة بين المسلمين ولما تقوه به من كلام يجافي الذوق والدين

وكان الى جانب مودته لأصحابه يراعى مودة محبيهم والمتصلين بهم فقد كان يكرم صديقات خديجة رضى الله عنها .

وليس أدل على الحب للأصدقاء من تمسك الأصدقاء به وحرصهم عليه وايتارهم اياه ، وهذا زيد بن حارثة غلام خديجة وقد أهدته الى زوجها قبل النبوة ، يتعرف عليه أبوه فيجىء ليستردده ، ولكن زيدا يأبى

الرجوع مع أبيه ، ويفضل البقاء مع محمد ، ويجزيه النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الايثار ايثارا مثله ، فيخرج الى الحرم مناديا : يا معشر قريش اشهدوا على أن زيدا هذا ابني أرثه ويرثني ، ويظل حريصا على زيد حفيبا به وبابنه من بعده حتى يشيع بين المسلمين أن أسامة بن زيد هو حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبون منه الشفاعة عنده فيما يهم من أمور ، والنبي صلى الله عليه وسلم يستجيب له ما لم تكن شفاعته في حد من حدود الله .

لم ينس لأحد فضله ، ظل يذكر خديجة بالخير بعد وفاتها أبدا ، واحتفى بمرضعته حليلة ، وبأخته من الرضاعة الشيماء ، وبعمه من الرضاعة بل وبكل قبيلة سعد بن بكر التي كانت رضاعته فيها ، وبحاضنته أم أيمن وبكل من كانت تربطه به صلة قريبة أو بعيدة ، ما دامت هذه الصلة لم تضطره الى قطعها الفجرة على جناب الله ونشر الدعوة الصادقة ، فهذا تكون رعاية جناب الله أولى وأحق .

وما كان أشد فرحه باقبال عمه العباس ، وابن عمه أبي سفيان ابن الحارث ، وشقيق زوجته أم سلمة عبد الله بن أمية على الاسلام وهو متوجه الى مكة .

لقد اتسع صدره للحب والرحمة ، ولم يوجد به مكان للحقد والكراهية ، ولقد قابل أهل مكة الذين آذوه وحاربوه وطاردوه بالصفح والعفو والمغفرة قائلا لهم : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

التاجر الصدوق :

ولقد تاجر النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان مثال التاجر الأمين الذي يؤدي للتجارة حقها ، فيصدق في عرضه وطلبه ، ولا يغفل من صاحب رأس المال شيئا ، لا يغش ولا يخدع ولا يمارى ولا يجادل . بل عاد الى خديجة رضى الله عنها بأضعاف ما كان يعود به غيره ممن كان يتاجر لها قبله ، وليس ذلك لتحسن في السوق يقع في الحساب ، ولكن للأمانة التي كانت تصاحبه في عمله ، وقد شهد بذلك رفيقه في مسيرته الميسرة الذي

أرسلته خديجة معه ليعينه في طريقه ، وليخبرها أيضا بما رآه من خلق محمد وطريقته في المعاملة ، ولقد أطرى النبي صلى الله عليه وسلم شريكا له في التجارة قبل النبوة ، اسمه السائب بن أبي السائب ، فقال عنه : نعم الشريك السائب بن أبي السائب لا يشـارى ولا يمارى ، وصفه بالصدق في القول وأنه لا يكثر المساومة والجدال فعل الذى يستكثر من الربح ما استطاع طمعا وجشعا ، وقد اختلف الرواة في مصير السائب فقال بعضهم : قتل يوم بدر مشركا ، وقال بعضهم : انه أسلم فحسن اسلامه وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم حنين يوم الجعرانة .

كان يكره الغش لأنه يناقى المروءة فما بالك بالنبوة ؟ ومن صفات النبوة اللازمة كما يقول علماء السيرة : الصدق والأمانة والتبليغ والفظانة . وكان يحذر من الغش أيا كان موقعه في البيع والشراء والعمل والكلام . رأى صبرة طعام في السوق فأدخل يده فيها فأصابته بللا ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله ، قال : هلا عرضته ليراه الناس ؟ من غشنا فليس منا ، وكان يكره النفاق وهو خيانة ويصف النفاق بقوله : علامة المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان ، وليس أدل على أمانته صلى الله عليه وسلم من تسميته بالصادق الأمين من الد خصومه ، ومن أئتمانهم له على ودائعهم على رغم ما بينه وبينهم من شقاق ، حتى انه في أثناء هجرته أبقى بعده ابن عمه هلى بن أبى طالب ليرد للناس ودائعهم . ومن نصائحه الرائدة للتجسار ما يخبر به عن ربه جل وعلا : أنا ثالث الشريكين ما لم بخونا .

الوعظ المثالى :

أما وعظه فكان يأخذ بمجامع القلوب ، لأنه صادر من قلب مليء خشية الله واقبالا عليه ورجاء فيه ، فهو أقرب الناس الى الله وأخشاهم له ، ولم يأمر بشئ ويخالفه ، ولكنه يصدق قوله عمله ، وهذا هو الوعظ العملى الذى يؤثر فى الناس ، والذى يتحتم على الوعاظ الذين تتدبهم الدولة والهيئات أو يتدبون أنفسهم لاصلاح القلوب أن يتأسوا به .

فأساس الوعظ أن يعظ الانسان نفسه قبل أن يعظ غيره ، ومن كانت هذه سمته فقد نجح في عمله .

وكان لأسلوب النبي صلى الله عليه وسلم سحر عجيب ، وقد أعطاه الله جوامع الكلم ، وبلاغته في الذروة بعد القرآن الكريم ، يعجب أصحابه من منطقته فيقول لهم : أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ولا غرو في أن تأخذ فصاحته بمجامع القلوب لأنه ينهل من منهل رباني فما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى . .

وقد يقال : وائى للواعظين ذلك ؟ فيجاب بأن المتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم المهتدى بهديه يناله من فيضه نصيب ، ومن أدب الرسول صلى الله عليه وسلم في وعظه أنه كان لا يطيل على السامعين فيملوا ، ولكنه يوجز عليهم في غير اخلال بالمعنى ، كانت خطبته لا تتجاوز الجمل المحدودات ، فليس الهدف كثرة الكلام ولكن الهدف حسن العمل .

كان يقول لأصحابه : من أم بالناس فليخفف ، والامامة تعنى الى جانب الصلاة خطبة الجمعة والعيدين ، والمتتبع لخطب النبي صلى الله عليه وسلم لا يجد خطب أثمنا في هذه الايام تشببها في شيء . فالخطبة الآن قد تطول وتحبس الناس معها فتشرد أذهانهم وتمل أسماعهم ، أو تتلى من ديوان طال عمره وانتهى أمده .

كانت خطب النبي صلى الله عليه وسلم تتناول أهم أمور الناس في عبارات جامعة مانعة كأن يقول : أيها الناس ، ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، فان العبد بين مخافتين أجل قد مضى ، لا يدري ما الله صانع به ، وأجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشسبية قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت ، والذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعقب وما بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار .

انظر كيف امتازت هذه الخطبة بالقصد في الفكرة والاقناع بها ، جمعت بين التوضيح والتعليل والتصوير والتأكيد بما يؤثر في النفس غاية التأثير .

هى نموذج للإيجاز البليغ الذى يفى بالمعنى أتم الوفاء ولا يخل به ،
تجمع بين القوة والسلاسة والعذوبة فى الأسلوب . .

أرأيت فى هذا الأسلوب تكلفا ؟ أرأيت فيه شططا ؟ أرأيت فيه
مجاوزه لما تتطلبه الرسالة ولما يتطلبه المسلمون فى كل زمان ومكان ؟ أرأيت
فيه تكرارا مملا أو حشوا فاسدا ؟ كلا لا تجد فى كلام أبلغ البلغاء الا كل
سحر مأثور وكل معنى رائع وكل لفظ جميل وكل تأثير قوى فى النفوس ،
يصيب الحكمة فى أقل لفظ وأيسره ، وتذيع خطبه حتى يحفظها الزمن
ولا ينساها التاريخ .

ومن نماذج وعظه المقنع ما يرويه عمران بن حصين عن أبيه عن
جده أن قريشا جاءت الى الحصين وكانت تعظمه ، فقالوا له : كلم لنا هذا
الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب
النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : وسعوا للشيخ — وعمران وأصحابه
متوافرون — .

فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم . .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا حصين ، كم تعبد من اله ؟
قال : سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء .

فقال : فإذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء .

قال : فيستجيب لك وحده وتشرکہم معه ؟ أرضيته فى الشكر أم
تخاف أن يغلب عليك ؟ قال : لا واحدة من هاتين .

قال حصين : وعلمت أنى لم أكلم مثله .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : يا حصين أسلم تسلم : . قال :
ان لى قوما وعشيرة فماذا أقول ؟ قال : قل : اللهم أستهديك لأرشد امرى ،
وزدنى علما ينفعنى .

فقالها حصين ، فلم يتم حتى أسلم .

فقام اليه مهران فقبل رأسه ويديه ورجليه . فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكى . وقال : بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم اليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلني من ذلك الرقة .

فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : قوموا فشيّعوه الى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رآته قريش فقالوا : صبا وتفرقوا عنه ..

فهل هناك وعظ أبلغ من هذا ؟ وهل هناك حجة يقنع بها متطلع الى الهدى أقوى من هذه الحجة التي ساقها النبي صلى الله عليه وسلم لحصين ؟ وهل هناك دعاء يجمع بين أخرى الدنيا والآخرة أو جزء من هذا الدعاء الذي لقنه النبي صلى الله عليه وسلم لحصين ؟ ..

وفيما أخرجه أحمد عن أبي تميم الهجيمي عن رجل من قومه ، أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنت رسول الله ؟ فقال : نعم . قال : ما تدعو ؟ قال : أدعو الله عز وجل وحده ، من إذا كان لك ضرر فدعوته كشف عنك ، ومن إذا أصابك عام فدعوته أنبت لك ، ومن إذا كنت في أرض كفر فأضللت فدعوته رد عليك .

فأسلم الرجل ثم قال : أوصني يا رسول الله فقال : لا تسب شيئا أو قال أحدا .

قال : فما سببت بعيرا ولا شاة منذ أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان صلى الله عليه وسلم يوجز في وعظه ، ويصيب بالكلمة الواحدة المحز . قال له أحد أصحابه : أوصني يا رسول الله ، فقال له : لا تغضب .

وقال له أحدهم : قل لى فى الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك .
فقال له : قل آمنت بالله ثم استقم .

وقال أحدهم : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال
ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال : أبوك .
هى كلمة واحدة ، ولكن ما أغناها من كلمة .

نقول ذلك لوعاظنا اليوم الذين يكثرون فيطيلون ورحم الله من قال :
خير الكلام ما قل ودل .

هديه للصانع :

والصانع يجد فى هدى النبى صلى الله عليه وسلم له خير مثل يحمله
على اتقان عمله ، ويجد فى فعله صلى الله عليه وسلم القدوة الطيبة له
فى أنه لم يقصر فيما وكل اليه من أمور .

« ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » كلمة رائدة قالها
النبى صلى الله عليه وسلم تدعو كل انسان الى أن يفرغ باله وهمه فيما
يقوم به من أعمال ، حتى تأتى النتائج طيبة بما أعد لها من أسباب جيدة ،
كما تدعو الانسان أيضاً الى التعلم ليتقن عمله ، وتدعوه الى عدم اتهام
نفسه فيما لا يعلمه حتى لا يفسده .

وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم نفسه المثل فى ذلك ، حين
ذهب الى المدينة فوجدهم يؤبرون — يلحقون — النخل ، فقال لهم : لماذا
تفعلون ذلك ؟ فقالوا : حتى تثمر ، فقال لهم : لو تركتموها لأنثرت ،
فتركوها فلم تثمر ثمراً صالحاً ، فقالوا له فى ذلك ، فقال : أنتم أعلم
بدنياكم .

ولم يكن قوله أولاً ملزماً لهم ، بل هو من منطق الايمان بتقدير الله
ومشيئته ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وكان قوله الثانى تشريعاً
لهم حتى يعلمهم وجوب الأخذ بالأسباب .

وما قام النبي صلى الله عليه وسلم بعمل من أعمال الدنيا أو الدعوة إلا كان متقنا له ، يجتهد له ، ويستشير فيه ، ويحتاط للأمر ، مما يحدو بكل صاحب عمل الى أن يقتفى أثره ويحذو حذوه .

هديه للحاكم :

وللحاكم أن يأخذ من النبي صلى الله عليه وسلم مثله الأعلى . فعليه أن يتدبر جيدا قوله صلى الله عليه وسلم — فيما أخرجه البخارى — : ما بعث الله من نبي أو استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله .

ولعل هذا الحديث هو أساس الحكم ، فحسن اختيار المصاحبين للحاكم ، المعينين له على مسؤوليته يترتب عليه أحسن العواقب وأفضل النتائج وقيادة الرعية قيادة حسنة حكيمة ، وسوء الاختيار يأتى بعكس ما تقدم . وقد جاء في الأمثال : الناس على دين ملوكهم ، وإذا صلح الراعى صلحت الرعية ، وإذا فسد الراعى فسدت الرعية .

كان يحيط بالنبي صلى الله عليه وسلم نخبة ممتازة من ذوى الأقدار والملكات النادرة ، وكان يحسن اختيار من يكل اليهم الأمور من مبعوثين وقادة وعمال ، مخطأ واحد من هؤلاء محسوب على من اختاره ، ولا ينسى أن يثيب من يحسن ويحاسب من يفرط ، وقد يكون الثواب كلمة تقدير ولكنها من النبي صلى الله عليه وسلم تعد أعظم وسام . قال عن أبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة ، ولقب خالدا بسيف الله ، وسارت الأوصاف والألقاب عبر الزمن تشهد لأصحابها بما يفوق الأعطيات الزاخرة والنياشين الفاخرة .

وقد يكون الحساب توجيها عاما ولكنه له وقع السهم على قلب صاحبه . بعث ابن اللبיתה ليجمع الصدقات ، فعاد يقول : هذا لكم وهذا لى . فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر غاضبا وقال : ما بال الرجل نوليه عملا مما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدي الى ؟ أملا جلس

في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى إليه أم لا ؟ والذي نفسى بيده ، ما يغل أحدكم شيئاً مما ولى عليه الا يأتى يوم القيامة يحمله على عاتقه ان كان يعيرا له رغاء ، أو ثاة لها تغاء ، أو بقرة لها خوار ، اللهم هل بلغت ؟

فهل هناك تقريع أفعل من هذا ؟ وهل هناك زجر أبلى من ذلك ؟ وحسن الاختيار للمسئول واجب الحاكم ومسئولية عظمى يحاسب عليها غدا أمام الله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك : أيما رجل اسنعمل رجلا على عشرة أنفس على أن في العشيرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين .

لا يفغل الحاكم اليقظ عن أن حسن اختياره لمعاونيه وممثليه يعينه أتم المعاونة على أداء مهمته والبلوغ بأمته وشعبه الى أقصى ما يطمح اليه من تقدم ونهوض ، ولأن الحكم مسئولية كبرى وضعه النبي صلى الله عليه وسلم في رأس القائمة حين أراد أن يرعى نظر المسلمين الى أبعاد المسئولية وجوانبها فقال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع ومسئول عن رعيته . ثم مضى يحدد لكل فرد مسئوليته بعد ذلك .

ولأن الحكم مسئولية كانت الشورى قوامه وأساس اختيار الحاكم الصالح له ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس عن التطلع للحكم فقال له : لا تطلب الإمارة فإناك إن طلبتها لم تعن عليها وإن أعطيتها أعانك الله عليها .

كان أساس ما يحرص عليه النبي صلى الله عليه وسلم في تزويده القادة والأمراء هو التقوى ، لأن التقوى هي أساس الحكم الصالح ، والتقوى هي التي تهدي الى اتقان العمل واحكام الخطة وحسن التدبير وحسن المعاملة للمرعوسين وملاحظتهم وتفقد أمورهم وشئونهم وسياساتهم بما يتفق ومصالحهم ومصالح الأمة الإسلامية .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ملهما في سياسته وحكمه ، ولكنه مع ذلك الإلهام الذي يستعصى على كثير من الحكام كان يجتهد ليشرع لمن جاء بعده سنة الاجتهاد في الأمور وفي الوسائل التي تستتب بها الأمور .

والعدل والنزاهة والمساواة والصراحة والصدق من أسباب نجاح الحاكم في حكمه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في تلك الصفات وفي غيرها من الفضائل التي بعث لتحقيقها وتأكيدھا . . وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق ولا خير في دولة لا تحرسها الفضيلة ولا تبني قواعدها على الدين والأخلاق . وسيرته صلى الله عليه وسلم زاكية بالمثل التي لا يعسر على الحاكم الناجح أن يتأسى بها لو أراد أن يبلغ بأتمته مبلغ الكمال . وقصارى ما يقال في هذا المجال قوله عليه الصلاة والسلام في ختام خطبته في حجة الوداع : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنة رسوله .

وبعد ، فهذه قبسات من سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ما أوجبنا إلى تدبرها وتفهمها حتى نصل إلى بر الأمان والسلام الحقيقي ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

ان في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروسا نافعات ، ما أحرانا أن ننتفع بها ، وهذا ما أمرنا به ربنا جل جلاله في قوله تعالى : « **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** » الأحزاب ٢١ .

وانى لأرجو الله أن يغفر لى ما عسى أن أكون قد وقعت فيه من غفلة أو سهو أو جهل ، وأن يتجاوز عن تقصيري في تناول هذه السيرة العطرة ، وأن ينفعنى بما سطرته في هذه الصفحات وينفع المسلمين ، وأن يرزقنى معية المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعية أهل بيته الطاهرين والمهتدين بهديه وسنته .

وصلى الله وسلم وبارك على الرؤوف الرحيم المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

عبدالحفيظ فرغلى على القرنى

الحديدة في ٢٤ من ربيع الأول ١٤٠٢ هـ

١٩ من يناير ١٩٨٢ م

من مصادر هـ

- ١ - سيرة ابن هشام
لابن هشام
- ٢ - فقه السيرة
د. محمد سعيد ر. سان البوطي
- ٣ - فقه السيرة
الشيخ محمد الغز
- ٤ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين
الشيخ محمد الخضري
- ٥ - أسد الغابة في معرفة الصحابة
لابن الاثير
- ٦ - قصص الانبياء
للشيخ عبد الوهاب النجار
- ٧ - المقدمة
لابن خلدون
- ٨ - شرح حكم ابن عطاء الله
للرندي
- ٩ - الرسالة القشيرية
للقيصري
- ١٠ - عبقرية محمد
العقباد
- ١١ - أسباب النزول
للسيوطي
- ١٢ - غزوات الرسول
ابراهيم محمد القطب
- ١٣ - سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
محمود شلبي
- ١٤ - عمر بن الخطاب
محمود شلبي

الفهرس

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٥ | المقدمة |
| ٩ | النبي المنتظر |
| ٢٤ | حلف الفضول ١١ — مواقف أخرى ١٢ — عبادة الأصنام ١٢ البشارات السابقة ١٥ — علم اليهودية ١٥ — المتحنفون ٢٠ طفولة مبشرة |
| ٣٩ | ارهاصات وخوارق ٢٤ — في بادية بنى سعد ٢٧ — معجزات حسية ٢٩ — نشأة طيبة ٣١ — يتم جديد ٣٢ — في بيت عمه ٣٣ — مثل يحتذى في التربية ٣٤ — بحري يعرفه ٣٥ رجولة مطهرة |
| ٥٦ | مع المهمات الكبار ٣٩ — حارب الفجار ٤١ — اشتغاله بالتجارة ٤٣ — زواجه من خديجة ٤٤ — ثناء على خديجة ٤٦ السعادة الزوجية ٤٧ — رب الأسرة المثالي ٤٨ — حسن تصرف ٥٠ — فترة تأمل ٥٢ — آيات وخوارق ٥٣ — الكرامة الحقيقية ٥٣ كهولة مباركة |
| ١٠٤ | في غار حراء ٥٦ — الى ورقة ٥٧ — فتور الوحي ٥٩ — قصة في اسلام أبي بكر ٥٩ — سير الاسلام ٦٢ — اعلان الدعوة ٦٣ — تعذيب المسلمين ٦٤ — الله يعصم نبيه ٦٨ — الى الحبشة ٧٠ — مفاوضات ٧١ — تحدي المشركين ٧٣ — اسلام حمزة وعمر ٧٥ — الصحيفة الظالمية ٧٧ — الهجرة الثانية ٧٧ — حوار عند النجاشي ٧٨ — نقض الصحيفة ٨١ — يصدون عن لقاء النبي ٨٤ — عام الحزن ٨٧ — محاولة مع ثقيف ٨٩ — ايمان الجن ٩١ — الاسراء والمعراج ٩٣ — خطوات على الطريق الى يثرب ٩٨ — بيعة العقبة الاولى ١٠٠ — البيعة الثانية ١٠٢ — حول البيعتين ١٠٤ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٠٧ | انطلاق النور |
| | الهجرة الى يثرب ١٠٧ — آية الاعجاز في الهجرة ١٠٩ — النبي في المدينة ١١٥ — في بيت أبي أبوب ١٢٠ — تنظيم الاوضاع ١٢٢ — المنافقون ١٢٥ — تحويل القبلة وفرض الصوم ١٢٦ — الكفاح العملي ١٢٧ — مشروعية الجهاد ١٢٨ |
| ١٣٠ | الغزوات والسرايا |
| | غزوة بدر ١٣١ — غزوة بنى قينقاع ١٣٩ — غزوة أحد ١٤٣ — شهداء الرجيع وبئر معونة ١٥٢ — بنو النضير ١٥٦ — غزوة ذات الرقاع ١٥٨ — غزوة الخندق ١٦٤ — غزوة بنى قريظة ١٧٠ — غزوة بنى المصطلق ١٧٢ — بين يدي الحديبية ١٧٧ — غزوة الحديبية ١٨٠ — غزوة خيبر ١٨٦ — اسلام خالد ١٩٠ — رحلة الاسلام الى الخارج ١٩٠ — عمرة القضاء ١٩٦ — غزوة مؤتة ١٩٨ |
| ٢٠٢ | الفتح الاعظم |
| | الى مكة ٢٠٣ — الرسول في مكة ٢٠٥ — غزوة حنين ٢٠٩ — غزوة تبوك ٢١٥ — الوفود ٢٢٠ — حجة الوداع ٢٢٣ — بعث أسامة ومرض الرسول ٢٢٨ — الى الرميح الأعلى ٢٢٩ |
| ٢٣٢ | الانسانية العليا |
| | الصورة المثالية للأخلاق ٢٣٢ — عظمة أصحابه ٢٣٣ — مربي الرجال ٢٣٥ — توجيهات تنير القلوب ٢٣٩ — النبي لم يفصل بين الدين والدنيا ٢٤١ — جوانب القدوة في حياة الرسول ٢٤٤ |
| ٢٦٢ | المراجع |
| | والحمد لله أولا وأخيرا حمدا يوافي نعمته ويكافي مزيده |